



الآثار الغارقة

تأليف
رُوبرت سيلقربرج

ترجمة
الدكتور محمد الشحات

الناشر
مؤسسة سجل العرب
بإشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد
الحق شافع شريف باتا القاهرة
تليفون ٤٩٩٩٩ ٥٢٣٠٩

١٩٦٥

Copyright (c) 1988 by Robert Silverberg
Published by permission of the author and
Scott Meredith Literary Agency, Inc., USA

SUNKEN HISTORY : THE STUDY OF WATER
ARCHAEOLOGY

محتويات الكتاب

صفحة	مقدمة
٥	
٧	٠ الفصل الأول — علم الآثار ينتقل إلى البحر
٢٣	الفصل الثاني — صياد السمك والإسفنج
٥١	١ الفصل الثالث — أقدم التماثيل في العالم
٦٧	الفصل الرابع — خمور ماركوس سيسوس
٩١	الفصل الخامس — بئر المايا المقدس
١١٣	الفصل السادس — كنوز أخرى من أرض المايا
١٤١	٢ الفصل السابع — مدينة القرصان في البحر
١٥٥	٣ الفصل الثامن — استعادة السفينة الحربية فاسا من البحر
١٧٣	٤ الفصل التاسع — مدن تحت الأمواج

مقدمة

منذ أن بدأ الإنسان يمشى على الأرض ظلت تدفعه ثلاثة احتياجات : أن يكتشف ، أن يختبر ، وأهمها جميعاً أن يفهم . وهذه الدوافع نفسها هي التي جعلت البحارة المغامرين يجوبون فيا وراء أطراف العالم المعروف ليكتشفوا ما هنالك . وكذا « جاليليو » الذي عرض نفسه للسجن لأنه تجرأ ورفع عينين متسائلتين نحو النجوم والكواكب « وفسيليوس » الذي عمل سراً لكي يزيح الغطاء عن عجائب التشرّح الإنساني - لقد شقوا جميعاً طريقهم قدماً رغم الخطورة التي جابهتهم لأنهم كانوا يستهدفون المعرفة .

وقد دفع حب الاستطلاع الإنسان إلى بذل آلاف المحاولات . فالنجوم السيارة تدور في السماء تكشف عن أسرار المجرة - ويهيم الباحثون في مجاهل غينيا الجديدة والمناطق النائية في القطب الجنوبي المتجمد . والجسيمات الذرية تتباعد وتتصادم في أجهزة تحطيم الذرة عند محاولة الإنسان أن يكشف القناع عن جوهر المادة نفسها .

وتستمر الحرب ضد الجهل على طول جهات متعددة . ويعتبر علم الآثار - أي دراسة بقايا الماضي - من أهم المظاهر المثيرة لتلك الحملات اللانهائية لمعرفة المزيد عن العالم ومكانة الإنسان منه .

ولقد سبق أن تكلمت في كتاب سابق (المدن المفقودة والحضارات التي انمحت - تشيانتون ١٩٦٢) عن بعض الانتصارات المبكرة لعلم الآثار مثل استعادة بعض المدن من قبضة الزمن كبومبي ، وبابل ، وتشيشين إترا ، وكنوسوز ، وطروادة ، وانجكور . وقد أصبح علم الآثار منذ نشأته عندما طمس البركان مدينة

« بومبي » من مائتى عام من أكثر العلوم تشويقاً بل ورومانسية . وقد كشفت أمم بأكلمها ، عنى عليها النسيان ، عن أسرارها حتى ليكفنا أن نرسم بكل ثقة صوراً عن الحياة اليومية فى مصر التى مضى عليها ثلاثة آلاف عام أو قد تصل إلى أربعة آلاف عام .

وقد أظهر كتاب « المدن المفقودة والحضارات التى انمحت » أن علم الآثار ماهو أساساً إلا حفر الأرض بالمعول ، والإقامة تحت الشمس الاستوائية الحارقة . وهذا ينطبق فعلاً على ما قام به بعض رواد علم الآثار مثل لايارد ، وشلمان ، وإيفانز ، وكولدواى حيث كانوا يعملون على اليابسة .

ولكن فى هذا القرن ، وبالذات فى الخمس والعشرين سنة الماضية ، اتسع المجال أمام علماء الآثار . وظهر ميدان جديد لعلم آثار ما تحت الماء . ومع أن مهام علم الآثار الأرضى قد اكتملت بشكل ما ، إلا أن علماء آثار ما تحت الماء مازالوا يقومون بمجملات تبشر باكتشاف آثار جديدة من الماضى . وقد تمت فعلاً أعمال رواد آثار الأرض . وشكراً للوسائل الفنية الجديدة التى أتاحت لهم الآن أن يتحولوا إلى البحار ، وأن يضيفوا إلى معلوماتنا الكثير من الاكتشافات المثيرة فى وسط أمريكا ، وفى البحر الأبيض المتوسط ، وعشرات من المواقع الأخرى فى أنحاء العالم .

وهذه هى قصة التطور الجديد فى بحث الإنسان من أجل المعرفة - قصة علم الآثار تحت الماء .

الفصل الأول

علم الآثار ينتقل إلى البحر

« إن هدف علم الآثار هو إظهار وكشف مجرى الحضارة الإنسانية » هذه هي كلمات سير « ليونارد وولى » عالم الآثار العظيم الذى اكتشف « أور » - مدينة إبراهيم .

وقد يظن البعض أن هدف علم الآثار هو الكشف عن أشياء جميلة من الماضى فحسب - مثل التماثيل والفسيفساء والمعابد - حقاً لقد أضافت الأشياء التى اكتشفها علماء الآثار الكثير إلى تراثنا الفنى . ومن منا لا يملك إلا أن يعجب ويؤخذ بروعة جمال تلك الأشياء الأثرية التى وجدت مثل تمثال صغير لحمل اكتشفه وولى فى أور ، ويوجد حالياً فى متحف جامعة فيلادلفيا ؟ ومن منا لا يملك إلا أن يعجب بروية رونق الجدران التى وجدها سير آرثر إيفانز فى قصر الملك مينوس فى كريت ؟ وقطعاً ستشعر كأنك قد دخلت فعلاً فى دنيا الإلياذة عندما ترى درعاً ربما استخدمها « أخيل » ، أو قناعاً قد لبسه أجامميمنون ، أكثر مما لو فعلت ذلك بمجرد قراءة هوميروس ؟

ولكن هذه كلها نتائج ثانوية فى علم الآثار . ولتستعد مرة ثانية ما قاله ليونارد وولى « إن عالم الآثار يبحث عن كل ما هو إنسانى يتمتع باكتشاف أشياء نادرة وجميلة . ولكن زيادة على ذلك فهو يريد معرفة كل شيء عنها . وعلى كل فهو يفضل تحصيل المعلومات عن المقتنيات أكثر من المقتنيات فى حد ذاتها . إن الحفر بالنسبة له يعنى الملاحظة والتسجيل والتفسير . »

ولم يكن هذا هو الحال دائماً . فقد اهتم قدامى علماء الآثار بتكديس متاحفهم بالكثير من الأشياء الفنية أكثر من اهتمامهم بالملاحظة والتسجيل والتفسير . وقد تسبب هؤلاء في خسائر بالغة . لقد كانوا حسنى النية بالطبع ولكنهم عندما توغلوا بآلات حفرهم في المدن المدفونة حطموا الكثير من شواهد الماضي التي لا تعوض أثناء بحثهم الحموم عن مقتنيات المتحف .

وفي أواخر القرن التاسع عشر وبالتدريج مما نوع جديد من علم الآثار . فبدلاً من الحفر السريع في موقع ما ، بدأ علماء الآثار المعاصرون يعملون ببطء وبطريقة منظمة . فهم يكشفون عن بضع أقدام ثم يتوقفون لتسجيل كل ما رأوه نعم كل شيء رأوه : أجزاء من الفخار - قطع من الطوب الأحمر المكسور - مسامير متفرقة قد علاها الصدأ وحتى أى خط أبيض طباشيرى أقيم عليه في يوم ما سور خشبي - وتسجيل كل هذه الأشياء ثم تصور في موقعها الأصلي قبل عمل أى محاولة أخرى لتعميق الحفر .

ثم ينشر عالم الآثار اكتشافاته بعد ذلك ، ويخمن كل انسان معناها . فلربما أمكن مقارنة صناعة وتصميم قطعة من الفخار وجدت في منطقة ما بين النهرين (بالعراق) بأخرى وجدت في الهند . وهنا يمكن كشف النقاب عن حقيقة هامة عن الماضي ، ألا وهي وجود تجارة بين بلاد ما بين النهرين والهند في العهود القديمة . وقطع الفخار لا تبدو جذابة في صناديق العرض بالمتاحف ، إلا أنها على جانب كبير من الأهمية في مساعدة علماء الآثار على كشف وفهم معاني تاريخ الإنسان .

وعلى ذلك فلا يعنى علم الآثار اليوم مجرد الحفر بحثاً عن الكنوز المدفونة ، يبحث عالم الآثار ليعرف كيف بينى الناس بيوتهم والأطعمة التي يأكلونها والأدوات

التي يستعملونها وكيف كانوا يلبسون ، وكيف كانوا يعبدون آلهتهم . ويتطلب الوصول إلى كشف هذه الأشياء التنقيب المنظم الحريص بوصة بعد بوصة ؛ فإعالم الآثار يشعر بمسئولية كبيرة ويقوم بعمله على أتم وجه فلو أنه أتلف جزءاً من الآثار سواء عن جهل أو إهمال ، فهو يدرك أنه يعرقل تقدم المعرفة الإنسانية أكثر مما يساعدها .

وينحضع عالم الآثار الذي يعمل في البحار لنفس هذه القوانين ؛ فيجب عليه أيضاً أن يكون منظماً ودقيقاً ، ويصور أيضاً ويسجل كل التفاصيل الدقيقة قبل أن يحركها من مكانها ولكن مهمته في هذه الحالة صعبة بشكل غريب فبدلاً من أن يتصدى للشمس المحرقة فعليه أن يعمل تحت ثقل أطنان من الماء ، وهو مهدد بقرش البحر والباراكودا وأسماك القاع المفترسة . ويجب أن يعمل دائماً في موقع مدفون لا بالرمال والحجارة ، وإنما بأنواع من الحلزونات المائية والأسماك الصدفية والشعب المرجانية أو حجر الجير الصلب . وتتوقف حياته أثناء العمل على مصدر الأوكسجين الذي يساعده على استمرار التنفس .

ولا يتردد عالم الآثار الذي يعمل تحت الماء - رغم كل هذه الصعوبات - في أن يهيم على مسئوليته وهو يرحب فعلاً بأخطار مهنته . ولقد فتخ العمل في البحار لعلم الآثار مجالاً جديداً . فيعمل أولئك « الأساتذة ذوو الزعانف » وهم يدركون تماماً أنهم على حدود مملكة الإنسان وهم في هذا كمثل رواد الفضاء ، فهم يخاطرون باسم العلم فيها وراء الغلاف الجوي .

وهناك أربعة أنواع عامة من المواقع يعمل فيها علماء الآثار تحت المائية . وفي الفصل القادم سنتناول بالشرح كلا منها . فلنر الآن ما هي :

١ - حطام السفن الفارقة القديمة :

تعتبر هذه المجموعة من أخصب المجالات بالنسبة لعالم الآثار فقد كان الإبحار بالسفن محفوفاً بالمخاطر مما يؤدي إلى فقدان بعض السفن كل عام . وكان البحر الأبيض المتوسط في أيام الرومان والإغريق يموج بالسفن التجارية وكانت مآسى اصطدامها تحدث دائماً بدون سابق إنذار : يكفهر الجو وتقوم العاصفة فكانت أى سفينة قاصدة إلى أسبانيا أو شمال إفريقيا تجدها تنقلب في لحظة ، وتغوص إلى الأعماق بكل ما عليها من أحمال . ولذلك يتلىء البحر الأبيض المتوسط ببقايا السفن أى منذ أربعة أو خمسة آلاف عام .

ولم يكن وجود هذه السفن الفارقة هناك سرّاً غير معروف ، وإنما كانت المشكلة هي كيفية الوصول إليها وانتقال الكنوز الخبئة في أماكنها المتناكلة . وسنجد أنه بالرغم من أن بعض الصيادين كانوا يجدون بين السفينة والسفينة أجزاء من التماثيل أو آنية مغطاة بطبقة من الطين اللزج ، إلا أن مثل هذه الأشياء نادرة لا قيمة لها إلا بتذكير علماء الآثار بالعجائب التي لم يصلوا إليها بعد .

وحديثاً في سنة ١٩٢٨ كتب الأستاذ « سالومون ريناتش »^(١) يقول :
« لا زالت أغنى المتاحف الأثرية في العالم بعيدة المنال ، لأنها تكن في قاع شرق البحر الأبيض المتوسط . ومع أننا قادرون على اكتشاف الأرض والهواء بدون صعوبة تذكر إلا أننا أبعد ما نكون عن منافسة الأسماك في الماء . وهي - كما جاءت على لسان القديس أوغستين - تعيش في مسالك الهاوية السرية . ولقد بقيت هذه المسالك سرّاً مغلقاً علينا »

ثم قال « وبينما نحن في انتظار ذلك اليوم الذى يسمح لنا فيه تطور العلم بأن ندلى بدلونا في هذه الاكتشافات ، لا يملك عالم الآثار إلا أن يدين بالفضل للمصادفة وللصيادين بالنسبة لهذه الاكتشافات » .

أما اليوم فلم تعد مسالك تلك الهاوية مغلقة عنا - إذ يتجول علماء الآثار بشغف في أعماق البحر الأبيض المتوسط ، وبدأ المتحف المغمور بالماء يفرط في كنوزه الواحد تلو الآخر .

٢ - مناطق الشواطئ المهجورة :

ويعتبر اكتشاف تلك المناطق (التى كانت فى يوم ما أرضاً يابسة ثم اكتسحها البحر) نوعاً هاماً آخر من علم الآثار تحت المائية - ولقد تغيرت معالم الشاطئ على مدى آلاف السنين : ففي بعض الأجزاء من العالم تراجع البحر كاشفاً وراءه ما كان فى يوم ما قاع المحيط . وفى أماكن أخرى طغى البحر على الأرض فتآكلت قدماً بعد قدم .

وقد نتجت أحسن المواقع الصالحة لعلم الآثار تحت المائية من هذا التآكل . ويوجد معظمها على طول شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، التى تعتبر مركزاً لمعظم نشاط علماء الآثار تحت المائية . وتعتبر ميناء قيسارية القديمة (بفلسطين) أحد هذه المواقع : فعندما طغى عليها البحر أغرق جزءاً من الميناء . ويحاول علماء الآثار الآن استعادته من قبضة البحر الأبيض المتوسط . ويمكن رؤية أطلال المدن القديمة حول أطراف البحر على بعد قليل من الشاطئ وستجد كل منها بدورها عناية واهتمام علماء الآثار .

٣ - المدن الغارقة :

أحياناً يغرق الطوفان مدينة بأكملها ولا يقتصر على طول الشاطئ فقط . ويعتقد بعض علماء الآثار أن الطريقة التي تلاشت بها بعض المدن التي وردت في الإنجيل مثل سادوم وعمورة هي أن الأرض قد انهارت وغاصت ، فغمرتها مياه البحر الميت . وهناك أيضاً مدينة إس Y S شبه الخرافية وهي بعيدة عن الشاطئ البريطاني ، ونفس الشيء بالنسبة « لأطلانطس » الأسطورية ، وهي القارة الخرافية التي غرقت والتي طالما حلم الإنسان باكتشافها منذ عصر أفلاطون . وحديثاً اكتشف علماء الآثار مدينة « بورت رويال » وهي على جزيرة جامايكا التي أغرقها الزلازل . وفي فصل قادم سنتناول بإسهاب تفاصيل البحث عن أطلانطس وإس والمدن الأخرى التي غرقت في العالم .

٤ - آبار القربان :

ويعتبر بئر التضحية هو المجموعة الرابعة والكبيرة في علم الآثار تحت المائية . ويبدو أن إلقاء الأشياء في بئر هي طريقة تهدف إلى ضمان الحظ السعيد . ومن منا لم يلق بعملة في بئر الأمنيات في يوم ما .

وهناك أمم تؤمن بقذف ما هو أكبر من العملات الصغيرة في الآبار من أجل حظ سعيد . وأشدها غرابة هم المايا the Mayas في وسط أمريكا . فلهم طقوس منتظمة يقدم فيها السكان الحى قرباناً للآلهة ، وذلك بدفعه في آبار عميقة وجنباً لجنب مع الضحايا الذين لا حيلة لهم . فإن شعب المايا يرمى بالمصوغات والقرابين والهدايا الأخرى إلى الآلهة .

وقد ذكرت في كتاب « المدن المفقودة والحضارات التي انمحت » كيف أن « ا. ه. طومسون » قد اكتشف بئر القربان في « تشيتشان أتزا » في المكسيك . وكان طومسون ، وهو أحد رواد علم الآثار تحت المائية يستخدم آلات بدائية وملابس غريبة غير متقنة للغطس إلى أعماق الآبار الموحلة . وكانت نتائجه كبيرة فقد استخرج مئات من الأدوات المصنوعة من النحاس والذهب وحجر اليشم من البئر .

ومنذ عدة سنوات نزل أحد المكتشفين المعاصرين إلى بئر « تشيتشان أتزا » ليرى ما إذا كان طومسون قد ترك شيئاً خلفه . ولا يزال أمام باحثين آخرين - في مكان آخر في أرض « ألمايا » الكثير مما يمكن اكتشافه في الآبار والبحيرات حيث ترك هؤلاء الهنود الغريبو الأطوار آلاف من الخلفات الأثرية لحضارتهم .

ويجابه الإنسان مشكلتين كبيرتين إذا ما أراد أن يسبر غور أعماق البحر ألا وهما : مشكلة التنفس ومشكلة الضغط .

وكان الغواصون الأوائل يمسون أنفاسهم . وحتى الآن وفي كثير من أنحاء العالم لا يزال صيادو الأسماك والسماك يستعملون هذه الطريقة البدائية ، ولكن كمية الاكتشاف التي يمكن عملها بهذه الطريقة محدودة جداً . فأكثر الغواصين مهارة يمكن أن يمسك أنفاسه دقيقتين أو ثلاثة على الأكثر . وتنقطع أنفاس السباح العادي غير المدرب في أقل من دقيقة . ولا يمكن لأى عالم آثار أن يقوم بأى نوع من الاستكشافات في نفس واحد يستغرق دقيقة . وعلى ذلك يجب البحث عن طريقة تزود الإنسان بما يساعده على التنفس في الأعماق ، لكي يزدهر علم الآثار تحت المائية .

ويضاعف ضغط الماء صعوبة الموقف : فنجد أن الماء وهو على عمق ثلاثة وثلاثين قدماً يضغط على كل بوصة مكعبة من جسم الغواص بضعف قوة ضغط الهواء عند السطح . وعلى عمق ستة وستين قدماً يصبح الضغط ثلاثة أضعاف ماهو موجود على سطح الماء . وعلى عمق تسعة وتسعين قدماً يرتفع إلى أربعة أضعاف وهكذا . وعند نزول الغواص إلى الماء يشعر كأن قبضه غير مرئية تعصره عسراً وبشدة أكثر فأكثر ودائماً أشد ، وتدفع مقلتي العينين إلى الداخل وكذا طبلي الأذنين ، وتضغط الرئتين - وهذا إحساس غير مريح قطعاً .

ويمكن للغواص الذى لم يحتم بشيء ما ، أن ينزل إلى عمق مائتى قدم دون أن يعانى بشكل جدى من الضغط . أما أبعد من هذا - فلا بد من وجود درع واق - وقد نجح الإنسان فى أن يصل إلى عمق آلاف الأقدام مرتدياً درعاً تقاوم جدران المعدنية الضغط . ولو تحطمت جدران هذا الدرع لاندك جسم الإنسان بداخله بتأثير ضغط الماء .

و يتم معظم البحث عن الآثار تحت المائية على أعماق لا تصل إلى هذا المدى الذى يعرقل العمل . وهنا تظهر مشكلة التنفس مرة ثانية .

وقصة الغطس تحت الماء قصة طويلة تحتاج لكتاب بأكمله . وترجع ملابس وأجراس الغواصين إلى العصور الوسطى . وقد بدأت تتحسن بسرعة منذ القرن التاسع عشر حتى الآن حيث أصبحت ملابس الغواصين الحديثة تمكنهم من أن يحولوا حولهم بأمان وراحة تامة فى الأعماق البعيدة ، وتصلهم إمدادات الهواء خلال أنابيب من سطح الماء البعيد .

ومع ذلك فرداء الغطس غير مريح فى المياه الضحلة لأن الغواص يتحرك داخل غلاف معدنى مما يجعل خطواته ثقيلة ومعقدة ، ولا يمكنه أن يتحرك

كما يحلوه . ولو انقطع ما يربطه بالحياة على السطح لوقع في أشد المآزق . والإنسان المرتدى رداء الغطس معرض أيضاً للإصابة في أى حادثة . هذا بالإضافة إلى عرقلة حركته نتيجة هذا الحمل من الأدوات .

ورداء الغواصين ضرورى جداً للعمل به في الأغوار العميقة وإلا تعرض الجسم للتخبط بواسطة ضغط الماء . ولما كانت المواقع التي يعمل فيها علماء الآثار لا تبعد أكثر من مائتي قدم تحت سطح الماء أصبح لا بد من البحث عن شيء أبسط وأكثر ملاءمة .

وقد تمكنا من الوصول إليه ، ويعرف باسم « سكيوبا » Scuba وهو اختصار للجملة الإنجليزية التي تعني جهاز التنفس الذاتي تحت الماء . وقد أحدث السكيوبا ثورة في علم الآثار تحت المائية ، فقد حرر الغواصين من خطر الاعتماد على خرطوم الهواء . وكذا حررهم من قيود ملابسهم السابقة . وكل ما يتردونه هو قناع ورداء البحر وزعانف ، ويحمل غواص السكيوبا معه الإمدادات التي يحتاجها للتنفس . ويتحرك حوله كما يحلوه . وحالياً يتم تقريباً كل البحث عن الآثار تحت المائية بواسطة غواصي السكيوبا أو الغواصين العراة إلا عندما يكون العمق مشكلة .

وتعتبر ثورة السكيوبا حديثة ، ولو أن فكرة الجهاز الذاتي للغطس ترجع إلى ما قبل مائة وخمسين عاماً . فقد اكتشف « و. ه. جيمس » سنة ١٨٢٥ أول جهاز ، وقد استخدم أسطوانة أكسوجين مثبتة في رداء الغطس التقليدي في ذلك العهد .

ولكن عندما يتنفس فإننا نطرد ثنائي أكسيد الكربون الذي يصبح ساماً إذا ما زادت كمياته . ويسمح جهاز « و. ه. جيمس » لثنائي أكسيد الكربون

يأن يتجمع في خزان النفس . وسرعان ما يفسد الأكسوجين المحتزن بثاني أكسيد الكربون ويضطر الغواص أن يعود إلى السطح .

ولم يتم استكمال الجهاز الذاتي بحيث يتخلص من ثاني أكسيد الكربون الخارج مع الزفير إلا سنة ١٨٧٨ . وجهاز « هـ . ا . فلوس Fleuss » من إنجلترا قد تمكن من استمرار دورة الأكسوجين ، فاستبعد ثاني أكسيد الكربون بطريقة كيميائية وتم التخلص منه من خلال صمام - ولكن هذا الترتيب - ولو أنه مفيد بطريقته الخاصة إلا أنه غير ملائم للسباحين . ويمكن استخدامه فقط إذا كان الإنسان سائراً بأقدام مثقلة على قاع المحيط .

وقد بدأ الغطس بالجلد كما نعرفه الآن في فرنسا سنة ١٩٣٣ . اخترع الكومندان « إيفز لو بريير » وهو ضابط بحري فرنسي جهاز سكيوبا مكوناً من زجاجة مملوءة بالهواء المضغوط ومعاقلة على الصدر ومتصلة بأنبوبة هواء تصل إلى قناع يغطي كل الوجه . وحتى بهذا الجهاز لم تكن السباحة ممكنة . ولكن يجب أن يمشى الغواص على القاع . ولكن عمل مهندسو العقد الذي يليه في جميع أنحاء العالم على تعديل الجهاز الأصلي . وفي نفس الوقت ظهرت الزعانف التي تساعد على السباحة . وقدم إدي كورليو الفرنسي سنة ١٩٣٥ أول زعانف للأقدام إلى السوق (كانت لدى ليوناردو دافينشي منذ أربعائة عام فكرة عن استعمال زعانف يدوية ، وقد صنع بنيامين فرانكلين فعلاً زوجاً منها) .

وقد صاحب الحرب العالمية الثانية تطور في وسائل التنفس تحت الماء لأسباب حربية . فقد زود رجال البحرية الأمريكية (الضفادع) بأجهزة أكسوجين تسمح لهم بالبقاء ساعتين مرة واحدة تحت الماء بدون الصعود إلى السطح ، ولكن حتى هذه الأجهزة لا تصلح إلا لعمق ثلاثة وثلاثين قدماً . أما أبعد من هذا فالغواص معرض للتسمم بالأكسوجين نتيجة لاستنشاقه الأكسوجين النقي بدلاً من الهواء .

وبعد الحرب بيعت هذه « الأتقنة » الفائضة من مخازن الحرب إلى الجمهور ، وأصبح الغطس بالجلد هواية محبوبة بين المغامرين . ولكن هذه الأتقنة القديمة الصنع كانت خطيرة وسببت كثيراً من الوفيات عند مذهب الغواصون إلى أعماق بعيدة . فعلى عمق أكثر من ثلاثة وثلاثين قدماً أو « ٢٠ جو » يمتص الدم الأكسوجين بسهولة ويصبح مشبعاً به بسرعة وينتج عن هذا عجز الدم للمشحع بالأكسوجين عن حمل ثلثي أكسيد الكربون بعيداً وبشكل سليم وبالتالي يؤدي إلى الوفاة البطيئة .

وعندما ظهرت خطورة أجهزة الأتقنة شغل المخترعون أنفسهم مرة ثانية وتحولت الأنظار إلى أجهزة التنفس ذات « الدائرة المفتوحة » .

وسميت أتقنة الأكسوجين الخطيرة أجهزة « الدائرة المغلقة » لأن نفس الكمية المخزونة من الأكسوجين تدور بلا نهاية مع ثلثي أكسيد الكربون وبعض الشوائب الأخرى التي تمتص معه . وتعتبر وحدات « الدائرة المفتوحة » التي ينفذ هواء الزفير منها إلى الماء أكثر أمناً لأسباب تكتيكية مختلفة .

ومع ذلك فهناك عيب واحد كبير في أجهزة « الدائرة المفتوحة » وهو أنها تفرغ الهواء بسرعة فيستطيع الغواص بجهاز دائرة مغلقة أن يبقى تحت الماء عدة ساعات . أما جهاز الدائرة المفتوحة فيغذى بالهواء باستمرار وتستهلك الكمية في الحال مما يضطر الغواص للصعود إلى السطح خلال دقائق معدودة وإلا فليحمل خزانات ثقيلة ترهقه .

وانطلوب هنا هو نوع من الصمام يبطئ استهلاك الهواء في جهاز الدائرة المفتوحة . ومن الغريب أن الفكرة الرئيسية لهذا الصمام كانت قد اخترعت منذ ١٨٦٦ ، وقد أضاف مخترع باريسى اسمه « بنواست روكارول » تحسينات.

إلى الجهاز المعروف حالياً باسم « منظم الطلب » وتلائم منظمات الطلب نفسها حسب ضغط الماء المحيط بالغواص ولا تسمح بإخراج الهواء إلا عند ما يتنفس الغواص . وبتنظيم عملية إخراج الهواء من منظم الطلب بالخزان يمكن لأجهزة الدائرة المفتوحة أن تحمل من الهواء ما يسمح للغواص أن يستمر نصف ساعة أو أكثر تحت الماء .

ولقد سبق روكارول زمنه ولم يلفت اكتشافه الأنظار . وبعد ذلك بتسعين عاماً كان العالم على استعداد لتقبله ، ثم تم تعديل منظمات الطلب لتحقيق الأمان والكفاية للسكوبا ذات الدائرة المفتوحة .

ونجح فرنسي ذو ظهر محني ووجه يشبه الصقر اسمه « جاك ايفز كوستو » — سنقابله مراراً في الفصول المقبلة — في عمل هذا النوع من الأجهزة . فقد طور هو ومهندس يدعى « إميل جانين » جهازها سنة ١٩٤٣ وبذلاً ما يزيد على ٥٠٠ محاولة للغطس به في ذلك العام حيث وصل به إلى عمق ٦٠ قدماً و ٧٠ قدماً ثم ١٣٠ قدماً وبمنتهى الحذر إلى العمق المذهل وهو ٢١٠ أقدام .

وسجل كوستو وجانين اختراعهما في الولايات المتحدة في مارس سنة ١٩٤٧ وأطلقا عليه إسم « الرثة المائية » ، وهو إسم تجارى يشير فقط إلى جهاز كوستو وجانين ولكن مثله كمثل الأسماء التجارية الأخرى مثل « فريجيدير » أصبح جزءاً من لغتنا . ونستعمله الآن للدلالة على أى نوع من أجهزة السكوبا ولا يقتصر على الجهاز الذى سجله كوستو وجانين .

وتوجد حالياً في السوق أنواع مختلفة من الرثات المائية بعد مرور ما يزيد عن خمسة عشر عاماً ، عرض الجهاز الأول على الجمهور . ومع ذلك تتشابه المبادئ الرئيسية في جميع الأجهزة . فيحمل الغواص خزانات من الهواء

المضغوط — لا الأكسوجين النقي — على ظهره ، وتتصل بخراطوم الهواء الذى يصل إلى مكان الفم ، ويمده منظم الطلب بالهواء الذى يحتاجه ، ويخرج الهواء الفاسد من خلال صمام العادم . ويلبس الغواص قناعاً وزعانف وإذا كان الماء بارداً يلبس رداءً من المطاط يغطى جسمه كله .

وقد أصبح استعمال أجهزة السكوبا اليوم سهلاً كسهولة السباحة ذاتها ، ويجرب النشء من سن عشر سنوات فما فوق مهارتهم فى استعمالها تحت رقابة صحيحة بالمطبع ولا يتطلب الأمر أكثر من بضعة دروس فى حوض سباحة أو فى مياه ضحلة جداً حتى يدركون مبادئها ويتعلمون ماذا يفعلونه فى حالات الضرورة وعلى المبتدئ أن يعرف جيداً كيف يتصرف فى حالة فساد خراطوم الهواء أو امتلاء القناع بالماء .

ولكن هذه الأسس يمكن معرفتها كلها فى ساعتين من التمرين ، ثم بعد ذلك يتراعى أمامك عالم ما تحت البحار : العالم الذى سماه الكابتن كوستو « العالم الصامت » ، وذلك فى كتاب مشهور له .

إن الغطس بالجلد هو أقرب الأشياء إلى الطيران الحر الفعلى الذى يمكن أن يجربه أى واحد منا . فأنت لا تحس بالخزانات على ظهرك . وإذا هبطت — كما فعلت أنا فى المياه البلورية الصافية فى بحر الكاريبي فستفقد تماماً كل إحساس بأنك فى الماء . فالأمواج فوقك والماء شفاف تماماً . وإذا نظرت إلى أسفل سترى تشكيلات جميلة من قرون الغزلان المرجانية المتشعبة . وإذا دفعت زعانفك وجدت نفسك هابطاً خمسة عشر فخرين فخمسة وعشرين قدماً . وتستطيع أن تفحص الشعب المرجانية عن قرب بينما تنعوصك أنت سمكة صغيرة جسورة ذات ألوان مثل قوس قزح ، وأحياناً تضرب بالفعل قناع وجهك بدافع من حب الاستطلاع .

وربما يمر من فوقك أسطول من الحبار يبلغ طول الواحد منه قدماً يسبح في تشكيلات عسكرية محكمة . ثم تحرك مرة أخرى زعانفك فتصعد دون جهد لتحصل على نظرة أفضل ، وعندئذ ترى الحبار دون أن يفقد اعتزازه بنفسه ، ويخرج عصارة بنية في الماء ثم يسبح بعيداً عنك .

إنه عالم بلا زمن . والشئ المؤسف حقاً هو أنه يجب عليك أن تعود إلى السطح عندما تقارب خزاناتك النهائية . وكثيراً ما تعاني لكي تفرض على نفسك العودة إلى السطح فأنت حراً تماماً ، حر تتحرك في أى اتجاه كما تشاء ، إلى أعلى أو إلى أسفل في أى اتجاه . أما عندما تعود إلى الأرض الجافة فإنك تصبح عبد الجاذبية مرة أخرى .

ولا يهبط أغلب الهوائ من الغواصين بالجلد أكثر من ثلاثين قدماً تقريباً . ولكن إذا اتخذت إجراءات سليمة يستطيع الغواص المدرب أن يصل إلى أعماق تصل إلى عشرة أضعاف هذا الرقم تقريباً . هناك أخطار بالطبع ، ولكن هناك أيضاً تعويض مجز .

وقد نشط ظهور السكيوبا من علم الآثار التحت مائية . لقد ذهبت بدل الغطس المتعبة إلى غير رجعة ، وكذلك الأحذية المربوطة بأثقال - وهي التي كانت تثير سحجاً من التعكير والترسيب وتقلق آثار ومخلفات التاريخ . إن عالم الآثار يستطيع الآن أن يتحرك وفقاً لارادته يفحص أو يصور أو يدرس ، كما أنه عند ما يحتاج الأمر إلى عمل دقيق يستطيع أن يقوم به بيديه دون الحاجة إلى قفازات .

وبالطبع لا يستطيع كل علماء الآثار أن يغطسوا بالجلد . وحتى في هذه الحالة يستطيعون أن يستفيدوا من تدريبات الآخرين الرياضية . أما علماء الآثار ذوو

الحركة البطيئة أو من غير الشباب ممن لا يستطيعون استخدام الرئة المائية فيمكنهم بل ويستطيعون أن يوجهوا نشاط الآخرين . وهذا هو ما يفعلونه تماماً . لقد رأس الرحلات الاستكشافية أناس لم يضعوا على جسمهم أبداً لباس الاستحمام .

ورغم هذا فإن كل عالم آثار يفضل أن يرى بعينه هو . ولهذا نشأ جيل جديد من علماء الآثار الشبان ويعرفون باسم « عالم الآثار الغواص بالجلد » وهو يستطيع أن يقوم لا بالغطس فحسب ولكنه أيضاً مدرب على علم تفسير ما يراه .

ونظراً لأن الحصول على جهاز سكيوبا يضمن السلامة والراحة لم يصبح ممكناً على نطاق واسع إلا منذ سنة ١٩٤٧ فقط ، فإن علم الآثار تحت المائية لا زال يخطو أولى خطواته نحو اتساع نشاطه : إن السكيوبا وغيرها من الآلات المستنبطة الجديدة (مثل مصعد لينك الهوائى الذى سنواجهه فى فصول لاحقة) يفتح آفاقاً جديدة واسعة بالنسبة لعالم الآثار .

وقبل أن نبدأ بدراسة التقدم الذى حققه العلم الجديد لعلم الآثار تحت المائية ، نعود إلى أيام ما قبل الرئة المائية - إلى أيام الارتياح الأولى فى علم الآثار تحت المائية .

الفصل الثاني

صَيَاوُ السَّمَكِ وَالْإِسْفَنْجِ

نحن الآن في سنة ١٩٠٠ . في ذلك العام هبت عاصفة هوجاء على البحر الأبيض المتوسط . كانت ريحاً شمالية غربية عاتية . وهذا معناه أن يحدق الخطر بكل سفينة شاء لها سوء الحظ أن تكون في البحر في ذلك الوقت . كانت مثل هذه العواصف طيلة آلاف من السنين تلتقي بالسفن اليونانية في أعماق البحر . وفي ذلك الوقت تعرضت سفينتان يونانيتان للخطر وهما سفينتان من النوع القديم تحملان غواصي الاسفنج . وقرناً بعد قرن من الزمان كان اليونانيون الأشداء الرياضيون يغطسون إلى أعماق البحر الأبيض المتوسط ليصطادوا الاسفنج بدون الاستعانة بالخوذات أو خزانات الهواء . كانوا يندفعون إلى أسفل وقد علقوا أثقالاً من الحجارة بأقدامهم ثم يحدسون الإسفنج حتى ينضب الهواء من رئاتهم القوية ، ثم يتخلصون من أثقالهم ويصعدون إلى السطح ومعهم الغنائم .

وكانت هاتان السفينتان في طريق العودة بعد رحلة في شمال إفريقيا ، حيث كان الغواصون يجمعون الاسفنج عند ساحل تونس . وعندما هبت العاصفة المفاجئة اضطرت السفينتان إلى الالتجاء إلى مكان تحميمان فيه ، فغادرتا جزيرة « انتيكيتيرا » Antikythera عند نهاية الأرخبيل اليوناني وهي ليست ببعيدة عن كريت ، ورستا عند مرفأ هادىء على بعد خمس وسبعين قدماً من الساحل .

وبدا كأنهم سيحتجزون هناك بعض الوقت حتى تنتهى العاصفة . وجاءت بخاطر الكابتن ديمتريوس كوندوس فكرة اقتصادية :

« لم لا نحاول أن نعرف ما إذا كان هنا إسفنج نجعله أم لا طيلة الفترة التي سنضطر للبقاء فيها هنا ؟ » .

إن هؤلاء اليونانيين - وهم من سلالة غواصي الإسفنج القدامى - كانوا يستخدمون أساليب حديثة : الخوذة والأحذية المربوطة بالأثقال . واستعد الغواص . « إلياس ستادياتيس » وهبط عابراً مائة وخمسين قدماً من الماء الصافي حتى وصل إلى القاع .

وفي غمار دهشته المفاجئة في موضوع الإسفنج - صاح قائلاً : ما هذا ؟ جياذ في قاع البحر ؟ عمالة من النساء والرجال ؟ هل هذا هو أحد مقار الآلهة ؟ لا . لا . ليست آلهة : إنها تماثيل .

ونظر « ستادياتيس » في ذهول وحلق في المجموعة المتناثرة من التماثيل ، وكان أمامه تماثيل لإحدى الأمهات من المرمى مدفونة حتى نصفها في الرمال وتبدو عارية جميلة ، إذا نظرت إليها من الخلف ، أما وجهها فقد أكله سمك المحار وكانت هناك أيضاً جياذ ضخمة حوافرها تضرب في الماء كأنها على وشك أن تقفز إلى السطح . وهناك أيضاً العيون العمياء لشاب مفتول العضلات تنظر في ذهول متعمد إلى سمكة عابرة .

واتجه ستادياتيس ليقبض على يد تماثيل برونزي قريب منه ولكن ذراعاً بأكملها انخلعت في يده . وما أن قبض على الذراع الضخم في إحكام حتى جذب بعنف الحبال التي تربطه بأعلى ، كأنه ينادى : « إجذبوني إلى أعلى . . إجذبوني إلى أعلى » .

ثم وصل إلى السطح وكشف عما وجد ، ثم أشار إلى البحر وقال بأنفاس متقطعة « تماثيل - جياذ - رجال ، آلهة - عشرات من التماثيل » .

ولكن العاصفة كانت على وشك الانتهاء ، كما أن السفينتين لم تكونا معدتين لمحاولة التماثيل الثقيلة من الأعماق . وقد حدد الكابتن كوندوس مكان هذا الموقع بالدقة ، بعد أن هبط إلى أسفل ليتحقق من الاكتشافات ، وليأخذ بمقاسات التماثيل ، ثم أبحرت السفينتان عائدتين إلى الوطن .

وذهب الكابتن كوندوس والغواص ستادياتيس إلى أثينا يحكيان ما رآياه ، ومعهما الذراع الضخم إثباتاً لما يقولان . ورحب الناس فرحين بجامعي الاسفنج لأنه إذا كانت الدول الأخرى قد نهبت آثار الإغريق طيلة قرون من الزمان . فقد جاء الوقت ليكون لدى اليونان بعض علماء الآثار من بنيتها . وكانوا يستعذبون محاولة اكتشاف الكنوز المجهولة .

وتم تنظيم رحلة بشكل سريع . وفي نوفمبر سنة ١٩٠٠ تم تجهيز سفينة من سفن الأسطول اليوناني تستطيع نقل التماثيل الكبيرة ، وانطلقت السفينة إلى موقع انديكيثيرا .

واستمر علماء الآثار والغواصون في العمل طيلة تسعة شهور . وكانت تهب عليهم أغاب الوقت رياح شديدة تعرض السفن للخطر . وعاش الغواصون فترة عصيبة أيضاً ، فكان عليهم أن يعملوا على عمق مائة وخمسين أو مائة وسبعين قدماً ، وكانت أجهزتهم البدائية المعدة للغطس لا تمنحهم إلا حماية قليلة من الضغط ، ولم يكن باستطاعتهم البقاء في الماء أكثر من خمس أو ست دقائق في المرة الواحدة كما أصيب اثنان منهما «بالبند» التي أعجزتهم عن الغطس : والبند هو مرض يسبب العجز للغواصين الذين يندفعون إلى السطح بسرعة شديدة قادمين من أعماق عميقة . بل لقد مات أحد الغواصين .

ورغم كل هذه العراقيل فقد كانت النتائج ذات وقع طيب . واستطاع

الرجال أن يفصلوا ويسبحوا رأساً برونزية بحجم الرأس الطبيعية ، وتمثالين كبيرين من المرمر وبعض القطع الصغيرة الأخرى . واستطلعت بعثات أخرى في السنوات القليلة التالية أن تجد عشرات من التماثيل الأخرى في ذلك الموقع . وكانت مسألة نقل هذه الآثار إلى السطح مشكلة تتطلب الحل . وكان لابد من مهارة فائقة لوضع هذه التماثيل في علاقات قوية . ولوحدث أن انزلق تمثال من العلاقات لتتحطم وحطم أى شيء يقع عليه . ونقلت التماثيل إلى أثينا حيث قام بفحصها عالم آثار يوناني هو الأستاذ جورج كارو . ورغم أن المرء قد يعتقد أن شيئاً من الاصابات ربما لحق بالتماثيل أثناء صعود الغواصين بها ، إلا أن الأستاذ كارو كتب يقول : « إن هؤلاء الصيادين غير المتعلمين الذين يجهلون تماماً الأساليب الفنية لعلم الآثار قد كشفوا عن حرص ملحوظ ودقة عند معالجتهم لهذه الآثار . لقد دهشت لضآلة ما أصاب هذه التماثيل من أضرار حديثة . إن الصيادين دفعوا التماثيل في رقة ملحوظة . بل إن الأواني الفخارية والزجاجية جاءت دون أن يصبها شيء » .

وتعتبر رحلة أنتيكيثيرا الاستكشافية (١٩٠٠ - ١٩٠١) علامة طريق بارزة في تاريخ علم الآثار . كانت المرة الأولى التي تبذل فيها محاولة جادة لاستعادة الآثار من البحر .

لقد تم الوصول إلى آثار سابقة ولكنها تمت بصورة عشوائية وعلى أساس مبعثر . لقد كتب « بوسايناس » في القرن الثاني بعد المسيح أن صيادى « ميشيما » ألقوا بشباكهم في البحر ثم سحبوها فوجدوا داخلها رأساً منحوتة من خشب « شجر الزيتون » ولقرون طويلة لاحقة كان الصيادون يقومون بمثل هذه الاكتشافات غير المتوقعة وهم يسحبون شباكهم .

ولكن الأمور كانت تسير بطريقة عشوائية ليس لها علاقة بعلم الآثار

المنهجي . وفي سنة ١٨٧٧ توصلوا إلى اكتشاف رأس برونزي يمثل « جود جون ميدوسا » من شاطئ فرنسا ولكنه بيع كخردة . أما تمثال أبولو البرونزي الذي خرج في شباك الصيادين قرب جزيرة « ألبا » قبل ذلك بسنوات ، فقد كان حظه أفضل . إذا أنه الآن في متحف اللوفر . وتحتوى معظم متاحف أوروبا على واحد أو أكثر من التماثيل التي أمكن استعادتها من البحر .

ولكن أمكن إنقاذ مجموعة بكاملها من الآثار في وقت واحد عند انتيكيثيرا . وهذا جعل من الممكن التعمق بعض الشيء في التاريخ الماضي ، وهو ما لم يكن ممكناً عن طريق فحص القطع المتناثرة أو التماثيل المنفردة .

لابد أن هذه المجموعة هبطت إلى قاع البحر مع حطام سفينة . ولا بد أن هذه السفينة كانت في طريقها من أثينا إلى روما خلال القرن الأول قبل الميلاد . ويمكن أن نحدد بالدقة التاريخ لأسباب سنراها حالا . لقد كانت السفينة الغارقة تحمل تماثيل برونزية ومرمرية . ويبلغ عمر هذه التماثيل البرونزية أربعائة سنة في الوقت الذي سقطت فيه إلى القاع ، أى أنها قد صنعت أبان عهد سقراط وأفلاطون . وكانت هذه التماثيل رائعة التصميم . وكتب أحد المتخصصين في التماثيل عن التمثال البرونزي المسمى « أفيب » أو الرياضي ، كتب يقول « إن الفن الكلاسيكي لا يحتوى في جعبته الفنية على أجل من هذه الدرة » . ولكن التماثيل المرمرية أحدث عهداً ، فلم يتعد عمرها عشرات السنين عندما شحنت على السفينة المنكوبة . ويبدو أنها كانت نسخاً حديثة لتماثيل يونانية قديمة جداً . وقد تأثرت التماثيل المرمرية إلى درجة كبيرة من آثار بقاءها تحت الماء ألفين من السنين . وكتب أحد الخبراء الذين رأوا هذه التماثيل « تخيل أجساداً لسعتها النار ، وأقاضي غطتها الحيوانات الرخوة ، ورجالا أتى عليهم مرض فظيع . إن التماثيل المرمرية قد تآكلت تماما ولم يبق شيء من النماذج . وإنما يمكنك فقط أن تتخيل

ما كانت عليه هذه التماثيل من أشكال وحركات جميلة . وما يسترعى الأنظار أن القواعد المصنوعة من الرصاص لهذه التماثيل البرونزية قد تمزقت والتوت ، كأن التماثيل قد انتزعت منها بعنف . ومن المعتقد أن التماثيل تمثل غنائم الغزاة الرومانيين الذين نهبوا معابد اليونان . ولما كانوا يسرقون وهم على عجل فلم يأخذوا التماثيل القيمة ذات النوعية العظيمة فحسب بل أخذوا قطعاً مرمية أحدث وأقل أهمية . وربما كانت هذه الجماعة هي جزء من قوة الإغارة الرومانية تحت قيادة الدكتاتور سولا التي نهبت اليونان سنة ٨٦ ق . م .

إن أهم أثر من الآثار التي جمعتها بعثة « انتيكثيرا » الاستكشافية لم يكن تمثالاً على الإطلاق ، ولكنه كتلة من البرونز المتأكلة إلى درجة بعيدة ، وهي كتلة لم تسترعى أى انتباه في بادئ الأمر . لقد عاشت آلاف التماثيل بعد سقوط اليونان وروما ولكن هذه الكتلة كانت شيئاً فريداً : إنها لم تكن شيئاً أقل من آلة على درجة عالية من التعقيد للقيام بعمليات حسابية .

ومرت هذه الكتلة دون أن يلحظها أحد . وألقاها جانباً علماء الآثار الذين سبق أن فحصوا الآثار الموجودة في أنتيكثيرا ، لأن تلك الكتلة البرونزية قد أصابها التدمير بشدة واعتقدوا أن لا قيمة لها . ولكن في سنة ١٩٠٢ عندما كان عالم الآثار « فاليريوس ستايس » أحد رجال المتحف القومي في أثينا ، يصف مجموعة من القطع البرونزية من « انتيكثيرا » حدث أن لاحظ شيئاً غريباً فيما يختص بهذه الكتلة البرونزية . وخلق فيها في دهشة وقال مستغرباً : « يبدو أن هذه الكتلة هي نوع من الآلات » .

وكانت بالفعل نوعاً من الآلات : فدرس كثير من علماء الآثار هذه القطعة المدهشة بالتفصيل . وكان واضحاً أن هذا الشيء يحوى تروس تعشيق ولوحات

محفورة وميناء . لقد كانت هذه الكتلة وما زالت الشيء الميكانيكي الوحيد الذي بقي من أيام اليونان القديمة .

ورغم أننا عرفنا أن اليونانيون كانوا مبرزين في النظرية العلمية ، إلا أننا لم ندرك أنهم قد نموا الجانب العلمى من التكنولوجيا أيضاً . إننا هنا إزاء آلة بها أكثر من عشرين ترس تعشيق متداخلة بصورة بالغة التعقيد ، وهى تنطق بأن ما عرفه اليونانيون عن صناعة الآلات أكثر مما توقعنا .

إن طريقة عمل هذه اللوحات المحفورة ساعدت علماء الآثار أيضاً على أن يحددوا تاريخاً محدداً لفرق السفينة . إن الحروف المكتوبة بها اللوحات نيم أسلوها على أنها لا تزيد عن مائة سنة قبل الميلاد ، وأنها لم تكن تستخدم منذ وقت المسيح تقريباً . إن الكلمات المستخدمة فى الحفر تؤيد هذه الملاحظة إذ أنها تتضمن بعض البيانات الخاصة بعلم الفلك شبيهة بتلك البيانات التى جمعها جيرمينوس البيونانى سنة ٧٧ ق . م . إن هذا الجهاز قدم طريقة واضحة لا نزاع حولها فى تحديد تاريخ غرق السفينة .

وقد استغرق اكتشاف الغرض من هذا الجهاز بالدقة سنيين طويلة . فقد كان يجب أولاً إزالة الصدأ والتأكسد . أما النقوش المحفورة والميناء فقد قطعت كل شك وأوضحت أن هذه الكتلة البرونزية شئ شبيه بآلة فلكية . واعتقد علماء الآثار لفترة طويلة أنها أداة خاصة بالملاحه ربما تكون أسطراباً (أى أداة تستخدم لتحديد وضع السفينة عن طريق النجوم) .

وبعد أكثر من خمسين سنة بعد استخراج الفواصين لهذه الآلة العجيبة تم انجاز عملية تنظيفها . ونخص هذه الآلة سنة ١٩٥٥ عالم لندنى المولد اسمه « ديريك تادى سولا برايس » وإخصائى فى الكتابة اليونانية القديمة وإسمه « جورج

ستاميرس » . وكان أول نجاح لهما أن تمكنا من تركيب القطع العديدة ببعضها بشكل سليم . ورغم أنه كان من المعتقد أن هذه الآلة قد شوّهت وهشمت ، إلا أن « بريس » و « ستاميرس » وجدا أنها ما زالت محفوظة في حالة جيدة . لقد كانت تتكون في الأصل من صندوق خشبي له أبواب بمفصلات . داخله الآلة ذات تروس التعشيق لا بد وأنها كانت تبدو كساعة قديمة ، ولكن الأجزاء الخشبية اختفت بفعل عشرين قرناً من غمرها في الماء .

لقد فحص « بريس » و « ستاميرس » النظام المعقد لتروس التعشيق وللميناء ، واندھشوا لدرجة التعقيد في هذه الآلة . فقد كان هناك ميناء يحمل رموز بروج السماء الإثني عشر وآخر يحمل أسماء الشهور . وعندما تدور تروس التعشيق كانت الآلة تقدم معلومات عن شروق وغروب الكواكب الهامة والجموعات الفلكية طيلة العام . أما الموانئ الأخرى فكانت تقدم معلومات فلكية أكثر تعقيداً .

وأعاد العالمان تركيب هذه الآلة من أجزائها المتبقية ، وانتهيا إلى أنها كانت تستخدم لاحتساب مواقع الأجرام السماوية على مدار السنة . لقد عرفنا أن اليونانيين كانوا علماء فلك عظام . ولكننا لم ندرك قدرتهم على أن يترجموا مفهوماتهم إلى عدد وآلات من هذا النوع . وكما كتب الدكتور بريس :

« إن آلات (أنتيكيثيرا) ليست مجرد فقاعة في الهواء . ولكنها جزء من تيار هام في المدنية الهيلينية . والتاريخ حاول أن يحيط بالغموض هذا التيار بالنسبة لنا ، ولم يلق الضوء عليه سوى ما جاءت به الصدفة من الاحتفاظ تحت الماء ببقايا كان من الممكن أن تتحول إلى تراب . إنه شيء مخيف نوعاً ما أن نعرف أن اليونانيين القدامى اقتربوا من عصرنا نحن ، قبل أن تسقط مدينتهم العظيمة ، ليس في أفكارهم فحسب بل في علوم التكنولوجيا » .

أما الاكتشاف الهام الثانى فى البحر الأبيض فقد جاء بعد ست سنوات من مكتشفات « انتيكيثيرا » فى يونيو سنة ١٩٠٧ كان الفطاسون اليونانيون يعملون خارج « المهديّة » وهى ميناء صغيرة على ساحل تونس والمهديّة مدينة غير مهمة ولكنها قديمة تعود إلى أيام الفينيقيين . ورغم أنّها اليوم ليست سوى قرية صيد ، إلا أنّها كانت ميناء استخدمته أساطيل التجار البحرية المنقرضة فى قرطاجنة واليونان وروما مئات السنين قبل المسيح ، لقد توقف قيصر فى زيارته هناك بعد إقامته فى مصر مع كليوباترا . وكانت هذه القرية وكرّاً للقراصنة فى القرون الوسطى .

والبحر عند « المهديّة » ضحل لا يزيد عمقه عن عشرين قدماً ، حتى إذا تعدينا الساحل بثلاثة أو أربعة أميال . وفى الأعماق تغطى طبقة دقيقة من الطمي جرفاً من الصخور .

وذات يوم فى يونيو سنة ١٩٠٧ كان صائد اسفنج يونانى يجوس على هذا الجرف من الصخور على بعد ثلاثة أميال من الشاطئ ، وعلى عمق مائة وثلاثين قدماً عندما وجد ما يشبه « مجموعة من البنادق الكبيرة » فى أعماق البحر . وبعد نظرة فاحصة أدرك أنه لا يرى مدافع بل عواميد مرمرية مغطاة بالطين . وتناثرت بالقرب منها تماثيل كبيرة وصغيرة من المرمر والبرونز .

لقد عاد الغواص إلى السطح بسرعة . ثم دعا رفاقه وأشار مضطرباً إلى الماء قائلاً : « لقد وجدت كنزاً هناك تحت الماء . إنه كنز قديم ! » . وعلى الفور كف الغواصون عن البحث عن الاسفنج ليعثوا عما هو أكثر ربحاً ، عن الآثار

القديمة وأخذوا ينتشلون أى شىء صغير يمكن حمله بأيديهم . وعند عودتهم
يغنائهم إلى الشاطئ ، باعوها إلى تجار العاديات .

ولقد كانت هذه - لفترة طويلة - هى مصيبة علم الآثار . فإن العمال
أو الصيادين يكتشفون آثاراً قديمة ويأخذونها معهم ليبيعوها عادة مقابل لا شىء .
إن المكتشف يربح كثيراً وفى نفس الوقت يخسر علم الآثار . ذلك لأنه
ما أن ينتقل الشىء من الظروف المحيطة به حتى تضع معلومات أخرى قيمة
للغاية . إن الشىء فى هذه الحالة يظل هاماً كقطعة فنية ولكنه يفقد قيمته
التاريخية .

وبعد أن باع غواصو الإسفنج ما عثروا عليه من آثار بأسابيع قليلة كان عالم
آثار فرنسى يدعى « ألفريد ميرلين » يتجول فى أحد أسواق تونس ، ودهش
إذ وجد أوانى وشمعدانات ونقوشاً على الحجر يونانية أصيلة معروضة للبيع بأثمان
بخسة للغاية . واشترى « ميرلين » كل هذه المجموعة . ثم سأل الباعة « من أين
أتت هذه الأشياء ؟ » ، فردوا عليه بهز أكتافهم ، فى هذه البقعة من العالم
لا يقدم إنسان برغبته معلومات لأوروبى . ولكن بعض النقود غيرت
الوضع وفكت عقدة لسان التجار . وقيل لميرلين « لقد اشتريناها من
الغواصين اليونانيين . إن الغواصين يعثرون على مثل هذه الأشياء فى البحر ثم
يحضرونها لنا » .

وشرع ميرلين على الفور فى العمل على حماية ما تبقى من هذه الآثار
بالاهتمام بأن يتم اكتشاف هذه الآثار بطريقة علمية . ولقد أبلغ الغواصين

اليونانيين بصورة مؤدبة أن هذه الآثار ملاك الحكومة التونسية ، وأنه لن يسمح بعد ذلك بأعمال نهب يقوم بها الأفراد . وبعد ذلك استطاع ميرلين أن يجمع أموالاً من مجموعة من المليونيرات الأمريكان والباريسيين وأن يحصل على مساهمة من الحكومة التونسية وكذلك من الحكومة الفرنسية ، وذلك ليفضى التكاليف الهائلة لإرسال بعثة لهذا الغرض ، إن علم آثار مائحت الماء مشروع أكثر تكلفة بدرجة كبيرة من أعمال التنقيب في الأرض . ثم بدأ ميرلين العمل . وما زالت الاستكشافات التي تمت في « المهديّة » تعتبر أحد الإنجازات الرئيسية في علم الآثار في هذا القرن . لقد تم تحضير ست بعثات استكشافية منفصلة تحت إشراف ميدلين في خلال الفترة من ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١١ ، ومساهمة البحرية الفرنسية بتقديم رفاص لقطر المراكب ، وقدم مجلس إدارة الموانئ قارب غطس ، ورغم هذه المساعدة كانت عملية « المهديّة » تمثل عبئاً من الناحية المالية . إن علماء الآثار الذين يعملون على الأرض يستطيعون أن يعملوا كل يوم . أما علماء الآثار تحت المائية فتعوقهم العواصف والرياح ، وأحياناً يحدون أنهم لن يستطيعوا أن يعملوا أكثر من ساعة أو ساعتين في اليوم ، أو يومين أو ثلاثة في الأسبوع كل ذلك في الوقت الذي يظل فيه الغواصون وتظل السفن متعطلة . فبينما تتم معظم عماليات الحفر على الأرض بأيدي عمال محليين يتناولون أجوراً منخفضة تتم عمليات الاستكشاف تحت الماء على أيدي غطاسين مهرة يتناولون أجوراً تعوضهم عما يتعرضون له من مخاطر .

وتعرض ميرلين لكل المشاكل المألوفة الخاصة بعلم الآثار تحت المائية . لقد كان الغواصون العاملون معه يطالبون بأجور مرتفعة ويتقاضونها . وكانوا جميعهم يونانيين ما عدا تركي واحد . وكثيراً ما كانت تهب عواصف مفاجئة تكتسح العوامات المثبتة لتحديد الأماكن ، مما يضطر « ميرلين » ليحدد من

جديد مواقعه المرة تلو الأخرى . وكانت الرياح العاتية تعوق عمله . ولكن كان هناك ما يجعل كل هذه المصاعب جديرة بالاحتمال . ففي أعماق البحر ترقد ستة صفوف من العواميد يبلغ عددها ستين عموداً تنطى مساحة حوالى مائة قدم طولاً . وكتب « ميرلين » يقول « ترقد فى كل هذه المنطقة كتل من قطع المرمر متراكمة فى مجموعات دون نظام : رؤوس عواميد وقواعدها ، كتل مربعة بدقة وأجزاء معيارية من أنماط متباينة . وكان مختلطاً مع هذه الأشياء ، وبصفة خاصة عند الطرف الشمالى للموقع كثير من الأواني الخزفية المهشمة . وهى كل ما تبقى من الأواني التى كانت على ظهر السفينة ، وجرات لم يبق منها سليماً سوى عدد قليل ، وأوان من أنواع مختلفة كانت تستخدم لحفظ الزيت والخمر والماء والمواد الغذائية ومواد يحتاجها البحارة أثناء رحلاتهم وتحت طبقة عميقة من الطمي وجدوا عواميد أخرى وكتلا مرمرية وجرات ومراسى سفن كانت ملتصقة فى غير نظام . وقبل أن يصبح فى الإمكان تحقيق أية نتائج ، كان من الضروري إزالة العقبات المتعددة ، وأن تتم عمليات الحفر وإزالة الوحل المحيط بها » .

وعاقت عواميد المرمر (ذات الإثني عشر قدماً طولاً ، والتى بلغ قطرها اثنتان قدمين) أعمال إزالة الأشياء الأصغر حجماً . وكلما حاول غواص أن يسقط حبلاً تحت عامود ليرفعه بعيداً عن الطريق يثير سحباً من الوحل تغلفه بظلام دامس . كما أن التيار المائى فى الأعماق كان قوياً إلى درجة أن الغواصين المجهدين كانوا يسحبون إلى سطح الماء بعد فترة قصيرة من العمل . وكتب ميرلين :

« عندما حاول الرجال الحفر تحت واحد من هذه العمدة التى يمكن فصلها عن غيرها ، أو أن يشقوا طريقهم بينها سرعان ما كانت تواجههم طبقة من الخشب سمكها حوالى ثمانى بوصات ، وفى حالة من التحلل بدرجة أو بأخرى . إن اختراق هذا الغلاف الواقى كشف عن أشياء أكثر دقة : تماثيل صغيرة

من البرونز تم عن مهارة فى الصنع ، وأجزاء من قطع أثاث مزينة بصور جميلة .
 « ويبدو واضحاً أن السفينة عندما غرقت غاصت على الفور إلى الأعماق دون
 أن تهشم . وقد لحقها أضرار معينة ولكنها لم تنقلب على ظهرها . ولهذا فالحشب
 المتعفن كان ذات يوم يمثل هيكل السفينة . وكانت تقوم عليه العواميد وبعض
 الأشياء الأقل قابلية للكسر . وكانت العواميد مرصوفة على مسافات بعيدة
 بدرجة كافية لتجعل من الممكن التحرك بينها . وحتى لا تعوق توجيه السفينة .
 أما البالات التي كانت تحوى الأجزاء الأخرى من الحمولة الأصغر والأعلى فقد
 كانت مرصوفة بين الأسطح الخشبية أما جوف السفينة فقد كان مليئاً بالأعمال
 الفنية المعدنية أو المرمرية » .

واستطاع ميرلين أن يكون فكرة أيضاً عن مصير السفينة . وكان فى اعتقاده
 أن عاصفة دفعت بها عبر البحر الأبيض إلى الساحل الأفريقى . وأحاط بالسفينة
 ضباب كثيف انقشع فجأة ليكشف أن أفريقيا ليست بعيدة . وخاف البحارة أن
 تنغرس السفينة فى الأرض فحاولوا أن يغيروا اتجاه السفينة ويستأنفوا رحلتهم
 فى البحر . ولكن يبدو أنهم ما أن تحركوا بالسفينة حتى مالت على جنبها وبدأ
 يملأها الماء . وقد أُلقيت مراسى السفينة لحفظ توازنها أثناء نزح المياه منها . ولكن
 جوف السفينة استمر يمتلئ بالماء وسرعان ما اندفعت السفينة الغارقة تحت سطح
 الماء واستقرت بحمولتها الثمينة فى أعماق البحر .

ما الطمى الذى جعل من استخراج هذه التماثيل عملية شاقة فقد حافظ أيضاً
 عليها . وبينما ثقت الأسماك الصدفية التماثيل المرمرية فى « انتيكيثيرا » احتفظت
 تماثيل « المهدية » بنظافتها وسلامتها . لقد كشف الطمى عن تماثيل بعد آخر :
 عشرات فى مجموعها وكثير منها ذات جمال ملحوظ . وتماثل هذه التماثيل اليوم ست
 حجرات فى متحف « باردو » فى تونس . وكتب سالومون رينساخ المهتم بالآثار

الهيلينية : « لم يحدث أن توصلنا إلى شيء يمكن مقارنته بهذه الآثار منذ أن اكتشفنا بومبي وهيركولانيوم ». إن كنوز حطام « المهديّة » روائع من الفن الإغريقي ، وأن عرضها مرة ثانية من شأنه أن يثرى العالم .

وعلى أية حال . فهذه التماثيل الجميلة كانت مجرد جزء من الكنوز الثمينة التي كانت تحويها السفينة الغارقة . وتعتبر هذه التماثيل أقل هذه الأجزاء أهمية في نظر كثير من علماء الآثار . وكما كانت الآلة الحسابة الفلكية هي أروع ما كان على سفينة أنتيكيتيرا ، فإن أروع آثار « المهديّة » هي أقلامها لفتاً للأنظار .

إنه لشيء ممنوع أن تتأمل التماثيل البرونزية والمرمرية . ولكنها لا تعرفنا إلا بالقليل عن أسلوب الحياة اليومية في العالم القديم . أما أن نجد أوعية للطبخ ومصاييح ، فهذا يقدم لنا تلك التفاصيل الصغيرة عن الحياة اليومية مما يجعل الماضي أكثر حيوية - وهذا ما حققته الآثار التي وجدت في « المهديّة » .

ولهذا السبب فإن اكتشاف « بومبي » على سبيل المثال كنز أثري هام . فعندما ثار بركان « فيرسوفيس » دفنت تقريباً بومبي وهيركولانيوم ومدن أخرى محيطة بالبركان . وغطتها الحمم البركانية والرماد . وهكذا بقيت هذه المدن كما كانت يوم مماتها . واكتسب علماء الآثار نظرة فاحصة وإدراكاً لما كان يجري في الحياة اليومية العادية في العالم القديم بفضل ما قاموا به من حفريات .

ولهذا فعندما تفرق سفينة بكل حمولتها دون أن يصيبها شيء فهذا أيضاً أمر على نفس الدرجة من الأهمية وإن كان على نطاق أصغر . وهكذا ساعدتنا التفاصيل الصغيرة التي أمكن جمعها من حطام « المهديّة » على أن نتعلم شيئاً أكثر عن الماضي المنقرض . إن المصباح ذى الفتيل المتفحم الذي ما زال في مكانه وأوعية الطبخ والمراسي ، وحتى الحصى - إن كل هذه الأشياء تضيء لنا معالم الطريق في العالم القديم .

لقد قدم علماء الآثار البيانات الهائلة عن السفينة ذاتها ، لا عن سبب غرقها . فحسب ، بل عن المكان الذى جاءت منه ، والمكان الذى كانت متجهة إليه فى الغالب وعن الزمن الذى كانت تبخر فيه . وعند مقارنة طراز الأوانى الخزفية التى وجدت على ظهر السفينة بالأوانى الخزفية المعروفة التاريخ من قبل ، استطاع الخبراء أن يقرروا أن سفينة « المهديّة » قد غرقت خلال القرن الأول قبل الميلاد ، أى فى نفس الوقت تقريباً الذى غرقت فيه سفينة « انتيكثيرا » ، وربما أيضاً من جراء نفس العاصفة . وتبين الألواح اليونانية المنقوشة التى وجدت ضمن هذه الحمولة أن السفينة كانت تبخر بكل تأكيد قادمة من أثينا . ومن الممكن أن تكون حمولتها من التماثيل البرونزية والمرمرية غنائم نهبها من معابد أثينا الجنود الرومانيون الذين غزوا اليونان سنة ٨٦ ق . م ، تحت قيادة سولا مثلها مثل التماثيل التى كانت تحملها سفينة « انتيكثيرا » .

لقد كانت سفينة « المهديّة » محملة أكثر مما تطيق . وكانت تحوى خليطاً من الأعمال الفنية والكتل المرمرية والعواميد التى لم تتم . وكان اللصوص نهبوا كل شيء امتدت إليه أيديهم على أمل أن يميزوا المفيد من غير المفيد فى روما . ولكن السفينة لم تصل روما أبداً ، إذ أن الرياح العاصفة دفعتها بعيداً عن طريقها نحو الساحل الأفريقى .

هكذا تدعمت أسس الافتراض . فإذا كانت السفينة محملة برجال سولا ، فلا بد أن يكون اتجاهها روما وليس إفريقيا ، إلا أن أفريقيا فى ذلك الوقت كانت تحت حكم ماريوس عدو سولا . وربما كان هذا هو السبب الذى دفع البحارة ليدوروا بالسفينة بسرعة عندما أدركوا أنهم قريبون من الساحل الإفريقى وفى أثناء دوراتها غرقت السفينة المثقلة بحمولتها . وقد انتهت أعمال ميرلين فى ماهديا سنة ١٩١٣ ، ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فتوقفت بشكل عام أعمال

التنقيب . وبعد الحرب لم يعد موقع «المهدية» مرغوباً فيه لإجراء استكشافات أخرى على نطاق واسع . ورغم ذلك انجذبت جماعات أصغر وبشكل خاص لتتنب في حطام السفينة . وحتى البونانيون عادوا مرة أخرى ليغطسوا بحثاً عن الإسفنج . إن البعثات الاستكشافية العديدة التي تمت تحت إشراف ميرلين نقلت كل الآثار المرئية التي يمكن نقلها . ولكن هذا لم يمنع الهواة من علماء الآثار من الذهاب إلى ذلك الموقع .

وفي سنة ١٩٤٨ ذهبت بعثة جادة أخرى إلى نفس الموقع . ولكن لقد تغيرت إلى درجة بالغة الأساليب التكتيكية لأعمال الكشف تحت سطح الماء في خلال الأربعين سنة التي انقضت منذ بعثة ميرلين الاستكشافية الأولى . فقد اخترعت الرثة المائية ، وأصبح من الممكن الآن للغواصين الذين يسبحون سباحة حرة أن يفحصوا حطام السفينة . وهكذا أصبحت « المهدية » ميداناً للتمرين الجليل الجديد من علماء آثار ما تحت الماء . ثم تجمعت مجموعة من الغواصين بالجلد الفرنسيين وهم جاك إيف كوستو وفيليب تاييه وفردريك دوماس ليكونوا بعد الحرب العالمية الثانية « جماعة أبحاث ما تحت البحر » . لقد قاموا بأعمال إنقاذ في عدد من الموانئ على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي مستخدمين أجهزة « سكيوبا » للبحث عن حطام السفن التي غرقت أثناء الحرب . ثم أصبحوا بالتدريج مهتمين بعلم الآثار وقد غرهم الحماس عندما يعرفوا العدد الهائل من السفن الإغريقية والرومانية الغارقة في أعماق البحر الأبيض المتوسط .

وفي سنة ١٩٤٨ كان كوستو وأصدقاؤه يغطسون في شمال أفريقيا ، ويقومون بأعمال الكشف في الماء عند مدينة قرطاجنة القديمة . ورغم أن هذه البعثة لم تصل إلى شيء فقد زارت متحف تونس وعلمت بأعمال ميرلين التي تمت قبل ذلك بعشرات السنين .

وكانوا يقولون لبعضهم البعض « ربما ما زال هناك كنز متبق في حطام السفينة — إن الأمر يستحق القيام بمحاولة » .

وقرأوا تقارير ميرلين في الفترة من ١٩٠٨ — ١٩١٣ واتصلوا بميرلين نفسه ، كان قد كبر في السن ولكنه استمر في اهتماماته بعلم الآثار . وعرفوه أنهم سيعودون إلى موقع أبحاثه في « المهدة » وتمنى الرجل العجوز التوفيق لغطاسي الجلد .

ولم يكن من السهل العثور على الموقع . وكتب الملازم « تافيرا » وهو ضابط بحرى فرنسى كان قد رأس بعثة غطاسي ميرلين تقريراً حدد فيه مكان الموقع ، وذكر تافيرا ثلاثة علامات مميزة : قلعة وشجيرة صغيرة وطاحونة هواء . ووجد كوستو ورفاقه القلعة المحطمة بسهولة . ولكن على حد قول كوستو « لقد نمت غابة حقيقية حول الشجيرة الوحيدة في خلال الخمسة والثلاثين سنة التي انقضت منذ أن رسم تافيرا هذه الشجيرة . وكان المرشد الأخير في تحديد المكان هو التغير في لون خميلة أشجار الزيتون البعيدة الموجودة في مقدمة طاحونة الهواء . لقد ظللنا ننظر من خلال المنظار حتى تعبت عيوننا ولكننا لم نر طاحونة الهواء . وأبدينا ملاحظات نحقر فيها من عمل تافيرا . وكان قد مات في ذلك الوقت وهو في رتبة أميرال بحر . وكنا نتمنى أن يكون تافيرا قد درس فن صناعة خرائط الكنوز على يد روبرت لويس ستفنسون .

وتبعت ذلك محاولة يائسة للبحث عن الطاحونة . وقرر رجال مجموعة أبحاث ماتحت البحر أن ينسوا الملازم تافيرا وتقريره ، وأن يبحثوا عن حطام السفينة وكأنهم لا يملكون أى مرشد يساعدهم في البحث .

وعاد الغواصون الفرنسيون إلى سفينتهم « إيلي مونيه » ليضعوا خطتهم ، وكل ما كان لديهم من معلومات هو أن حطام السفينة في مكان قريب يرقد

على عمق ١٢٧ قدماً تحت سطح البحر . وتنقلوا من مكان إلى آخر في البحر .
حتى وصلوا إلى العمق المطلوب في الماء .

ثم أنزلوا شبكة من أسلاك الصلب تغطي مسافة مساحتها ١٠٠.٠٠٠ قدم مربع وبذلك أوجدوا شيئاً شبيهاً بلعب كرة القدم في أعماق البحر . وسبح الغواصون جيئةً وذهاباً على طول الحدود . وقاموا بعملية مسح للأرض . وعلى حد تعبير كوستو « لقد كان في استطاعتنا أن نجد حتى ساعة سقطت في هذا المكان ، إلا أننا لم نعثر في شبكتنا على ناقلة البضائع الرومانية » .

واستمرت عمليات البحث الدقيق في أعماق البحر الأبيض المتوسط خمسة أيام . وتوفيراً للجهد كان يتم إنزال الغطاسين من القوارب المراقبة . ومريوم بعد يوم دون أن يعثروا على حطام السفينة . وفي اليوم السادس كانوا يقبون على بعد ٢٢٠ ياردة من المكان الذي حدده تافيرا عندما صعد « تالييه » فجأة إلى السطح ثم خلع مبسم رثته وهتف قائلاً : « عامود ١١ لقد عثرت على عامود ١١ » .

لقد كان ذلك حطام السفينة الرومانية أو ما تبقى منها . وكتب تالييه في كتابه « إلى الأعماق المستورة » يقول : لقد كان المنظر مثيراً : فكل ما تبقى من سفينة « المهديّة » بعد ألفي سنة مجموعة من الكتل على مسافات متباعدة ، وعدد من العواميد مرصوفة في أربع صفوف رئيسية . ورغم الاضطراب الذي سببه الغواصون اليونانيون فقد كان الأثر العام يشير إلى درجة كبيرة إلى سفينة عرضها ٣٦ قدماً وطولها ١٢٠ قدماً رقدت على المدار الجنوبي الشمالي . وكان من الممكن رؤية أضلاع هيكل السفينة وسطحها وقاعدتها تحت العواميد أو في المسافات القائمة بينها .

وفي اليوم التالي هبط كوستو وديماس برئاتهم المائية ، بعد أن قضوا ليلة احتفلوا فيها بالاكتشاف ، وجاس الغطاسان بالجلد خلال الطلي الموجود في الأعماق ، وفحصوا العواميد الثمانية والتحسين وبقايا السفينة ، وقد كانت ضعف حجم سفينتهم « إيلي مونييه » .

لقد اكتشف الفرنسيون حطام السفينة وهم يعملون في فرق تضم كل فرقة منها رجلين . ولما كانوا قد قضوا وقتاً كبيراً في مجرد العثور على هذا الحطام فلم يكن لديهم سوى وقت محدود جداً ليقوموا بأعمال الكشف في الأعماق . لقد استمر كل فريق في الأعماق خمسة عشر دقيقة في المرة الواحدة . وكانت إشارة العودة إلى السطح هي إطلاق بعض الأعيرة النارية في الماء .

ولم تعد التيارات المائية التي كانت تضايق غواصي « ميرلين » أصحاب الخوذ وبدل الغطس تمثل أى مشكلة على الإطلاق للغواصين الجدد الذين يسبحون سباحة حرة بفضل برئاتهم المائية . وانطلقوا في رشاقة يحفرون بأيديهم تحت العواميد المرمية دون أن يعوق حركاتهم شيء ، ويزيلون العفن ثم يمررون حاملاتهم ليحملوا فيها حولة الأعماق من العواميد التي ما أن كانت تصل إلى السطح حتى تزوى وتمون في لحظات كائنات البحر ذات الألوان الجميلة التي كانت ملتصقة بالمرمر وتخرج العواميد نظيفة حيث يعرضون بياضها للشمس الساخنة . واستخرجوا أربع عواميد كاملة أكبرها وزن أكثر من ثلاثة أطنان . بالإضافة إلى بقايا عواميد أخرى ، ومخطافين نسيهما رجال ميرلين وبعض الأواني الخزفية . وحاولوا أيضاً أن يخرجوا أحد مسامير السفينة وقطعاً من أضلع السفينة المصنوعة من خشب الأرز طولها ياردة كانت ما زالت تحتفظ بطلائها الأصلي .

وفي الفترة الزمنية القصيرة التي كانت متاحة لهم لم يستطع كوستو وزملاؤه .

أن يقوموا بدراسة دقيقة للموقع . ولكنهم سجلوا نصراً هاماً في نفس الوقت . ألا وهو أول استخدام رئيسي لأجهزة الرئات المائية في عمليات الكشف الأثري . ومنذ ذلك الوقت قام علماء آثار آخرون بالتنقيب في حطام سفينة ماهديا . ومن الواضح أن حطام السفينة لم تنضب أسرارها . وما زال الطمي عقبة تعوق المنقبين حتى أن الحرية والمرونة الكبيرة التي توفرها أجهزة « سكيوبا » لم تحل مشكلة الطمي إذ أن سحابات من الطمي تعوق عالم الآثار الذي يعمل تحت الماء عن الرؤية وذلك كما حاول أن يغوص ليفحص الحطام .

ولكن الغواصين يهبطون لفحص هذا الحطام في كل موسم . إن العمل الذي بدأه ألفريد ميرلين سنة ١٩٠٨ لم ينجز بعد . ويعتقد «الكابتن» كوستو أنه يوجد حوالة لم تمس بعد وكان مكانها في وسط السفينة . وإني متأكد أنه في ذلك الوقت كما في الوقت الحاضر ، كان البحارة يعيشون في أعلى مقدمة السفينة وهي الأمكنة الأقل رغبة في سكنها . وأن هناك ممتلكات شخصية وآلات مدفونة هناك . منها نستطيع أن نعرف أي نوع من الرجال كان بحارة هذه السفينة « الرومانية » .

إن البحر يحتفظ بكنوز أخرى . فبجانب اثنيكثيرا وماهديا يوجد كاب. ارتيمشن على جزيرة يوبويا في اليونان .

وقد ظهر أول اكتشاف في منطقة « كاب ارتيمشن » Cape Artemision سنة ١٩٢٥ ، حين ألقي أحد الصيادين ويدعى « إيفانجيليوس ليونيدس » شبكته التي كان يصطاد بها في الخليج . ولكنه صعد عندما وجد فيها ما يشبه جثة إنسان — كانت سوداء ومنشفة وبدت كما لو كانت جثة سباح غارق . عندئذ رسم ليونيدس المذعور علامة الصليب وتم بصلاة على روح الرجل الميت .

ثم نظر بتفحص ونغز الجثة بإصبع حذرة ، وعاد لهدوئه عندما اكتشف .
أنها ليست جثة بالمرّة ولكن تمثالاً برونزياً . فأعلن الخنصين بذلك فكافأوه .
بكرم وأخذوا التمثال إلى المنح في أثينا وكان التمثال مغطى بطبقة كشيقة من .
الأحياء البحرية وقد استغرق تنظيفه ثمانية شهور - وهو معروض الآن (باستثناء .
الحلزونات التي كانت معلقة به) في أثينا تحت إسم « إيفيبي أثينا » .

وعندما سمع باقي الصيادين في منطقة يوبويا عن اكتشاف ليونيدس المحفوظ ،
بدأوا يتفحصون بدقة محتويات شباكهم . ولكنهم قد رأوا أن ليونيدس قد
استلم ٣٠٠٠٠ دراخما - وهو مبالغ محترم وقتئذ - أحسوا أنه يمكنهم إخفاء
مكتشفاتهم عن المسؤولين طمعاً في مزيد من الربح لو باعوها لتجار العاديات .

وبدأت منذ سنة ١٩٢٦ تظهر أجزاء من التماثيل البرونزية في مياه كلب
أرتميشن ، وطاف الصيادون لبيعوا هذه الأجزاء سرّاً إلى تجار العاديات . ولكن
سرعان ماتتبه علماء الآثار اليونانيون لما يجري وتدخل رجال البوايس . وتوقفت
تجارة القطع الأثرية البرونزية المختلفة .

وتكونت بعثة رسمية تحت رئاسة الأستاذ « جورج كارو » من معهد الآثار
الألماني في أثينا . وقد خصص « الكسندر بنا كس » وهو أحد أنصار الفن في
اليونان - مبلغاً من المال لهذه البعثة . وكانت البحرية اليونانية وغواصو الإسفنج
من يوبويا هم القائمون فعلاً بعملية الغطس .

وقد لفتت قطعة معينة نظر الأستاذ كارو بشكل خاص - وكانت كتلة
الذراع الأيسر لما يعتقد أنه لتمثال برونزي هام . وفرح كارو وقال : « يجب أن
نجد باقي هذا التمثال » .

ووصل الغواصون إلى عمق ٦٠٠ قدم من الشاطئ وفي تيار قوى . ولم يمض وقت طويل حتى وجدوا التمثال الذى جاءت منه نفس الذراع ، ورفعوه إلى السطح . كان تمثال زيوس كبير آلهة الإغريق : طوله أكثر من ست أقدام وقد صمم على شكل بطولى وقد ارتفعت ذراع الآلهة . ويعتبر الكثيرون هذا التمثال الفخم من أدق وأجمل ما وجد من التماثيل البرونزية الإغريقية . وليست لدينا تماثيل أقدم من هذا كما تلك التى تضاهيه فى روعته الفنية قليلة . وهو موجود حالياً فى متحف أثينا ، وقد وضعت الحكومة اليونانية نسخة منه منذ بضع سنوات فى الردهة الأساسية لمبنى هيئة الأمم المتحدة فى مدينة نيويورك .

ولم يكن زيوس العظيم هو التمثال الوحيد الذى اكتشفته بعثة الدكتور كارو . فهناك آخر يصور حصاناً وراكبه الصغير ، وقسمات وجه الجوكى غير عادية . فبينما كل النحت الإغريقى يمثل النبل والغرسة ، نجد هذه القطعة الفريدة تصور صبيهاً ضاحكاً مملوءاً بالحيوية والمرح ، لا بد أنه كانت له أيام مشهورة مع هذا الحصان .

وقد واجهت دكتور كارو بعض مشاكل الغواصين الذين كانوا يعملون معه فى أعماق أكثر مما اعتادوا أن يعملوا فيها . فقد اشترى لهم أحدث ما ظهر من أردية الغطس ، ولكنهم كانوا يضحكون على إجراءات الأمان التى كان يفرضها عليهم . فقد كان من الخطورة مثلاً أن يخرج بسرعة أحد الغواصين من عمق بعيد إلى السطح ، لأن المفاصل والعضلات والأنسجة الدهنية فى الجسم تمتص النيتروجين تحت ضغط مرتفع ، فإذا عاد الغواص بشكل مفاجئ إلى السطح تحت ضغط منخفض تسرب النيتروجين بسرعة إلى الأوعية الدموية وتجمع على شكل فقاعات غازية ، وينتج عن ذلك آلام مرعبة غالباً ما يعقبها الموت .

وقد تعلم الغواصون تجنب هذا « البند » ، وهو الاسم الذى أطلق على مرض

التخلخل - فيرتفعون في الماء بخطوات بطيئة متوقفين بين الفينة والفينة ليتسرب النيتروجين الزائد دون أن يكون فقاعات . وقد وضعت جداول للتخلخل مفصلة تظهر للغواص السرعة التي يرتفع بها إلى سطح الماء بأمان . مثال ذلك أن الإنسان الذي يقضى ٢٥ دقيقة في القاع على عمق مائة قدم يلزمه أربع دقائق للعودة للسطح بمعدل السرعة الآمنة وهو ٢٥ قدم في الدقيقة . ولكن الإنسان الذي يقضى ساعة في نفس العمق يلزمه أن يقضى « وقته » لتخلخل » لمدة ١٦١٨ دقيقة قبل أن يصل إلى السطح .

ولكم ضحك غواصو كارو الذين عملوا معه لسنين طويلة في أبعاد ليست عميقة - حيث لا يكون امتصاص النيتروجين أى مشكلة - عند حديثه لهم عن وقفات التخلخل . وفي محاولة للسخرية من هذه النظرية عمد أحدهم إلى الصعود إلى السطح من عمق ١٤٠ قدم على مرة واحدة سريعة . وصعد على ظهر السفينة وبدأ يضحك أثناء محاولة زملائه نزع القناع ولسان حاله يقول « أترون ؟ لا يجب أن تعيروا اهتماماً لمثل هذه الأشياء » ، وبعد ذلك بلحظة واحدة وقع ميتاً عندما تجمعت فقاعات النيتروجين وبدأت تسرى في عروقه .

وموت الغواص شمل الوجوه جميع المشتركين ، وبدأوا يخافون ويترددون في النزول للماء . ولما تناقصت المبالغ المحددة للصرف على البعثة وهى في حاجة إلى معدات لرفع باقى الكنوز قرر كارو وقف العملية .

ومنذ ذلك الوقت . وجد الصيادون تماثيل وأشياء أخرى من المؤكد أنها جاءت من نفس حطام سفينة كاب ارتيميشن . فمثلاً أحضر صياد يدعى سوليتريس في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ثلاث أواني قديمة ، وشيئاً آخر ثقيل الوزن كان في شبكته ثم سقط منه ثانياً في البحر .

ومما لا شك فيه أنه لا زال يوجد الكثير مما يمكن اكتشافه في خليج كاب ارتيميشن . وفي استطاعة علماء الآثار المعاصرين المجهزين بالسكوبا أن يجدوا سهولة في البحث أكثر من غواصى كارو المجهزين بالأردية فقط . فالجزء الرئيسى من المركب وبه باقى الخلفات الأثرية لم يمس بعد وهناك الكثير من المواقع فى حاجة إلى الاكتشاف - ومع الاسف لا يوجد المكتشفون المؤهلون لذلك - فالغواصون يتنقلون إلى مواقع جديدة بدون استنفاد المواقع القديمة تماماً . وبدون شك لن يمر وقت طويل حتى تكتشف الكنوز الباقية . وحتى ذلك الوقت « فإن باقى الكنوز محفوظة فى أمان على عمق عشرين قامة فى انتظار يوم أفضل » كما قال الدكتور كارو سنة ١٩٢٨ .

وترقد مئات من المراكب الإغريقية والرومانية فى أمان مشابه على طول قاع البحر الأبيض المتوسط . وسنرى فى الفصول القادمة كيف استخدم الكابتن كوستو وغيره أساليب حديثة تحت الماء لإنقاذ هذه الكنوز - كنوز الماضى .

ومن المستحسن قبل أن نترك قصة علم الآثار تحت الماء فى فترة ما قبل الرثة المائية أن نذكر ما سجل عن آخر لحظات غرق سفينة كانت مشحونة بالتمثيل الإغريقية فى البحر الأبيض المتوسط وقد حدث أن كانت فى نفس الوقت هى اللحظة الأولى لعمليات غطس واسعة لاستعادة أشياء كثيرة منحوتة غارقة .

حدث هذا فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر . فقد زار اليونان كل من توماس بروس وإيرل (أوف) ألجين - السفير البريطانى لدى الإمبراطورية العثمانية - ولاحظا اللوحات المرمرية الرائعة التى تزين معبد البارثينون العظيم فى أثينا ، لقد عانى البارثينون شذائد كثيرة عبر القرون وخصوصاً سنة ١٦٨٧ عندما كاد أن يحى تماماً عندما أطلقت عليه نيران مدفع وجهت إلى وسط مخزن للبارود أقامه الأتراك هناك أثناء الحرب مع فينيسيا .

ولما كان اليونانيون ثائرين على الأتراك الذين احتلوا أراضيهم منذ زمن بعيد ، فقد خشي لورد الجين أن يقضى على بقايا البارثينون أثناء المعركة . لذلك عمد إلى شراء اللوحات والصفائح والتماثيل في البارثينون ووقف اليونانيون يشاهدون بحزن ولا حيلة لهم كنوز أثينا الفنية وهي تنقل وتعبأ في ستة عشر صندوقاً كبيراً وتشحن على ظهر « المنتور » وهي سفينة شراعية بصاريين. ووجهتها إنجلترا .

وكان خط سير المنتور نحو الغرب هو نفس طريق السفينة الرومانية المسلوقة التي سبقتها بحوالى ألفين من السنين والتي غرقت عند أنتيكيثيرا . وفي الليلة الثامنة واجهت المنتور نفس المصير . فعند مرورها بكاب تينارون دفعتها رياح غربية قوية في اتجاهها . وبدأت المياه تتسرب إلى السفينة . وقرر قبطانها أن يوجهها نحو اليابسة حتى تهدأ العاصفة .

وحاولت المنتور وهي تعبر شمال أنتيكيثيرا أن ترسو على شقيقة هذه الجزيرة ألا وهي جزيرة كيثيرا . واقتربت من الشاطئ وحاولت البحارة أن يلقوا بالمرسام. ولكنه لم يغرز في القاع . لقد اصطدمت السفينة بأرض صخرية بارزة وهبطت. عمق ستين قدماً في الماء .

حقاً لقد نجح كل من على السفينة ولكن غرقت الحولة مع المركب وكان بها تماثيل البارثينون العظيمة التي لم تنقذ من الأتراك إلا لتغرق في التو تحت الأمواج . وهنا قام سكرتير لورد ألجين ويدعى و . ه . هاميلتون وكان على رأس البعثة بالمهمة المحزنة وهي إبلاغ سيده بالكارثة .

وكتب لورد ألجين فوراً - وكان وقتئذ في أسطنبول - يخبر هاميلتون أنه. يزعم إنقاذ التماثيل . وأمر هاميلتون المسكين أن يبقى في كيثيرا ليحافظ على التماثيل.

المرمية - والتي لا تقدر بثمن - حتى تصل النجدة التي سيرسلها لورد ألجين للإقناذ السفينة الغارقة .

وفي نفس الوقت بدأت حرب تحرير اليونان . وأصبحت المنطقة كلها ..مرتعا للجواسيس والمؤامرات . وقد عرض ضباط البحرية الروسية مساعدتهم للإقناذ الحطام أثناء عبورهم ، ولكن هاملتون رفض . وحاول أحد الإيطاليين الذين استأجرهم لورد ألجين ولكنه أيضاً فشل ومرت شهور وهاملتون السيء الحظ يمحلق في البحر وغالباً كان يلعن ذلك اليوم الذي قرر فيه لورد ألجين شراء هذا المرمر .

وجاء الشتاء وما زال الحطام غارقاً تحت البحر ولم يجد لورد ألجين أحداً يقوم بعملية الإقناذ . . . عندئذ قام هاملتون وعلى مسؤوليته وأجر بعض الغواصين من جزيرة ساموس .

حدث هذا منذ ١٥٠ عاماً بالطبع . . وعلى ذلك سبّح الغواصون عراة وبدون مساعدة الأفعى أو أنابيب التنفس ومع ذلك فقد قام الغواصون الساموسيون بعملهم على أتم وجه . كانوا يغوصون لمدة دقيقتين أو ثلاثة دقائق في كل مرة وقد استغرق هذا العمل سنتين . وبدأت الصناديق تخرج من الحطام الواحد تلو الآخر وترفع إلى السطح ثم تركز على الشاطئ حيث تحرس جيداً وقد علقت التايمز اللندنية على هذا بقولها :

« سيدس عشاق الفن والمعجبون بالآثار الكلاسيكية لسماعهم خبر استعادة هذه المجموعة التي تمت عمليتها بكل دقة وعدل . وسيكون من المؤسف حقاً لو أن هذه التماثيل التي نجت كل هذه السنين الطويلة من جهل وتحامل الأتراك الأغبياء لتفقد مرة أخرى وبسبب آخر في الوقت الذي كانت تنجيه فيه إلى بلد متحضرة

قادر ومستعد لتقييم جودتها الفائقة . هؤلاء الفنانون متعطشون لكي يرتفعوا - بدراستها - إلى هذا العلو الشامخ من الجمال والدقة في النحت وهو الشيء المميز للمجسودات الرفيعة في النحت عند اليونانيين القدامى .

لقد أنفق لورد ألجين مبلغاً ضئيلاً لإخراج التماثيل من اليونان ، أما الجزء الأكبر فقد دفعه لاستخراجها من البحر ، ومع ذلك لم تقابله أية مناعب مالية . فقد باع المجموعة بأكثر مما ستهلكه سنة ١٨١٦ المتحف البريطاني بربح قدره ١٥٠.٠٠٠ جنيه . ولا زالت التماثيل باقية هناك حتى الآن وبعد ألفين وخمسمائة عام من سوء الاستعمال - رغم الخوف من البلى - ومع ذلك فهي قوية بشكلها الحالي المبتور . واكتسب لورد ألجين شهرة خالدة . لأن المجموعة بأكثر مما ستهلكه تسمى « تماثيل ألجين المرمية » . واليوم واليونانيون يشعرون أنهم قادرين على حماية كنوزهم ، فقد بدأوا يطالبون منذ سنوات بإرجاع تماثيل ألجين المرمية إلى أثينا . ومع ذلك صم المتحف البريطاني أذنيه . واليوم أصبح على الأجيال المتعاقبة التي هي من صلب اليونانيين المعاصرين لأفلاطون أن تسافر إلى لندن لترى الأمثلة العظيمة لقن أجدادهم .

الفصل الثالث

أقدم التماثيل في العالم

إن التنقيب عن الآثار تحت الماء لا يجري كله في البحر فقط ، فهناك أيضاً الكهوف حيث عاش الإنسان وترك وراءه ما يشير إلى وجوده . بعض هذه غمرتها المياه وأصبحت تشكل تحدياً في مواجهة أكثر المكتشفين جسارة وجرأة الذين يتحتم عليهم أن يشقوا طريقهم في ظلام دامس وخلال البرك التي ترعرع الاوصال ليجدوا كنوز الماضي التي يبحثون عنها .

ويعتبر الفرنسي « نوربرت كاستريت » من أعظم مكتشفي الكهوف في عصرنا هذا ، وهو ليس بعالم آثار وإنما مكتشف كهوف . قضى حياته كلها منقباً مراراً وتكراراً عن المغارات المظلمة الخفية تحت الأرض ، ملقياً ضوء الفهم العلمي على هذه الممالك المظلمة .

وتمت أكبر مغامرات كاستريت المثيرة منذ أكثر من أربعين عاماً مضت . ولم تكن المخاطرة من أجل الكشف عن الكهوف فحسب ولكن تعدتها إلى ما تحت الماء أيضاً . ففي غمرة من العمل الباهر الشجاع نفذ نوربرت كاستريت إلى كهف تغمره المياه ، واكتشف أقدم التماثيل التي عرفها الإنسان وهي مخلفات أثرية لما قبل التاريخ ترجع إلى عشرين ألفاً من السنين الماضية .

بدأ كاستريت استكشافه قبل الحرب العالمية الأولى عندما كان طالباً في فرنسا وجاب المغاور والكهوف ، تقوده موجة من حب الاستطلاع كالتى دفعت آخرين على شاكلته .

وقد كتب سنة ١٩٢٤ يقول : « إننى لأعرف أى شعور أقوى من ذلك الذى يتمتع الإنسان والذى يمارسه عند دخوله مغارة لا يعرف شيئاً عن متاهاتها الغامضة المظلمة بينما تتساقط حبات الماء من أعلى فتمزق السكون بآلاف من أغانيها الصغيرة » .

كان أهم ما يشغل باله هو اكتشاف بقايا إنسان ما قبل التاريخ والذى سكن المغارات العديدة فى فرنسا فى الماضى السحيق . وكان على علم بأن رجال الكهوف كانوا يتجنبون المغاور الكبيرة لخوفهم من الظلام والمجهول . وعاشوا فى كهوف صغيرة أو فى مداخل المغاور الكبيرة .

وتسببت الحرب العالمية الأولى فى وقف اكتشافات كاستريت المبكرة للكهوف ، ولكن بانتهاء الحرب استأنف عمله ، فزار الكهوف المشهورة التى تم اكتشافها وتأمل رسوماتها وانحناها المذهلة التى ترجع إلى ما قبل التاريخ ، ودرس كتابات المؤرخين الذين اكتشفوا هذه الكهوف ، وقام بنفسه باكتشاف بعض الكهوف وكان يحبو خلال الممرات المنخفضة أو يسبح فى مياه أنهار جوفية شديدة البرودة .

ووصل سنة ١٩٢٢ إلى قرية « موانتيسبان » فى البيرينيز . وكانت الكهوف الموجودة فى القرى المجاورة قد أخرجت من بطونها ثروة من النحت ورسومات ما قبل التاريخ . أما المغارة الموجودة فى موانتيسبان فلم يكتشفها أحد من قبل . وقد علم كاستريت أنه من الممكن التوغل فى المغارة فى الجو الجاف إلى بعد خمسة وستين ياردة . أما نهايته فالماء يسده بحيث يصل إلى سطح المغارة . وبدأ كاستريت يتساءل ؟؟ هل يوجد أى شئ فيما وراء الماء ؟؟ .

وأجاب سكان المدينة « لا يوجد أى شئ » . إن المغارة تنتهى وستغرق نفسك إذا تماديت » .

وكان قد سبقه سنة ١٩١٤ أحد علماء الحفريات الحيوانية والنباتية بالكهوف المشهورين ويدعى الأستاذ جينل وألقى نظرة على كهف مونتيسيان . ودخل أنمر والذى يبلغ ارتفاعه إثني عشر قدما ولكنه توقف عندما وصل الى بركة المياه التي تبدو أنها نهاية الكهف . ولم يكن هناك أى أثر لسكنى الإنسان ، فلم يجد جينل أى مبرر لكى يواصل سيره .

أما كاستريت فقد صم بعناد أن يدخل إلى الكهف بأى شكل . فليس يبعد عن هذا المكان وجد الأستاذ م . كونت بوجوين تماثيل رائعة لما قبل التاريخ فى كهف توك دادوبرب . وفى ١٨ أغسطس ١٩٢٢ لبس كاستريت رداء البحر ودخل الكهف حاملاً شمعة .

وكان عليه أن ينزل داخل ثقب لا يتسع لأكثر من جسمه فوجد نفسه فى دهليز طويل يبلغ اتساعه إثني عشر قدما وكان ارتفاعه فى بعض الأحيان لا يزيد عن بوصات فوق رأسه . ويجرى جدول ضحل من الماء البارد فى قاع الكهف . وعندما توغل إلى مسافة ١٢٥ قدما انحرف الدهليز بزاوية قائمة وانخفض السطح لدرجة اضطرت به أن ينحن كثيراً ليتمكن من السير وبعد ستون قدما أخرى وجد كاستريت أن الماء أصبح عميقاً حتى تقابل سطح الكهف مع سطح جدول الماء الجوفى . وفى هذا المكان تراجع الأستاذ جينل ولكن كاستريت لم يتراجع .

فقد كتب يقول « عند الوصول إلى هذه البقعة الغير المشبعة دفعتنى ذكريات الاكتشافات السابقة - وعلى الأخص تلك التى وجدت فى توك دودوبرك - لا إلى أن أترك الكهف فى الحال وهو الشئ الطبيعى فى مثل هذه الظروف - ولكن إلى أن أفكر .

ودرس الموقف - فكانت كل الجدران المحيطة به مصنوعة من الحجر الجيرى

القابل للتأكل بسهولة بواسطة المياه الجارية ، فمن المحتمل جداً أن يوجد جدول ماء جوفى يجرى داخل الجبل الذى يحتوى على الكهف ، وأن يكون هذا الجرف بجدوله الواسع ماهو إلا مخرج ذلك النهر الجوفى .

وكانت لدى كاستريت فكرة أخرى . فهو يعلم أن الإنسان إذا سكن مثل هذه الكهوف منذ ألفين أو أكثر من السنين ، فإن جو هذا الجزء من أوروبا لابد وأنه كان يختلف عما هو عليه الآن . لابد وأن الجو كان حاد البرودة والجفاف شبيهاً بجو البرايخ الحالية . ثم تساءل كاستريت « ماذا لو أن مجرى النهر كان جافاً فى زمن إنسان الكهف ؟ والجواب أن الإنسان كان سيستطيع أن يسكن فى غرف الكهف من آلاف السنين ، وربما ارتفع الماء فيها بعد أن هجرها إنسان الكهف .

وكتب كاستريت « لقد قلبت هذه الأفكار والافتراضات غير المؤكدة التى تغرى أى مؤرخ لما قبل التاريخ ، ثم صممت على أن أتوغل فى مسالك الجبل والمجارى تحت المائية التى لم يمكن الوصول إليها بعد .

كنت أدرك أنها فكرة طائشة ، فأمامنا الكثير من أنواع المخاطر . فقد تكون القناة المنبثقة فى الجبل مستمرة إلى مئات من الياردات ، أو ربما أسبح فى جيب مسدود ، أو قد أفقد طريق عودتى فى الظلام قبل أن تنقطع أنفاسى ، أو قد أقع فى ورطة فى مفارق الطرق ، أو قد أغرس فى الرمال المتحركة أو أفقد طريقى فى حجرات الكهف المظلمة .

لقد وضع كاستريت كل هذه الاحتمالات فى اعتباره ، وقرر أن ينحوض التجربة مهما كانت ، ثم وضع الشمعة فى بروز ناتئ فى الكهف بكل حرص ثم ملأ رثتيه بالهواء - ولما كان سباحاً قوياً ، كان فى إمكانه أن يبقى تحت الماء

لمدة دقيقتين . وفي غمرة السكون التام والوحدة قفز إلى الماء ماداً إحدى يديه أمامه لتحميه من الصخور التي تعترض طريقه ، بينما الأخرى تتحسس سقف الكهف .

وبدا يتحرك إلى الأمام ببطء وهو يتحسس ماحوله ، محاولاً أن يتذكر الأشكال التي يراها حتى يمكنه أن يشق طريقه عند العودة في الظلام . وبداله للمحظة أنه لن يخرج أبداً إلى الهواء ، ولكن - لدهشته وفرحته - خرج من الماء ليجد نفسه يتنفس الهواء المنعش مرة ثانية . لقد اخترق السرداب المغمور بالمياه الذي كان عقبة في طريق الآخرين .

ولكنه بالطبع لم ير شيئاً للمرة فما كان منه إلا أن أخذ نفساً طويلاً وقفز ثانية إلى الماء عائداً إلى المغارة الخارجية حيث ترك شمعة : فقد ثبت أن المغارة تمتد داخل الجبل . ولكن هل سكن إنسان ما قبل التاريخ هذا المكان ؟ لا بد له من ضوء ليكتشف هذه الحقيقة .

وعاد كاستريت بمفرده في اليوم التالي إلى المغارة مرة ثانية وحمل معه هذه المرة غطاء رأس من المطاط به كبريت ونصف دسنة من الشمع ، لأنه لم يثق في البطاريات الكهربائية التي كانت موجودة وقتئذ ، وفضل مصدر الضوء البدائي . وأغلق غطاء الرأس بإحكام حتى تبقى محتوياته الثمينة جافة ، ثم دان إلى المغارة وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر . والمرة الثانية سبّح خلال القناة المغمورة بالماء .

وخرج سالماً مرة أخرى من الجانب البعيد . وكان واقفاً في الماء مغموراً حتى ذقنه فأخرج بحذر شمعة جافة من غطاء رأسه وأشعلها . وعلى ضوء الشمعة انخلف المتراقص رأى الكهف يمتد أمامه على مسافة بعيدة ، وكان لا يفصل سطح المغارة الزجج عن سطح جدول الماء إلا طبقة رقيقة من الهواء . وبدأ كاستريت يسبح في الظلام حاملاً الشمعة بيد وغطاء الرأس باليد الأخرى .

وبعد أن توغل أربعائة قدم أمكنه أن يلمس القاع الطينى البارد اللزج . وبعد ذلك بلحظة خرج لشاطئ طينى هو مدخل لغرفة كبيرة . وبدأ يسير على أطراف قدميه وهو يرتعد من السباحة فى الماء المثلج . وكان السقف على ارتفاع ٣٠ قدماً فوق رأسه ، وقد سقطت كتل كبيرة من الحجارة من السقف . ولما كان الجدول فى ذلك المكان ضحلاً فقد اختفى تحت كتل الصخر المستديرة الكبيرة . ووجد الهواء النقي منفذاً له داخل هذه الحجرة من مكان ما بأعلاها . وتصاعدت على مر السنين بلورات من الصخر الستلاجيت ذات المنظر الأخاذ من الأرضية الرطبة . ومع ذلك لم يجد أى أثر يثبت أن الإنسان قد سكن هذا المكان الفخيم من قبل . وعبر كاستريت بكل شجاعة إلى الداخل ، ووجد مجرى الجدول الضيق واستمر حتى كان على بعد ستمائة قدم داخل الكهف . وقد كتب يقول « لم أمر أبداً بمثل هذه التجربة من الشعور بالعزلة والقهر والخوف الذى ينجم على هذا المكان من تحت الأرض ، وأن أى حدث تافه (مثل بلل الثياب) » قد يؤدى إلى نهاية محققة . »

وترك كاستريت البهو الكبير ، ودار حول عامود ضخم قائم فى مجرى الجدول وجد أن سقف الكهف قد اتقى بالماء . لقد سد سرداب آخر مملوء بالمياه طريقه ومن يدرى مقدار طوله ؟

بعد أن وصل كاستريت إلى هذه النقطة لم يجد أى رغبة فى الرجوع ، مع أن المياه كانت عميقة والسرداب تحف به « الستلاكتاتيت المدبب الأسود » ، وأخذ نفساً عميقاً وفاض تحت الماء ، وسبح لمدة خيات له أن لا نهاية لها ، فقد كان السرداب أطول من سابقه . وخرج من الماء - بعد أن كادت رئاته تنفجران - إلى مكان تفصله مسافة ضئيلة من الهواء عن السقف .

• وها قد أصبح معزولاً عن العالم الخارجى بسر داين مغمرين بالماء حتى
 للسقف . كتب يقول : « كانت الوحدة بشعة وقاومت بشدة الميل إلى الكتابة
 الذى بدأ يسرى ببطء إلى نفسى . والنحظة فكرت في التراجع ، ولكن من حسن
 بالخط أن هذا المكان لم يكن مشجعاً بالمرّة لأى تفكير ، ووجدت نفسى مندفعاً
 يعامل البرد وإدراك الموقف إلى التقدم بنفس درجة التفكير في التفهق » .

لقد كان الرواق الذى وجد نفسه فيه منخفضاً جداً لدرجة أنه اضطر أن يجبو
 على يديه وقدميه ، والماء يتساقط رذاذاً من السقف ليطنىء الشمعة مراراً وتكراراً ،
 والجدران الصلبة تعترضه في عشرات الأماكن . وأخيراً وصل إلى بهو كبير آخر
 أكبر من البهو الأول . وهنا أيضاً تساقطت من السقف الأحجار الكبيرة
 المستديرة مما يشير إلى حدوث التواءات في سطح الأرض في الأزمنة السابقة .
 وتوقفت كاستريت لحظة في هذا البهو وبدأ يتراقص ليس تيهاً وعجباً وإنما لكي
 تجرى الدماء في أطرافه التى جمدها البرد ، وتساءل عن مدى امتداد هذا الكهف ؟
 وربما أميال ؟ هل ستكفيه الشموع حتى رحلة العودة ؟ أم أن الإثارة وحب
 الاستطلاع سيحملانه إلى النقطة التى لا عودة منها ؟ .

وتسلق كاستريت زاحطاً على الصخور الكبيرة الموجودة في البهو الكبير .
 وللمرة الثانية دخل إلى الرواق الضيق الممتلئ بالماء ، واعتقد لعشرات المرات أنه
 وصل إلى نهاية الكهف ، وإنما ليجد نفسه في كل مرة في قسم آخر يقع خلف
 حامود ضخم . وتقدم وهو غارق في الماء حتى رقبته حيناً أو سائراً حيناً آخر على
 يديه وقدميه على جزء بارز من الظلى أو الخصى تاركاً آثار أقدامه وراءه كلما أمكن
 كعلامة طريق في رحلة عودته .

وضاق الكهف كثيراً لدرجة أن سد الطريق أمامه . ولم يتمكن كاستريت

إلا من إدخال رأسه وذراع واحدة من الفتحة . وألقى بنظرة فاكتشف جدولاً من الماء تعلوه فروع أشجار عائمة . وفجأة وجد ضفادع ، وأطلق كاستريت صرخة الانتصار فهو يدرك أن الضفادع لا تعيش في أعماق الكهوف تحت الأرض . وعلى ذلك فلا بد أنه قد وصل إلى نهاية الطريق . ولا شك أن ضفادع هذا الجدول على بعد عدة ياردات من السطح في نهاية الجبل من الناحية الأخرى . وقد اتضح فيما بعد أن تخمينه كان سليماً .

واستدار كاستريت ليعود . وعندئذ واجهته المهمة الشاقة - وهي أن يجد طريقه إلى مدخل الكهف . وبين القينة والقينة كانت تساوره لحظات من الشك : أى طريق يسلك ؟ ولكنه خرج أخيراً سالماً . وكان أطول السرداين قد سبب له متاعب جمة أثناء عبوره ، لأنه غطس بزاوية حادة مما جعله يضل مخرجه ، وكان عليه أن يعيد الكرة حتى ينفذ خارجاً منه .

وكان يحق لكاستريت أن يشعر بالزهو برحلته التي قام بها خلال خمس ساعات ، قطع فيها مياين داخل الكهف الرطب وذلك لسببين : أولاً فقد اكتشف كهفاً لم يكتشفه أحد من قبل ، وهذا يدخل السرور إلى قلب كل عالم للكهوف . وثانياً أنه أثناء سيره في المغارة التقط من حيوان - وهو بيسون^(١) ما قبل التاريخ ، ويسمى باللغة اللاتينية بوسر بريميچينيوس . والمعروف أن البيسون لا يتجول داخل الكهوف من تلقاء نفسه . ومن الواضح أن إنسان ما قبل التاريخ قد قتل البيسون وسحب جثته إلى الكهف لاتهامه . وكان هذا السن دليلاً ضعيفاً على سكنى الإنسان لهذا الكهف . ومع ذلك فقد أشعل خيال كاستريت .

(١) البيسون Bison : حيوان أمريكي شبيه بالثور .

وفي الأيام التالية قام كاستريت باكتشاف المغارة عدة مرات وقد وجد أهباء وممرات لم يلاحظها في الرحلة الأولى . ولكنه لم يجد أى أثر آخر لإنسان ما قبل التاريخ . ثم فاضت الأمطار بغزارة ملأت المغارة تماماً ، وأجبرت كاستريت على التوقف ذلك العام .

وكان الصيف التالى من أجف الفصول التى مرت بفرنسا منذ سنين عديدة . وعاد كاستريت إلى مونتسبان فى أغسطس ١٩٢٣ ، يصاحبه زميله هنرى جودين . وتسبب الجفاف فى انخفاض مستوى الماء فى الكهف ، حتى أصبح من السهل أن يخوضا خلال أول السردابين المغمورين بينما ظلت الشموع موقدة . وعبرا البهو الكبير الأول ، وبدلاً من أن يغوصا فى السرداب المغمور الثانى ، فقد اكتشفا هذه المرة رواقاً جديداً جافاً إلى يسار الجدول الذى اكتشفه كاستريت فى سنة ١٩٢٢ .

وكان طول الرواق الجديد ٦٥٠ قدماً ، وعرضه ١٦ قدماً ، وارتفاعه ١٣ قدماً . وكان منظره كما كتب كاستريت « يشبه القفص الخرافية » فالجدران يغطيها حجر الجير المتبلور الستلاكتيت المتألق . وتتكون الأرضية من ألواح من حجر الجير الأصفر اللامع ذات أطراف مروحية الشكل ، ترتفع كل منها لتكون حوضاً من الماء . ولكن جمال الروائى السحري انتهى فجأة . ودارا حول ركن ليجدا نفسيهما فى ممر مظلم كثيب وتحت أقدامهما أرض طينية . وهبط السقف تدريجياً حتى اضطرا فى المائة قدم الأخيرة أن يزحفا على بطنيهما على الأرض الباردة . ونفذا إلى حجرة أخرى كبيرة . وقرر كاستريت أن يحفر فى هذا المكان باحثاً عن أى آثار فنية ممكنة لما قبل التاريخ . ورفع المول الصغير الذى أحضره وحفر فى الطين البارد اللزج .

وكان بعد كل ضربة ينتزع الطين بأصابعه . وفجأة ، وبينما هو ينظف المول ،

أحس بجسم صلب مدفون في الطين . « أدركت أنني أحمل أحد تلك الشظايا من حجر الصوان التي قد يضحك عليها أى إنسان عادى ، ولكنها تدخل السرور إلى قلب أى عالم آثار » .

كانت قطعة من الحجر الخام لا شكل لها تقريباً . ولكن مما لا شك فيه أن يد إنسان قديم قد شكلتها . ونال كاستريت المعول لجودين وطلب منه أن يستمر في الحفر بينما دار هو في أنحاء الرواق باحثاً عن علامات أخرى لوجود الإنسان .

أدرك كاستريت أن هذا الرواق الشديد الغور في الجبل لا يمكن أن يكون محلاً للسكنى . فإنسان الكهف لا يحب السكنى بعيداً عن الضوء ، ولكنه استخدم الكهوف العميقة المنبوعة للشعائر الدينية . ولقد وجدت معظم رسوم الكهوف للعظيمة والتماثيل في أعرق مكان من المغارة .

وبعد إشعال الضوء جاس كاستريت خلال الكهف ، وتوقف فجأة . فعلى الضوء الضعيف رأى ما لا يمكن تكذيبه : رأى تمثالاً من الطين لدب رابض في مواجهة مدخل المغارة ، ويبلغ طوله ثلاثة وأربعين قدماً وارتفاعه أربع وعشرين بوصة ، مقاما على قاعدة ومتخذاً في وقفته شكل أبى الهول المصرى . كان يبلأ رأس ، وتغطى كل جسمه الرسوب الكلسية مما يؤكد أن النحات قد أنهى عمله دون أن يشكل الرأس . وكانت كفوف الدب مطوية ما عدا كف القدم اليمنى الأمامية فكانت ممتدة ومخالبة الخمسة واضحة تماماً . وبين خفيه الأماميين « قد رأس دب صغير مغطى بالحجر الجيري . وتظهر على التمثال الطينى آثار قذف ما لا يقل عن ثلاثين حربة . ويبدو كما لو أن التمثال كان مغطى بجلد دب حقيقى وأن صيادى الأزمنة القديمة قد قاموا ببعض طقوسهم الدينية التي تتطلب قذف التمثال الطينى بحراهم . وكتب كاستريت يقول « إنى لأتصور تلك

«الخفلات» التي أقيمت في باطن تلك الصخور وكأنها الكابوس الثقيل .

وقطع الرجلان الكهف بحثاً - بأنفاس لاهثة - عن مزيد من آثار ما قبل التاريخ «ووجدوا الكثير منها . أشار كاستريت إلى أشكال جياد بارزة وتمالين كبيرين من الطين النمر أو أسد . وعدد من الرسوم المنحوتة على الجدار . « وعلى كل الجوانب كانت تقفز أمام أعيننا نقوش حيوانات ورسوم وعلامات غريبة » . كذا كانت الضبوع والماسز للبرية وحيوان الشامواه والآيل والبيزون والماموث والجياد . والحير الوحشية كلها مرسومة على شكل نقوش منحوتة على الصخر أطلق عليها «كاستريت» المهارة والواقعية المذهلة » . وبلغ عدد الصور في مجموعها خمسون ، بالإضافة إلى ثلاثين تمثالاً من الطين بعضها شديد التلف من الماء المتساقط .

وواصل المكتشفان سيرهما إلى الرواق الثاني ووجدوا سن حصان وهيكلًا عظيمًا لثعبان صغير ، وآثار أقدام دب الكهوف على حجر الجير اللين ، وكثيراً من النقوش على الجدران بينها رسم لحصانين في حالة حمل ، وعلى ظهر أحدهما نقشت يد بشرية مفرودة الأصابع كما لو أنها ترمز إلى « سيادة الإنسان على عالم الحيوان » ، وفوق الحصانين نحتت رأس ماعز برية . كما شاهدها رسماً جانبياً لرأس إنسان غريب — ذى أنف حادة وعينين واسعتين مفتوحتين مستديرتين وبدون أهداب . ولحية قصيرة — وتحيط بهذه الرأس علامات تشبه الإسفين ، اعتقد كاستريت أنها تشبه الكتابة المسمارية التي عرفت عن أرض الجزيرة القديمة بالعراق ((فيرديو تاميا) .

وعلى مسافة أبعد ، وجد كاستريت وجودين آثار أقدام بشرية على الطين ، وقطع من حجر الصوان المنحوت ويصمات الأيدي التي حفرها الطين لتصنع التماثيل . وأظهرت علامات مخالب الحيوان أنها كانت تحجز في الكهف أيضاً ربما لتستترك في بعض التضحيات الدموية . وعند أحد منحنيات الرواق أقبلنا على ثلاثة تماثيل

كبيرة لأسد أو نمر يزيد طول الواحد منها على خمسة أقدام ، ولكنها بليت تماماً من القدم . وعلى الجدار القريب من هذه المجموعة رسم ماموث ، وبجانبه أدوات أخرى من حجر الصوان وأجزاء من العظام المصقولة. وفي مكان آخر من الكهف وجد كاستريت عظام جياد وبيزون ودب وحيوان الرنة مدفونة في الأرض ، ومعها بقايا بشرية بما فيها عظام الكوع .

حقاً لقد كان متحفاً للتاريخ القديم . وكتب كاستريت « لن أنسى أبداً الرهبة التي شعرت بها عندما وقع نظري لأول مرة على هذه الآثار التي لم يمسهما إنسان بعد مائتي قرن من العزلة . مثل هذه التجربة تعوض لك في لحظة واحدة كل المتاعب والمخاطر والصعوبات التي لا حد لها والتي تجابه أولئك الذين يسابون من التاريخ أسرارهم » .

وقد دلت دراسة فن مونتسبان على أن هذا المكان كان معبداً مقدساً ، وهو أحد الكهوف المقدسة التي كان سحرة قبائل الصيد في عصر استثناس الآيل يقومون فيه بطقوسهم السحرية .

وخرج كاستريت وجودين يترنحان وقد بهرتهما الأشياء العجيبة التي اكتشفها . وسرعان ما أخبرا عدداً من كبار الخبراء المتخصصين في عصور ما قبل التاريخ لتقييم هذه الآثار ثم اشترك أخو كاستريت وأصدقاء آخرون في عملية توسيع نخرج الكهف . وقد زاد هذا من جريان الماء في الجدول وخفض من مستوى الماء حتى أصبح من الممكن الوصول إلى رواق ما قبل التاريخ بدون تقليد كاستريت . في عمليات غطسة الجريئة في الماء . وأعلن عن رواق مونتسبان ضمن الآثار الوطنية وأصبحت محتوياته اليوم تضاهي أهم الآثار التي وجدت لإنسان ما قبل التاريخ .

ولو أن نوربرت كاستريت قام باكتشافاته لكهف مونتسبان بعد ذلك الوقت

بثلاثين عاماً لتضاءلت فرص بطولته ، لأنه كان سيصبح في مقدوره حينئذ استخدام أجهزة الغطس بالجلد بدلاً من قوة رثتيه القويتين ليسبح خلال السرداين المغمورين بالماء ، ولقلت كثيراً حينئذ المخاطر التي تعرض لها . ذلك أنه لم توجد أجهزة الغطس بالجلد سنة ١٩٢٢ بالطبع ، وكان من الحال أن يلبس كاستريت رداء الغطس في مثل هذه الأروقة الضيقة . ولكن ربما حتى ولو كان لدى كاستريت رئة مائية يحملها على ظهره لرفض استعمالها . وفي سنة ١٩٥٤ اشترك كاستريت — وقد بلغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً — في بعثة انجائزية — فرنسية مشتركة لاكتشاف كهف آخر في « البرينية » بجبال البرانس حيث سدت الأروقة الغارقة في الماء الطريق مرة ثانية . واستعمل عشرة من الإثنى عشر عضواً من أعضاء البعثة أجهزة الغطس بالجلد ، أما كاستريت فلم يستعملها . واتضح أن السرايب المغمورة بالمياه لا نهاية لها واستسلمت كل البعثة بما فيها حاملوا الرئات المائية للفشل .

وكانت للسيكوبا قيمة كبرى كجهاز حديث في الكشف عن الكهوف رغم عزوف كاستريت عنها . وكانت جماعة الكشف عن الكهوف البريطانية التي تأسست سنة ١٩٤٦ من أنشط التنظيمات في الغطس في الكهوف . وكانت هذه المجموعة من علماء الآثار الهواة — التي تمضى عطلة نهاية الأسبوع والأجازات في الغطس — تفضل استعمال أجهزة التنفس بالأوكسجين عن الرئات المائية المعروفة .

ويتعرض أولئك الذين يتنفسون الأكسجين للخطورة على عمق أكثر من ثلاثين قدماً . ولكن من مميزاتهم أنهم يكونون أخف مما لو حملوا أجهزة الهواة المضغوط وهذا ينفع في ممرات الكهوف الضيقة .

وذهب جزء من جماعة الغطس في الكهوف البريطانية إلى سومر سنشبر لاكتشاف مغارة يطلق عليها روكي هوك كانت مسكونة منذ مئات السنين . وقد

وجد الغواصون الذين كانوا يلبسون أردية الغطس العادية — قبل اكتشاف السكيوبا — قطعاً من الأواني ترجع إلى ألفين أو ألفين وخمسمائة من السنين في هذا الكهف . أما جماعة الكشف عن الكهوف البريطانية باستعمالها طريقة التنقيب في الشواطئ الرملية بالكهوف باستخدام شفاطات الماء فقد وجدت أنوان يرجع تاريخها إلى الاحتلال الروماني لبريطانيا ، وكذا حجاجم بشرية وأواني زجاجية تعود إلى القرن السابع عشر . وقد دخلت هذه المجموعة الماهرة من الغواصين عشرات من الكهوف المغمورة تحت الأرض في بريطانيا العظمى . وقد ساعد نشاطهم علماء الآثار في كشف الغطاء عن أسرار تاريخ جزيرتهم . فبجانب العنصر الرياضي الذي يجذب الغواصين ، نجد أيضاً القيمة الأثرية لعملهم . وعندما سئل أحد غواصي الكهوف من البريطانيين ويدعى روبرت . أ . دافيز عما يغري بعض الناس ليخاطروا بحياتهم في المغاور المظلمة الشديدة البرودة ، أجاب « إنها بالنسبة للإنسان الذي لا دافع له رياضة خطيرة غير مريحة ولكن تنتج عنها بعض المكتشفات الخاصة بعلم الآثار ، كما يستكشف الكثير من الحقائق العلمية التي يجب كشفها . وذلك هو الدافع إلى الاكتشاف تماماً كما يحدث في تسلق الجبال » .

وقد قاد « الدافع إلى الاكتشاف » الكثيرين نحو الكهوف في جميع أنحاء العالم . وفي أغلب الأحيان كانت محاولاتهم تنتهي بتماسي ، ذلك أن كل مكتشف للكهوف ليس سعيد الحظ أو على ميادة نوربرت كاستريت في تجنب الأخطار . وحتى فريق كاستو — دوماس — تاييز الشهير ، وهم من أمهر وأقدر الغواصين بالجلد ، صادقتهم المصاعب أثناء الغطس في كهف غير أترى في فوكلوز بفرنسا ، هو كادوا يفقدون حياتهم .

ومع ذلك يوجد كثيرون من المعلمين الذين يبحثون عن الكهوف ،

ويدخلونها أحياناً لجرد المتعة الرياضية وأحياناً أخرى بأمل العثور على كنوز ما قبل التاريخ . لقد سكن الإنسان في الكهوف منذ بدء الخليقة . ولا شك أن كثيراً من الكهوف التي لم تكتشف بعد تحتوى على آثار الماضى . وقد تم اكتشاف أعظم المقتنيات الأثرية في الكهوف الجافة ، وأبرزها في العصر الحديث الكتابة على القراطيس الملفوفة ، في البحر الأسود — وقد أمدتنا بمعلومات قيمة جديدة عن العصر البابلي . كذا أمدت الكهوف الجافة في منغوليا والصين علم الآثار بالكثير من المعلومات القيمة .

ولم يكتشف بعد عدد كبير من الكهوف لأن المياه تسد مداخلها . ولم يجرؤ أحد على المخاطرة بدخول هذه الخبايا المظلمة المملوءة بالماء ، حيث أن نتائجها غير مؤكدة في حين أن مخاطرها كبيرة . أما اليوم ، فقد أدت أجهزة العطس بالجلد إلى تقليل المخاطر وبدأت ضخامة المكاسب — بالنسبة لقيمتها الأثرية — بعد الأعمال الجيدة التي فتحت طريقها نوربرت كاستريت في سنة ١٩٢٢ .

الفصل الرابع

خمور ماركوس سيستيوس

في حوالي سنة ٢٣٠ قبل الميلاد غادرت إحدى السفن ميناء جزيرة ديوس اليونانية ، وهي مسقط رأس أبولو ، متجهة إلى الغرب . كانت السفينة ضخمة ، وظهرها المغطى بطبقات من الرصاص قادر على حمل أطنان من البضاعة ، وفي وسطها سارية كبيرة تحمل شراعاً من جلود الثيران .

كانت السفينة ملكاً لتاجر يوناني يدعى « ماركوس سيستيوس » ، ترك روما ليعيش في اليونان يتاجر ببواخره . وفي سنة ٢٤٠ قبل الميلاد اعتبر مواطن شرف لجزيرة ديوس ، التي كانت من أهم موانئ البحر الأبيض المتوسط . وكانت له فيلا جميلة في الحى الذى يسكنه تجار روما .

كانت شحنة سفينة ماركوس سيستيوس الكبيرة هي الخمر - خمور من اليونان لتباع في مستعمرة ماسيليا اليونانية ، التي أصبحت الآن مدينة ماسيليا الفرنسية . ويعتبر تصدير الخمر اليوم إلى فرنسا مثل تصدير الفحم إلى نيوكاسل حيث أن أحسن أنواع الخمر تأتي من فرنسا . ولكن صناعة الخمر في فرنسا كانت لا زالت في بدايتها منذ ٢٢٠٠ سنة . وكان المستعمرون الإغريق في ماسيليا يستوردون الخمر من أرض آباءهم ، على درجة كبيرة من الغنى ومغمون بالخمر ، ويدفعون مبالغ طيبة في سبيل الحصول عليها ، حتى بلغ ثمن جرة من الخمر ما يساوى ثمن العبد في ماسيليا .

وجرة الخمر هي المسكيات المعيارى . وهي عبارة عن إناء كبير منتفخ من أسفل

مصنوع من الطين يسع حوالى ست جالونات ونصف . وكانت الجرار تستخدم في شحن الزيت والحبوب والبلح والزيتون والأصباغ والمواد الخلام وأى شىء . يمكن تخزينه في الجرة بسهولة ، كما كانت في الغالب تستخدم لشحن الخمر في السفن . وتزن الواحدة منها وهى مملوءة بالخمر حوالى مائة رطل .

وكانت حمولة السفينة تقدر بعدد الجرار التى تحملها لا بالأطنان . وعرفت باخرة ماركوس سيستىوس الكبيرة بأنها تحمل ١٠ر٠٠٠ جرة . وكانت هذه الجرار تخزن تحت الجزء الرئيسى من سطح السفينة عند إبحارها من ديلوس حتى يمكن شراء بضائع أخرى أثناء الطريق .

وأبحرت سفينة ماركوس سيستىوس غرباً بين جزائر اليونان المتقاربة بحيث لا تغيب الأرض عن أعين البحارة لمدة طويلة . ثم تركت الجزائر الصديقة وتوغلت في غمار بحر أيونيان الواسع ، حيث تغيب الأرض تماماً عن الأنظار لمدة أسابيع . وعبرت سفينة الشحن بحر أيونيان بسلام وانجحت إلى مضيق ميسينا الذى يفصل إيطاليا عن صقلية . وقاد الربان سفينة الخمر دون أن تمس بين صخور صقلية الخفيفة ودوامات الكاربيى التى وصفها هومر في « الأوديسة » على أنها زوج من الحيوانات الخفيفة المفترسة .

وسارت السفينة إلى شاطئ إيطاليا مارة بنابولى ، ثم رست على ميناء في خليج جيتا ، حيث توجد مستعمرة إغريقية تصدر منها أوان فخارية بكميات كبيرة . وقد اشترى التجار كمية كبيرة من الأطباق المطلية بالسواد ، وكذا الأواني لملئها إلى ميسيليا . ووضعت هذه الشحنة الجديدة أسفل السفينة مع جرار الخمر الإغريق . ثم اشتروا خمرأ أحمر يصنع بالقرب من روما ورسوا الجرار الرومانية الرفيعة على بعد ثلاثة أعماق من ظهر السفينة الرئيسى . وما أن شحنت البضاعة الجديدة على ظهر

السفينة ، حتى بدأت جوانبها ترزح ، وأصبحت مقدمة السفينة ملاسة لسطح الماء بشكل خطير . وربما لاحظ ذلك بعض البحارة وتمتموا ببعض اللعنات ، إذ أن أصحاب السفن الجشعين يملأون مراكبهم حتى درجة الخطر . ولا بد وأن البحارة كانوا يقولون « إننا نحمل أكثر مما يجب ، لماذا لا يتعقلون ؟ » .

وسواء كانت ممتلئة عن آخرها أم لا — فقد توجهت السفينة غرباً — وبدأت المتاعب ومسيليا على مرأى العين . فربما هبت عاصفة مفاجئة أو اصطدمت السفينة بجزء بارز من الصخر ولكن مهما كان السبب ، فقد بدأت السفينة تتلاطم في مكان يعرف الآن باسم جراند كونجولويه ، على مسافة من ساحل البحر الأبيض المتوسط . وانجرفت السفينة الكبيرة تحت الأمواج ، وقد غاص قاع السفينة أولاً في حين اتجه مقدمها شرقاً في اتجاه اليونان . وتمشمت مقدمة السفينة وما عليها من قرة الضباط على صخرة بارزة في جراند كونجولويه أثناء غرقها . ومالت بزاوية ركزت بمقدمتها على الصخرة على عمق ١١٢ قدماً ومؤخرها على عمق ١٤٠ قدماً — وفي أثناء غوصها اشتبك الهاب مع جزء بارز من الصخر على بعد ٦٥ قدماً من السطح وبقي هناك .

أى حزن عم ديولوس عندما علم ماركوس سيستيوس بفرق سفينته في البحر ! أى حداد وجذب الشعر ! وكم من الأسنان الرومانية صرت ولكن بدون جدوى ! ولم تكن الآلهة رحيمة بماركوس سيستيوس ، ففي يوم واحد ضاعت كل ثروته .

وجالت الحيوانات البحرية في السفينة الغارقة ، وهاجمتها الديدان ، ولكنها لم تتمكن من قضم الخشب بسبب طبقات الرصاص العميقة التي كانت تملؤه بسمك ستة عشر بوصة — ولكن فيما بعد عندما تفكك الغطاء الرصاصي ، وعندما بدأت المسامير النحاسية تتحلل من أملاكها ، بدأت الديدان وليتها .

وجاء الإسفنج وجاءت قنافذ البحر لتعيش على الحطام الذى سرعان ما غطته طبقات من الوحل والرواسب الطينية التى نتجت من تفتت من جدران الصخور الحجرية المحيطة به . واتخذ الأخطبوط من الجرار المكسورة مأوى له . وبدأ الحطام يختفى تحت الغلاف المكون من الطين والكائنات البحرية .

ومع ازدياد وزن الغلاف الخارجى بدأ ظهر السفينة يهوى تحت ضغط شحنته الثقيلة . وبعضى القرون بدأ يتهاوى ظهر السفينة وهيكلاها ، وبدأت الشحنة تملص من قبضة السفينة ، وانفجرت الجرار الإغريقية والصحاف الإيطالية من أحد جوانب السفينة ، وانسابت إلى الأعماق تحت ضغط شحنته الثقيلة .

وبعد انقضاء ما يقرب من خمسة عشر قرناً على غرق السفينة ، أفلتت أحجار كبيرة من جران كونيولويه وسقطت فى المياه . وقد رسى ثلاثون حجراً ، وكان أكبرها يزن إثني عشر طناً ، عند أنقراض السفينة الغارقة . وقد خفف الماء من تأثير التصادم الذى حدث عندما رست هذه الأحجار . وهذا ما جعل تفادى تحطيم أى آنية من الأواني ممكناً . وساعدت هذه الأحجار على إخفاء أنقاض السفينة الغارقة بعيداً عن الأنظار . ونتج عن ذلك أنه لم يكن ثمة شئ يرى سوى رابية طينية كبيرة الحجم فى قاع البحر على شكل تل يغطى منطقة تتباغ مساحتها عشرة آلاف قدم مربع . وتناثرت هنا وهناك أوان قليلة العدد ، وبضع شظايا من صحاف مكسورة اتخذت طريقها بين طبقات الطين .

وهكذا ظلت خور ماركوس سيستيروس مخفية فى قاع البحر ، وبقيت آلاف من جرار الخمر — أعرق خمر فى العالم — مدفونة وقد تراكم فوقها ما تجمع من طين وبحار طيلة ألفين من السنين .

ثم كان أول من اصطدم بأنقاض سفينة ماركوس سيستيروس الحملة بالبحور

وهو غواص حر يستعين بالرئة المائية ويسمى « كريستيانيني ». كان كريستيانيني يحصل على رزقه من التنقل هنا وهناك تحت الماء بعيداً عن مرسيليا ، لكي يلتقط قطعاً من المعدن الحردة مما يمكن بيعه على الشاطئ . وذات يوم مكث كريستيانيني طويلاً تحت الماء ، ثم خرج من الماء بسرعة ودار على عقبه . لقد شلت ساقاه عند الركبتين .

وحمل إلى مركز جماعة الأبحاث تحت الماء التابعة للأسطول الفرنسي في طولون لإسعافه وعلاجه .

وهناك ، وضع الأطباء الغواص المنكود في حجرة من العصاب لكي تكون بمثابة للضغط تحت الماء . وبيطء زادوا الضغط داخلها — بينما كانت فتايق النيتروجين تخرج من جسمه . واستطاع الرجل أن يعيدش وإن بترت أصابع قدميه ، وقضى ستة أشهر في مستشفى طولون . وكان فردريك دوماس من بين من زاروه في المستشفى ، وكان عضواً في « جماعة البحث عن الآثار تحت الماء » وزميلاً للكاتبين جاك إيف كوستو . وشعر الغواص الكسبيح — وهو يعاني من الوحدة — شعر بامتنان كبير لشركة دوماس ، حتى أنه قال له في يوم من الأيام « هل تعلم يا دوماس أننا نحن الغواصين لانبوح بأسرارنا قط — ولكنني عاجز عن النزول إلى البحر مرة أخرى — ولذا فأريد أن أبوح إليك بهذه الأسرار » .

وهذه « الأسرار » التي أراد كريستيانيني أن يفشيها كان أغلبها يدور حول جراد البحر ، إذ يبدو أن مستعمرة من جراد البحر العملاق قد استوطنت بجانب الصخرة في أسفل جران كونجوليه . واعتقد كريستيانيني أن في إمكان غواص سعيد الحظ أن يجمع ثروة طيبة من جمع هذا الجراد في شبكته .

وسأله دوماس « وكيف أستطيع الحصول عليه ؟ » .

« هذا أمر سهل . فهناك منحني حجري طبيعي على عمق مائة قدم بعيداً عن اللسان الغربي للجزيرة . هناك مكان ستجد فيه كمية كبيرة من الجرار القديمة تبرز من بين الطين . عليك فقط أن تتابع طريقك إلى أعلى فتري جراد البحر » .

لم تكن لدوماس رغبة خاصة في كسب المال عن طريق صيد الجراد — ولكن ماذا عن الجرار القديمة التي تبرز من الطين ؟ ألا يمكن أن تكون أواني أثرية ؟ ربما !

فالأواني تعني غرق سفينة ، ومن ثم فقد تحمل معها كاشفاً أثرياً ضخماً . وقد سبق لدوماس في عمليات غوص كثيرة سابقة مع كوستو وتايبيه أن وجد أواني في قاع البحر ، وكانت في أغاب الأحيان علامة على سفينة غارقة . ويبدو أن سفن الخمر الإغريقية والرومانية كانت تصادف قدراً كبيراً من سوء الحظ في القرون التي سبقت ميلاد المسيح .

إذن لابد من تنظيم حملة بأية كيفية : فاستخدم كوستو ورفاقه سفينة الأبحاث الخاصة بهم « الكاليسو » ، ووضعوا في صيف ١٩٥٢ خطة للكشف عن سفينة غارقة عرف أنها موجودة على بعد من جزيرة « مير » المهجورة الواقعة في البحر بالقرب من برسياليا . وقرروا إلقاء نظرة على المنطقة القريبة من جران كونجولويه القريبة منهم ، ليروا ماذا إذا كانت « الجرار » التي تحدث عنها كريستيانيني موجودة بالفعل .

فالتجهوا إلى جران كونجولويه في أغسطس عام ١٩٥٢ ، وكان الأستاذ «فرناند بنوا» رئيس متحف الآثار برسياليا يقف جنباً إلى جنب على ظهر السفينة مع الغواصين لكي يقدم رأيه كخبير في أي شيء يمكن اكتشافه . ورسّت السفينة كاليسو بعيداً عن جران كونجولويه على مسافة عشرة أميال من الشاطئ ، على صخرة طولها خمسمائة قدم وعرضها ٣٢٥ قدماً .

وارتدى ذوماس الرثة المسائية ثم نزل إلى قاع البحر ، ولم يواجه أية مشقة في تهديد موضع منحني الحجر الجيري الذي تحدث عنه كريستيانيني . ولكنه لم يجد إلا الأواني ولا جرار البحر — فهل كانت مجرد خيالات اختلقها خيال رجل مريض ؟ -

ونزل كوستو إلى البحر ، وقد عزم على السباحة نحو الجنوب حول اللسان . وتوغل في أعماق البحر حتى وصل إلى عمق ٢٢٠ قدماً ، ولكنه لم يجد أى أثر لأقراض سفينة غارقة ، ثم قفل راجعاً مرة أخرى حول اللسان وبينما بدأ يستسلم لخيبة الأمل هو والانفعال ، صادف فجأة جرة واحدة على عمق مائتي قدم تحت البحر .

وبطبيعة الحال فإن جرة واحدة لا تعنى أقراض سفينة غارقة ، إذ ربما سقطت من على ظهر سفينة أثناء هياج البحر منذ عشرين قرناً . وثبت كوستو الآنية في الرمال كعلامة طريق . وبدأ في الصعود فقد مكث تحت البحر لفترة طويلة على عمق كبير ، ولا يستطيع البقاء على عمق مائتي قدم أكثر من ذلك . وفي طريقه إلى سطح البحر تعثر بأقراض السفينة الغارقة على عمق مائة وأربعين قدماً . . . ورأى جرار كريستيانيني — عشرات من الجرار تمد رقابها من خلال الطين ، وصحاف منشورة حول المكان . ولم يكن لديه أى وقت لكشفه ، فقد كان من الخطورة بمكان أن يبقى كثيراً تحت الماء عند هذا العمق ، واختطف بسرعة ثلاثة أقذاح للخمر وخطافاً برونزياً أكله الصدأ ، ثم واصل طريقه إلى السطح .

وصبق الأستاذ بنوا عندما رأى الأقذاح التي سلمها له كوستو ، وتعرف عليها في الحال . فهي أقذاح إيطالية يرجع تاريخها إلى الفترة من ٢٠٠ — ٤٠٠ قبل الميلاد إذ سبق له أن حفر عن الكثير من الأقذاح التي تشبهها تماماً في المجموعة الإغريقية القديمة في بروفنس . .

وتبخرت كل الأفكار التي كانت تدور حول الكشف عن أقراض السفينة

الفارقة في جزيرة «مير» - فقد وجدوا هنا شيئاً ذا أهمية كبرى - ويرى الأستاذ بنوا: أن هذه الأقاوض هي لأقدم سفينة شحن تم اكتشافها حتى وقتنا هذا

وساد جو مثير على ظهر الكاليسو خلال الأيام التالية ، وكان على ظهرها فرقة من خمسة عشر غواصاً ، فاستمر صغورد ونزول أفرادها بصورة مستمرة ، وهم يحملون الجرار القمخارية القديمة ، وامتلاً الكاليسو بمئات من الصحف والجرار ، وأخلى كل ما كان فيها فوق الراية ، وبدأ الغوصون يحفرون طبقات الطين ، ولكنه كان جامداً كالأسمنت ، ولا يمكن شد الأشياء المدفونة فيه بالأيدي المجردة إذ تنكسر الجرات عند محاولة تخليصها عنوة ..

ثم تضاعفت المتاعب ببدء « المنزل في ذلك العام مبكراً شهرين : « والمنزل » عاصفة هوجاء جافة تهب على مرساينا وطولون في الخريف ، ولكنها في عام ١٩٥٢ بدأت في أغسطس ، فغيرت الريح المياه ، وأخذت الكاليسو تمايل في الماء متعلقة بجبالها ومع ذلك لم يهتم الغطاسون على عمق ١٤٠ قدماً بالحاصفة على السطح ، وإن كان من الممكن انقلاب سلة مملوءة بالجرات الأثرية في البحر عند تمايل السفينة من جراء العاصفة كما أنه كان من الممكن أن تنشم السفينة بموجة عاتية ، نظراً لثقلتها في الصخر ..

فبنى مهندسو الجيش رصيفاً على الشاطئ لحماية السفينة استخدم كقاعدة لهذه العمليات ونقلوا إليه كافة الأجهزة والماكينات ، وبنوا منزلاً صغيراً ليكون مركزاً للحملة ..

واستخدم المنقبون لنزع الطين الذي يغطي سفينة الشحن مضخة شافطة كبيرة مثبتة على سارية خشبية طولها ٨٥ قدماً ومثبتة على الجزيرة ، وكان الهواء المضغوط يشفط الطين المتجمد ، بالإضافة إلى الجرات وقطع الخرف ، وينقلها للسطح ، حيث

تفصل الجرات عن الطين ومياه البحر بواسطة شبكة كبيرة بسرعة ١٢. جالون في الدقيقة ، ومراقبة اثنين من علماء الآثار للكشف عما تخرجه المضخة من أشياء ثمينة ..

ومن الطبيعي أن المضخة حطمت بعض الجرات ، وكان الغطاسون يشغلون المضخة على عمق ١٤٠ قدم ويوجهون قنحتها نحو مجموعة من الصخون والجرات التي تسد أحيانا فتحة المضخة فيضطرون لتكسيرها بشا كوش . ونظرا لأنه لا يمكن البقاء على عمق ١٤٠ قدم تحت الماء فترة طويلة ، لم يمكن العناية في تنظيف المضخة وبالتالي فإن تحطيم عشرات من الجرات لا يمثل خسارة كبيرة بالنسبة لمحاولة السفينة التي تبلغ ١٥ ألف قطعة من الخرف على الأقل .

ولم ينكر الكابتن كوستو أن تحطيم قطعة أثرية هامة خسارة كبيرة ، إذا لم يستخلص من الأعماق إلا جرة واحدة تحوى نبيذا وعشرين جرة أخرى مسدودة بغطاء داخلي مغطى بالملاط ، إلا أنها جميعاً فيما عدا واحدة منها فقط كانت مثقوبة عند العنق . ويبدو أن البحارة كانوا يشربونها سرا ، ويعتقد الكابتن كوستو أن هذا ربما كان سبب غرق السفينة . ولكن جرة واحدة فقط كانت سليمة بمحتوياتها . ونظرا لأن أعضاء الحملة كانوا يعتقدون في ذلك الوقت أنهم سيعثرون على كثير من الجرات المملوءة فإنه من الممكن فتح واحدة منها وبالفعل نزعوا غطاء الجرة وصبوا لثرا من النبيذ وملاً كوستو وفرديناند لاليماندا كاسين لنفسيهما ورفعاهما ليشربانها . وسرعان ما بصق لاليماندا النبيذ على ظهر السفينة أما كوستو فقد تمكن نظرا لقوته من ابتلاعه رغم أنها لم تكن تجربة سارة — وقد كتب كوستو يقول « لقد تذوقت بذلك كل ما في عالمنا من عفونة وقدم . لقد تحلل هذا النبيذ الإغريق وإن كان غير مالح المذاق . وفي الشهور التالية وبعد آلاف من الغطسات لم نجد جرة أخرى تحوى بقايا نبيذ وقد لا تكون هناك جرة أخرى . وكان الواجب تسليم الجرة الأثرية

دون نزع غطائها في صندوق مفرغ الهواء إلى أحد المعامل حيث يمكن للاخصائيين تحليل هذا النبيذ البالغ قدمه ٢٢٠٠ سنة تحليلاً دقيقاً .

واستمر الغطاسون رغم ازدياد عنف العواصف في الخريف . وتعلم كوستو من خبرته إنه يمكن للغطاس أن يكمل دورة في مدة ١٧ دقيقة في القاع دون الحاجة للتوقف لتخفيف الضغط خلال صعوده للسطح . وهكذا كان يكمل كل غطاس دورة طولها ١٧ دقيقة ، ثم تطلق رصاصة إشارة إلى ضرورة صعوده للسطح ، بالإضافة إلى ٥ أو ٦ دقائق أخرى تستغرقها عملية الصعود بسرعة ٢٥ قدماً في الدقيقة ، وهي مستوى السرعة المأمونة . ويسمح للغطاس بدورتين أو ثلاث فقط في اليوم ، لأن العمل في الظلام على عمق ١٤٠ قدم وفي درجة حرارة ٥٢ يتعب العقل والجسم .

وقد استرعى نظرهم جميعاً ملاحظوه من أن كل الجرات التي فقدت أغطيتها قد غدت مملوءة بالحصى والحار البحري وقطع الخزف المكسور . فاذا ما عزی دخول هذه القطع في الجرات الملقاة على جانبها إلى حركة الماء ، فكيف يفسر وجودها أيضاً في الجرات المنتصبة التي يصعب دخول قطع الخزف فيها ؟

وسرعان ما انكشف هذا السر عند ملاحظة أن كل الجرار التي وصلت للسطح تقريباً كانت تحوى أخطبوطاً ، واكتشف أن الأخطبوط ذا الأرجل العديدة قد اتخذ من هذه الجرات مسكناً له ، وسحب معه أعداداً من الحصى والخزف ليسد بها أبواب مسكنه .

كذلك شفت المصنعة أشياء متعددة: سكاكين من البرونز ، وخواتم ، وخطاطيف ، وصحون ، وقدر ، ثقالة سنانير . وأغلبها أحدث من حطام السفينة هتدها الصيادون عبر القرون عند اصطيداهم بالقرب من الكونجولا العظيم . وكما

تعمق الغطاسون في حفر طبقات الطين التي تغطي حطام السفينة كلها وجدوا خزفاً إيطالياً يحمل بقايا طلائه الأصلي . وقد ذكر عالم الآثار لاليمان أنه يأمل أن يسعده الحظ بالعثور على بضع صحون سليمة لم يبيل طلاؤها . وسرعان ما أجابه ديماس ذو النكتة الحاضرة إلى طلبه فغطى إحدى القدر القديمة بورنيش أحذية أسود ، وأضافها إلى مجموعة الخزف التي يكشف عليها لاليمان . وعند رؤية القدر السوداء اللامع صاح لاليمان بسرور : « لقد وجدتها ، ولكن سرعان ما انقلب سروره خيبة أمل عندما تلوث يديه بالورنيش . وتحققت أمنية لاليمان بعد ذلك ، عندما وجد الغطاسون في الطبقات الدنيا من حطام السفينة الآلاف من الصحون الإيطالية السوداء لم يؤثر الزمن في طلائها اللامع .

ثم كادت مأساة أن تنهى الرحلة في شهرها السادس ، إذ استأجر كوستو غطاسين جديدين لهما خبرة كافية في الغطس تحت الماء — وفي أحد أيام نوفمبر تحركت بعد عاصفة شديدة إحدى العوامات الرئيسية التي تعلم المكان بمسافة ٥٠٠ ياردة عن مكانها ، وتطوع أحد الغطاسين الجدد ويدعى بيير سرفانتى للنزول . ومعرفة ماجرى .

ورجع سرفانتى بعد فترة طويلة قائلاً إن سلسلة العوامة قد انكسرت تحت الماء واختفى الخطاف ، بينما انسحبت السلسلة في الماء تاركة أثراً ، واقترح سرفانتى متابعة هذا الأثر حتى يجد الخطاف المفقود .

وقد وافق كوستو على نزول سرفانتى مرة أخرى ولكنه حذره قائلاً « خذ حذرك ، إنها مياه عميقة وقد لا تجد الخطاف من غطسة واحدة » . ثم أعطاه عوامة صغيرة ليأخذها معه ، ليتركها كعلامة عندما يشعر بالتعب ، فيمكن لغطاس آخر بالبحث عن الخطاف عند هذه النقطة التي وصل إليها سرفانتى .

وغطس سرفانتى فى الماء ، ولكنه لم يعد بعد ١٠ دقائق ، ولاحظ المراقبون أن قناعات جهاز التنفس لم تعد تظهر عند السطح . وبسرعة لبس واحد من أحسن الغطاسين ويدعى ألبرت فالكو جهاز التنفس ونزل إلى الماء حيث وجد سرفانتى فاقدًا الوعي أبيض الوجه على عمق ٢٢٠ قدماً . وقام فالكو واثنين من الغطاسين بسحب سرفانتى للسطح حيث وضع فى غرفة الطوارئ بالسفينة ، بينما أسرعت الكاليسو نحو مارسيليا . وبعد خمس ساعات من التنفس الصناعى فى غرفة الطوارئ . الكبيرة بمستشفى مارسيليا مات سرفانتى فى الليل . إذ كانت غيبوبته تحت الماء ممتة .

وساد الحزن الحملة وفكر كوستو فى وقف الرحلة ، ولكن ريمون لنتزى صديق سرفانتى طالب بمتابعة العمل ، فقرروا الاستمرار ، ووجد كوستو بنفسه الخطاف الذى كلف سرفانتى حياته .

وفى ديسمبر هدمت الريح العالية رصيف العمل المبنى على الكونجولا العظيمة ، وألقت بالكثير من أنابيب الهواء وأجهزة التنفس فى البحر . ولكن الرجال عملوا طول الليل وتمكنوا من إنقاذ المضخة والسارية التى يبلغ طولها ٢٥ قدماً ، ثم تمكنوا بعد ذلك من تحديد مكان الأشياء التى سقطت فى الماء . وكان لابد من بناء رصيف جديد ومركز للحملة ، فبنوا منزلاً صغيراً من الصفيح الأصفر به سراير لثمان أشخاص وشرقة من الحجر زينها الغطاسون بالجرات الأثرية وبقيت الحملة فى هذا المنزل طوال الشتاء تجمع الجرات والصحون الأثرية بطريقة روتينية ممتة . ومر عيد الميلاد ، وحلت ليلة رأس السنة بعد أربعة شهور من العمل ، واقترح أحد الغطاسين مازحاً فى أحد حفلات ليلة رأس السنة أن يستخرجوا من الماء أول جرة فى عام ١٩٥٣ ، فأعجب الجميع بالفكرة . وعند منتصف الليل تحدث مجموعة من الغطاسين برودة الشتاء القلسة ونزلت نحو حطام السفينة لاستخراج الجرة المطلوبة .

وانتهى فصل الشتاء وأدفأت أشعة الشمس الكونجولا العظيمة ، وازدهرت .
 أنهار الزبيع على الضخور العالية ، وخرجت التماسيح تتشمس على السطح ، ومع ذلك .
 استمر الغطاسون في عمليات الغطس حتى وصل عدد الجرات الأثرية التي إلى ١٠٠٠ -
 ١٥٠٠ . ٢٠٠٠ جرة . وفي ١٥ مايو ١٩٥٣ وصل الغطاسون إلى قاعدة السفينة
 الخشبية ، وعرفوا من حجمها أن السفينة الغارقة أكبر كثيراً مما كانوا يتعودون ،
 وأنه من الممكن أن يصل عدد الجرات إلى الآلاف العديدة ، وكلما استمر الحفر
 كلما تمكنوا من استنتاج تاريخ السفينة من طريقة ترتيب حوتها ومن أنواع
 الجرات التي عثر عليها .

وكان الغطاسون يحبون تدبير مقالب لعلماء الآثار . وكان لاليماندا يعتقد .
 أن حطام السفينة قد يحوى عملات قديمة . ولذا فقد وضع الغطاسون الأسقياء .
 عملات حديثة من الألونيوم في أنبوبة الشفط لإثارة دهشة لاليماندا الذي كان .
 يراقب ما تخرجه الأنبوبة على الشاطئ .

ومرة أخرى أرسلوا أخطبوطاً حياً صغيراً خلال الأنبوبة ليخرج عند قدمي .
 عالم الآثار . وكانت تسلية الغطاسين المفضلة هي إدعاؤهم بإطفاء سيجارة في أحد
 الصحون الأثرية لمشاهدة أثر ذلك على وجه أقرب عالم آثار .

ووجد الغطاسون عند حفرهم في الطرف الغربى لحطام السفينة صحنًا من
 الرخام سودة من الدخان ، وقد تكون أدوات طهى البحارة . ووجدوا أيضاً .
 ماسورة من الرصاص طولها عشرات من الأقدام وقطرها ٣ بوصات بها ثقب .
 للوصلات ، وقد تكون على حد قول علماء الآثار جزءاً من جهاز لتوصيل المياه .
 في جناح قائد السفينة .

واكتشف خلال الربيع خطاف السفينة الذى انفصل عنها عند الغرق
 : فى صخرة على عمق ٦٥ قدماً ، وقد تآكلت أجزاء الخطاف الخشبية ولكن بقي
 عمود الرصاص وقاعدته وتمكن علماء الآثار من إعادة بناء هيكله الأصلي ،
 فوجدوا أنه بينما يتقل الخطاف الحديث عند القاع ، فإن هذا الخطاف القديم يتقل عند
 الرأس . وكما يشرح الكابتن كوستو « إن هذا ضرورى نظراً لأن القدماء لم
 يكونوا يستخدمون سلاسل حديدية بل يثبتون الخطاف بالحبال فمن الممكن أن
 تفك الرياح العقد التى تربطه بالخطاف ، إذ لم يثبت عند رأسه . وتعتقد السلاسل
 الحديثة عقدة مزدوجة حتى فى حالة الضغط الثقيل ليكون الضغط على الخطاف
 عمودياً ، وبذلك فليس هناك ضرورة للنقل عند الرأس . »

وقد سبب إلقاء أجزاء السفينة الخشبية مشاكل عدة للغاسين . فقد كانت
 ألواح الخشب المصنوعة بمهارة من أشجار الصنوبر والأرز والبلوط تبدو فى حالة
 جيدة عند الكشف عليها فى القاع ، ولكنها سرعان ما تتفتت عند اللمس ، فقد
 أكلت منها ديدان البحر عبر ألفين من السنين وشقت لها سراديب ؛ وأصبح
 رفع قطعة كبيرة من هذا الخشب عملية معقدة لأن الخشب عند ما يصل إلى السطح
 ، ويخف ، ينكش إلى حوالى ثلث حجمه الأصلي .

وكثيراً ما ضاعت فى الأيام الأولى لعلم الآثار أشياء هامة بهذه الطريقة ،
 نظراً لعدم معرفة علماء الآثار بكيفية المحافظة عليها . وتجد إشارة إلى ذلك فى سجل
 لعمليات الكشف الأثرى خلال القرن التاسع عشر فى مصر وآسيا الوسطى جاء
 فيه : « وجدنا قدرة جميلة من النحاس (أو قطعة من الخشب أو البرونز) ولكنها
 : تفتتت عند تعرضها للهواء » . ويستخدم علماء الآثار حالياً الوسائل الكيميائية
 للمحافظة على الأشياء الضعيفة فتستخدم البلاستيك وغيره فى المحافظة على الأشياء

التي قد تنفتت بعد فترة قصيرة من اكتشافها ويمكن أحياناً استخدام هذه المواد الحافظة برشها بسرعة ولكن كثيراً ما يستدعى ذلك استخدام اليد والفرشة . وبالإضافة إلى القدر والجرات الإغريقية كثيراً ما أخرج الغطاسون الألاف من المسامير النحاسية المغطاه بالرصاص — وأدوات حديدية — وقطع من غطاء ظهر السفينة المصنوع من الرصاص عرفت علماء الآثار طرق بناء السفن في القرن الثالث قبل الميلاد . وأظهرت أيضاً حقيقة أخرى بخصوص أصناف الصحن والقدر والحلل المكتشفة والتي يزيد عددها عن ٤٠ صنفاً لكل منها نموذجها الخاص . وكانت مختمومة بعلامات متشابهة عند جوانبها مما يعنى أن صناعة الخزف كانت على النطاق الواسع ولم تكن حرفة بدوية . وكانت طريقة تعبئة الصحن حديثة تدل على الخبرة — إذ أنه بينما تحللت صناديق التعبئة الخشبية ظلت بقية الصحن مرتبة في شكلها الأصلي حيث كانت مرصوصة بالتبادل وبزاوية قائمة بينما رصت الصحن الصغيرة داخل الصحن الكبيرة .

وليس للخزف المكتشف في سفينة ماركوس سيستيوس قيمة فنية كبيرة — إذ أنه خزف بسيط رخيص خال من الرسوم الرشيقة أو الدقيقة ، ولكن مجرد اكتشاف مخزن لهذا النوع من الخزف في حالته الأصلية تقريباً له أهمية بالغة بالنسبة لعلماء الآثار الذين يعيدون رسم التفاصيل الدقيقة للحياة في الماضي .

وقد صادفت حملة الكاليسو نفس الصعوبة التي صادفت في الماضي علماء الآثار في عمليات الكشف تحت الماء . فقد كان عدد الغطاسين من علماء الآثار صغيراً ، كما كان عدد علماء الآثار من الغطاسين قليلاً أيضاً . وإذا ما كان كوستو ورفاقه قد تعلموا بالخبرة الكثير عن علم الآثار إلا أنهم لم يكونوا في الواقع أكاديميين — ونتيجة للجهل أو الإهمال كانت هناك دائماً إمكانية تحطيم أثر.

نهام قد يبدو تافهاً بالنسبة لهم ولكنه بالغ الأهمية بالنسبة لعالم آخر . ولا يمكن لعلماء الآثار على بعد ١٤٠ قدم فوق حطام السفينة من ارتداء أجهزة التنفس لمراقبة عمليات التنقيب بأنفسهم كما يفعل دائماً علماء الآثار على الأرض .

ولكن التكنيك الحديث تغلب على هذه المشكلة فاستخدم التلفزيون ليشاهد علماء الآثار على السطح مكان حطام السفينة . الفعلي . وكان كوستو قد تدرب منذ خمس سنوات في ١٩٤٨ على استخدام التلفزيون تحت الماء .، ولكن أجهزة التلفزيون في ذلك الوقت كانت قاصرة عن تأدية غرضها إلا أنه قد بذل مجهود كبير اليوم لتوفير الأجهزة اللازمة لمثل هذه الحملة الهامة .

وقد وافقت شركة طوسون هستون الإلكترونية على إعارة كاميرات تليفزيونية وكابلات وخبراء فنيين : وصمم المهندس الفرنسي الدكتور بيير دراتز عدسة خاصة ذات زوايا متسعة للعمل تحت الماء بينما بنى أندرية لايان قمره محكمة للكاميرا ، ركب فيها مكبراً للصوت يتصل بميكروفون في غرفة المراقبة على ظهر الكاليسو لتمكين علماء الآثار من الاتصال بالغاطسين .

ويبلغ وزن الكاميرا وقرتها ٢٠٠ رطل فوق الأرض ، ولكن الهواء الموجود داخل القمرة يجعلها تطفو ، فتصبح عديمة الوزن تحت الماء ، كما تطفو أيضاً الكابلات التي تصل السفينة بالكاميرا فيخف وزنها . وقد أدار الكاميرا في التجربة الأولى غطاس يدعى إيف جيرو وأنزلها لعمق ٦٥ قدماً ، فنقلت لثقلته على السطح صورياً للسماك ولقاع البحر ، وقد نجحت الكاميرا نجاحاً كبيراً .

ثم انتقلوا سريعاً إلى « كونيولا العظيم » وحمل غطاس آخر يدعى جان دئاس الكاميرا إلى نفس عمق السفينة الغارقة وهو ١٤٠ قدماً وأدار المصاييح الكهربائية القوية التي يتكلف الواحد منها ٩٠ دولاراً ولا تصلح إلا لمدة ساعة واحدة ونظراً لشدة حرارة هذه المصاييح فهي لا تستخدم إلا تحت الماء إذ أنها تنصهر وتنفجر على الأرض في نصف دقيقة .

ونزل دئاس في الماء ورأى المراقبون على السفينة الصخور والمراوح البحرية وعندما وصل إلى عمق ١٠٠ قدم صاح أحد المهندسين في ميكروفون غرفة المراقبة « صحح عدستك يا دئاس » وصحح دئاس عدسته فأتضحت الصورة ورأى المشاهدون جسم الغطاس ريمون كنزى وهو يشغل أنبوبة المضخة في مكان حطام السفينة .

ويسأل أحدهم « نريد أن نرى هذا الطبق الذي تقف بجواره » فيحمل كنزى الطبق ويعرضه للكاميرا ثم حمل دئاس الكاميرا إلى عمق ٦٥ قدم ليقدم لعلماء الآثار أول صورة للخطاف المعقد .

وفيد التلفزيون كلاً من الغطاسين وعلماء الآثار إذ يشعر الغطاسون بالطمأنينة لأن هناك عيناً تسهر على مراقبتهم ، وتقدم لهم المساعدة السريعة عند حدوث أى صعوبات في قاع البحر ومن الناحية الأخرى فهي تمكن علماء الآثار وهم يجلسون في غرفتهم الدافئة من أن يروا بأعينهم مكان السفينة ، ويوجهون كافة مراحل التنقيب بكفاءة تفوق الكفاءة التي يقدمونها عند وجودهم مع الغطاس في القاع .

واستمر المزاح بين الغطاسين وعلماء الآثار . فقال جوربان الغطاس مازحاً

لعالم الآثار لا ليماندا « نحن الغطاسين لا نفهم لماذا نعرض حياتنا للموت في البحث عن هذه الجرات لتخفونها — في متحف ما — ولذلك سنحتفظ بأحسنها ونبيعه بثمن مرتفع . ولم تدفع يا ليماندا ثمنًا لزهرة أغريقية كبيرة مزينة بالرسومات الجميلة ؟ » .

فعندما نزل جوربا للقاع أرسل له لا ليماندا زجاجة تحوى ، فاتورة بدولار وسرعان ما يرد عليه جوربان عند تحريكه الكاميرا لي شاهد لا ليماندا الصورة ، فظهرت على الشاشة مجموعة من الصحون ، وعلى كل صحن منها بطاقة تحمل السعر ثم ظهر جوربان مقلداً تعبيرات الدلائل ليزايد لا ليماندا على الصحون . فيضحك لا ليماندا قائلاً « إن الثمن مرتفع للغاية » وحينئذ أمسك جوربان بشاكوش كبير كما لو كان ينوى تكسير الصحون ، بينما ضاعف لا ليماندا السعر ضاحكاً .

وكثيراً ما أثارت أجهزة التلفزيون دهشة الغطاسين ، وقد حمل أحدهم مرة الكاميرا عند نزوله للقاع دون أن يعرف أنها مزودة بمكبّر للصوت ، فكان في كل مرة يسمع فيها كلام واحد من على ظهر السفينة كان يترك الكاميرا ويصعد مسرعاً للسطح معتقداً أن الضغط قد أصابه بالدوار ، ولكنه سرعان ما كان يكتشف مصدر الصوت ، فيعود لأخذ الكاميرا .

وقد استخرج من حطام السفينة آلاف من الجرات الإغريقية بالإضافة إلى أعداد وفيرة من الصحون الإيطالية . وبينما كان يعمل الغطاسون في تفريغ حمولة السفينة ويحملونها إلى السطح ، كان علماء الآثار يحاولون الكشف عن تاريخ السفينة .

ولم تكن بالسفينة أية هياكل بشرية أو وثائق عن الرحلة التي كانت تقوم

بها ، ولكن علماء الآثار وجدوا أثراً واحداً : فقد كانت شفاة الجرات مختومة بحروف واحدة ، هي « م . س » يتبعها أحياناً علامة الخطاف وأحياناً أخرى علامة الصولجان ، ويعتقد علماء الآثار أنه ربما كانت هذه الحروف اختصاراً لاسم صاحب السفينة .

وتعرف عالم الآثار الفرنسي فرناند بنوا من شكل الحزف على أن تاريخ السفينة يرجع للفترة ٤٠٠ — ٢٠٠ ق م ، فراجع سجلات التاريخ الروماني حتى وجد تلك الحروف تشير إلى أسرة هامة من التجار الأغنياء ازدهرت خلال تلك القرون .

وقد ورد في كتابات ليفي المؤرخ الروماني بوجه خاص اسم أحد أعضاء هذه الأسرة ويدعى ماركوس سستيويس الذي ترك روما ليستقر في جزيرة ديلوس الإغريقية . وذكر ليفي كيف حصل ماركوس سستيويس على لقب مواطن شرف في ديلوس وكيف بنى هناك فيلاً ضخمة . وحيث أن الجرات الأثرية قد جاءت قطعاً من اليونان . وحيث أن ديلوس كانت مركزاً هاماً للسفن في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد وحيث أن حروف (م . س) المسجلة تربط الجرات الأثرية باسم ماركوس سستيويس ، وعلى ذلك فإن كل هذه الحقائق تشير إلى أن ماركوس هو صاحب السفينة سيئة الحظ التي أبحرت من ديلوس وتوقفت في إيطاليا قبل أن تلاقى حطفاً بالقرب من مارسيليا . وحيث أن ماركوس استقر في ديلوس حوالي عام ٢٤٠ ق م فإن الأستاذ بنوا يعتقد أن الرحلة المشؤومة حدثت بعد ١٠ سنوات أي حوالي عام ٢٣٠ ق م .

وبالطبع فإن ذلك كله من قبيل التخمين ، ولكن كل الدلائل تؤيد نظرية الأستاذ بنوا .

وخلال صيف ١٩٥٣ كان كوستو ورفاقه قد ملوا من عملية استخلاص

الجزرات الأثرية من الأعماق بعد أن أصبحت عملاً مملأً . فقد عقدوا العزم على نقل المشروع إلى مجموعة أخرى من الغطاسين ليذهبوا بأنفسهم إلى ديولس مقتفين طريق رحلة سفينة البنز في الاتجاه العكسي ، وللبحث أيضاً عن معلومات أخرى عن ماركوس سستيوس . وسافروا في الاحتفال الأول لبدء العمل عند « الكونجولا العظيم » .

وقد اتجهوا ناحية الجنوب وعبروا مضيق مسينا ووقفوا عنده وعند دوامة الشارييدز لأخذ صور تحت الماء ، ثم تابعوا سيرهم وعبروا بحر أيونيا الخفيف في ليلة واحدة واتجهوا نحو جزيرة ديولس في بحر إيجا .

وكانت جزيرة ديولس في يوم من الأيام مدينة مقدسة لا ترفع فيها السيوف . يحج إليها الحجاج من كل أنحاء العالم القديم للتعبّد عند مذبح أبولو . وقد كانت مدينة غنية للغاية اتخذ منها التجار من كل جنس مركزاً لمشاريعهم عبر البحار . أما اليوم فيسد الطمي ميناء ديولس الذي كان مزدهراً في الماضي وبلغت المياه الضحلة الحد الذي اضطر الكاليسو أن تلقى بمرساها في البوغاز . أما المدينة نفسها فقد أصبحت حطاماً إذ نهب الملك ميثرياديتس مدينة ديولس في عام ٨٠ ق . م وذبح ٢٠ ألفاً من سكانها وحمل معه كل كنوزها .

وأنهت غارة من القرصان ما تبقى من رخاء المدينة ، حتى أصبحت مدينة ديولس اليوم عبارة عن أعمدة محطمة وفيللات مهجورة .

وقد عمل علماء الآثار الفرنسيين في جزيرة ديولس منذ عام ١٨٧٣ . وينتمي الخمس وثلاثون شخصاً المقيمون حالياً في ديولس إلى جماعات التنقيب عن الآثار وقد توجه كوستو إلى رئيس علماء الآثار هناك ويدعى جان مركديه لطلب معلومات عن ماركوس سستيوس وسمح مركديه لكوستو بمشاهدة مجموعة المتحف التي

تحتوى آلاف القطع من الجرات الأثرية التى وجدت فى المدينة . ولكنه لم يجد على إحداها ختم أو علامة (م . س) المسجلة ولا تحمل الجرات القليلة السليمة المشابهة للجرات التى عثر عليها عند كونجولا العظيم علامة ماركوس سيستىوس .

ثم صلب عالم الآثار الغواص فى جولة بالمدينة المحطمة وسارا عبر أعمدة محطمة ومعايد مهشمة حتى وصلا إلى المكان الذى كان يسكنه صاحب السفينة الإغريق الغنى ودخلا فناء واحدة من أفخم الفيلاات .

وكانت رسوم الموزايكو على الأرض بالإضافة إلى زهرية على هيئة جرة تنتشر نحو البحر . وعثر أحد الغواصين على قطعة من الموزايكو تظهر حوت يونس مربوطاً بخنطاف مشابه إلى حد كبير للخنطاف المحفور على بعض جرات السبىس الأثرية . وبعد دقيقة أخرى أشار غواص آخر إلى قطعة أخرى من الموزايكو تمثل صولجاناً مشابهاً للصولجان المسجل على الجرة الأثرية . ثم أشار عضو آخر فى الجماعة يدعى جيمس ديجان بأن الصولجان على هيئة حرف م بالحروف الرومانية، وحرفى (م، س) على هيئة أقواس بين طرفيه .

ولكن ذلك مازال تخميناً . إلا أنه كلما زادت الأدلة بدا التخمين أكثر إقناعاً ، وقد لا تحصل إطلاقاً على ما يؤكد أن صاحب السفينة التى غرقت عند الكونجولا العظيمة هو ماركوس سيستىوس من ديولس ، ولكنه يبدو كذلك ولم تستكمل أبداً تلك الفيلا الفخمة فى ديولس . وربما يرجع ذلك إلى إفلاس ماركوس سيستىوس بعد غرق سفينته الكبيرة واضطراره إلى عدم تكلمة الفيلا .

وبرغم توجيه اهتمام كوستو ورفاقه نحو مشروعات أخرى ، فإن العمل عند الكونجولا العظيم استمر عدة سنوات . وقد استعيدت حوالى ١٠٠٠ جرة أثرية

وما زالت آلاف أخرى ترقد في القاع . فقد استعيد عدد من الجرات والصحون،
الخزفية يكفي لتكديس كل متاحف العالم عدة مرات .

وترجع أهمية سفينة النبيذ الغارقة عند الكونجولا العظيم إلى أنها أعطت
علماء الآثار فكرة عن بناء السفن عند الإغريق . ولهذا من القيمة الأثرية أكثر
مما لقيمة الجرات التي عثر عليها . فقد عرفنا أن الإغريق كانوا تجاراً وبحارة،
نشطين وإن كانوا لم يكتبوا كثيراً في هذا الموضوع . وتشهد المستعمرات الإغريقية
حول البحر المتوسط والتي تمثل اليوم فرنسا وإيطاليا وأسبانيا على تقدم السفن
عند الإغريق .

ولكن نظراً لأن الإغريق لم يتركوا أى معلومات عن صناعتهم البحرية ،
فلم يكن لدينا أى فكرة حقيقية عن أنواع السفن التي استخدموها أو خطوطهم
البحرية الرئيسية . وقد أثبتت سفينة الكونجولا العظيم أنه كانت لدى الإغريق
سفن كبيرة الحجم في حجم بوارج القرن التاسع عشر . وتعلمنا أيضاً شيئاً عن
خطوطهم التجارية وكيف أن السفن المتجهة ناحية المستعمرات اليونانية في غرب
أوروبا تقف في إيطاليا لشحن النبيذ الرخيص والخزف المنتج على نطاق واسع
ليبعه في الغرب .

وقد أيد علماء الآثار الذين يحفرون على الشاطئ ما توصل إليه الغواصون .
فمثلاً وجدت قطع من الخزف تحمل علامة ماركوس سيستوس المسجلة بعيداً عن
الشاطئ عند بورجانديا والأزاس .

ونتعلم من هذا أن مارسيليا كانت مركزاً لتوزيع البضائع الآتية من اليونان ،
كما أن مارسيليا بدايتها الحالى هو الميناء الذي كانت تدخل منه تجارة فرنسا .

إن كشف الماضى مهمة صعبة . فكثيراً ما يضطر علماء الآثار إلى تلمس طريقهم فى الظلام . ولكنهم بدأوا يجمعون بكل بطة وثقة أجزاء المعلومات المتناثرة : عن جرة هنا وعملة مدفونة هناك وجزء من آنية فخارية فى مكان آخر ، وبدأت ستائر التاريخ تنزاح بانتظام : بدأت أولاً على الأرض ، وهاهى أيضاً فى البحار ، والعمال المتحفزون يجوبون بحثاً عن خبايا الماضى . إنهم يلقون أضواء على الظلام الذى اكتنف عالم ما قبل الأمس .

الفصل الخامس

بئر المايا المقدس

قامت حضارة هندية وازدهرت في أمريكا الجنوبية والوسطى قبل الغزو الإسباني . وكانت « ييرو » تحت حكم « الإنكا » . وكان شمال المكسيك تحت حكم « الأزتك » شاربي الدماء . أما « يوكاتان » (وهى ما نعرفه الآن باسم جواتيمالا وهوندوراس) فقد كانت تحت نفوذ جنس يسمى « المايا » . وفيما عدا هذا في أمريكا الوسطى والجنوبية فقد أقامت قبائل صغيرة مثل « الأوليك » و « الميكستيك » و « التولتيك » حضاراتها .

ولقد كان ما أنجزته هذه الشعوب على درجة كبيرة من الروعة ، فلقد بنوا معابد عظيمة وطرقاً رائعة وأهراماً تلفت الأنظار . وكان فن النحت عندهم غريباً . ولكنه كان جميلاً فى خطوطه القوية . ونحتوا الأحجار الثمينة مثل حجر اليشم ، وعملوا منه أدوات دقيقة للزينة وكذلك مصوغات من الذهب الخالص .

وقد ألقى الأسبانيون حضارات هذا العالم الجديد . فداروا يسلبون وينهبون ويقتلون ويخربون باسم المسيحية . والواقع أنهم كانوا وراء ثروات البلاد . ووقع « مونزوما » ملك الأزتك و « أناهولابا » حاكم الإنكا وكذا الكهنة والعلماء من جميع الحضارات ضحايا لجشع الإسبان . وانهزم أيضاً شعب المايا . ولكننا لا نعلم حتى أسماء قوادهم .

ولكن لم يختف الأزتك ولا الإنكا ولا المايا من على وجه الأرض . فما زالت دماؤهم تسرى فى عروق آلاف الهنود فى وسط أمريكا وييرو ، وما زالت

اللغة القديمة مستعملة في بعض الأماكن النائية ، وقد دالت وانتهت أزمان حضارات
بناء المدن العظيمة ، وأصبح شعب الأزتك والمايا من الفلاحين الجهلة بشكل
يرثى له ، حتى أنهم لا يعلمون شيئاً عن منجزات أجدادهم العظيمة .

فقد ابتلعت الغابات المعابد والأهرام ، وضاع كل ما قامت به الأجناس
الهندية العظيمة في نصف الكرة الغربي في طي التسيان وانتهى حتى كآساطير .
وعمل الإسبان على طمس أية آثار تدل على ذكاء ومقدرة الأزتك والإنكا والمايا
أو ما يشير إلى عظمتهم . وتسالت الكروم والنباتات المتسلقة وأحاطت
بأبنيتهم الملهمة .

وبدأ المسافرون في القرن التاسع عشر ، يتوقفون عند هذه الآثار التي ابتلعها
الغابات ، وبعد ذهولهم واستغرابهم لأول مرة فانهم سرعان ما كانوا يزيحون
لأوراق الأشجار جانباً ليروا أسفلها روائع الأشياء . وقد ذكرت في كتابي « المدن
المنقودة والحضارات التي انمحت » كيف وجد سائح أمريكي متجول ويدعى
« جون لويد ستيفنز » — مدينة كوبان الماياوية منذ حوالي ١٢٠ عاماً مضت .
وكيف أن تقريره عن الأطلال التي وجدها دفع حملة للبحث عن الآثار لاكتشاف
المدينة الماياوية التي لا زالت مطمورة .

ويعتبر « إدوارد هربرت طومسون » الأمريكي من أعظم المستكشفين الذين
استكشفوا منطقة الماياس ، وقد ولد في نيو إنجلند في أواخر القرن التاسع عشر .
« طومسون هو الذي اكتشف البئر المقدس بأرض المايا ، وقام بنجاح باكتشاف
خليق يقي لسنين طويلة هو الإنجاز الوحيد العظيم في تاريخ علم الآثار تحت المائبة .

كان « إ . ه . طومسون » في طفولته كثير التساؤل والانتباه ، كما كان
مهوراً بالتاريخ . وكان كثيراً ما تصادفه رؤوس سهام هندية ملقاة على الأرض

أثناء تجواله فى الغابات القريبة من منزله ، فكان يضمها فى مجموعاته وغالباً ما كان يمتلكه العجب والتساؤل عما كانت عليه قارتى نصف الكرة الغربى قبل حكم الرجل الأبيض .

وفى سن المراهقة ، صادف طومسون الكتاب المدهش الذى كتبه « جون توليد ستيفنز » وعنوانه « حوادث رحلة فى أمريكا الوسطى وتشياباس ويولانتان » . وفيه وصف ستيفنز مغامراته فى غابات أمريكا الوسطى واكتشافه مدن المايا التى غطتها الكروم وعفى عليها النسيان . وحتى ذلك الوقت لم يكن طومسون يعرف عن الهنود سوى أولئك الذين يسكنون أمريكا الشمالية ، وهم صيادون بسطاء وصيادوا أسماك لا يبنون بيوتهم إلا من الخشب وجلود الحيوانات . فى هذا الكتاب يشير « ستيفنز » إلى مدن حجرية شاسعة فى الغابات ! .

وتساءل طومسون متعجباً « هل من الممكن أن ينتسب هؤلاء الهنود من بناء المدن إلى هنود أمريكا الشمالية ؟ » وقرر استحالة ذلك . إن أولئك الذين بنوا المدن العظيمة فى أمريكا الوسطى لا بد أن يكونوا جنساً عظيماً يختلف كلية عن الرجل الأحمر بأمريكا الشمالية .

ثم تساءل من هم إذن بناء المدن ؟ ؟

ووجد طومسون إجابة على ذلك السؤال . وكانت له نظرية — لا يمكن أن ننظر إليها الآن بعين الجد وقد يكون فيها شيء من الحقيقة ، ولو أنها — خيالية بعيدة عن الحقيقة : فقد اعتقد طومسون أن المايا فرع بقى من شعب الأطلانتيس — وهى القارة الخرافية المفقودة كان يظن أن البحر قد غمرها .

ووضع طومسون أفكاره فى مقالة بمجلة سنة ١٨٧٩ عنوانها « أطلانتيس

ليست خرافة « ومضمونها أنه عندما واجبت أطلانتيس مصيرها فان شعبها أو جزء منه على أية حال هرب إلى العالم الجديد ، وبنى مدنه حيث نشأت الآن نيو مكسيكو وهوندوراس .

ولقد كانت هذه فكرة جريئة جذبت أنظار الكثيرين في الولايات المتحدة . وحي وطيس المناقشة بين مؤيديها ومعارضها . أما الرجل الذى بدأ المناقشة فلم يرغب إلا فى أن تتاح له فرصة الذهاب إلى وسط أمريكا ، وأن يرى هذه الأطلال للشاسعة بنفسه وأن يكتشفها بأمل العثور على بعض الأدلة التى تعزز أو تنقض نظريته عن أطلانتيس .

وقام أصدقاء طومسون بمساعدته لبلوغ هدفه . وقد أمدته الجمعية الأمريكية للآثار ومتحف ييبودى بجامعة هارفارد بالمساعدة . وتمكن طومسون تحت رعاية هاتين المؤسستين من الحصول على وظيفة بقنصلية الولايات المتحدة فى يوكاتان . وكان سفر طومسون إلى أمريكا الوسطى كمسافر دبلوماسى شبيه بقصة جون لويد ستيفنز الذى مول بنفسه بعثته إلى أراضى المايا منذ حوالى أربعين عاماً عن طريق الحصول على وظيفة دبلوماسية من الرئيس مارتن فان بارن .

وفى خلال كتابة طومسون لمقالته عن أطلانتيس وقع فى يده كتاب قديم كان له تأثير خاص فى نفسه بعنوان « تقييم الأشياء فى يوكاتان » كتبه ديجو دى لاند (١٥٣٧-١٥٧٩) وهو أسقف يوكاتان .

« ودى لاند » هو أحد رجال الدين الذين أتوا إلى العالم الجديد فى القرن السادس عشر لنشر المسيحية بين المهججين حتى لو اقتضى الأمر قتل أى من السكان المحليين إذا رفض تعاليم المسيح الطيبة . ولم يجد ديجو أى تعارض بين كلمة المسيح وطرقه هو القاسية الخاصة فى تحويل الناس إلى المسيحية .

أحسن دى لاندأ أن أحسن طريق لاعتناق المايا المسيحية يكون بالقضاء على مدينتهم الوثنية . وكانت إحدى طرقه الذى نفذها هى أنه فى يولية سنة ١٥٦٢ جمع الكثير من كتب المايا عن الطب والتاريخ والفرائض الدينية والاحتفالات والفلك وغير ذلك وحرقها . وكتب دى لاندأ بارتياح لما فعل « لقد جمعنا كل كتب الوطنيين التى وجدناها وأحرقناها مما سبب أسفهم وحزنهم » . وكنتيجة لهذا العمل الهدام ، لم يفلت سوى ثلاث كتب لازالت باقية حتى اليوم .. أما كل تاريخ وثقافة هذا الشعب العظيم فقد طمست تماماً بحرق تلك الكتب .

ولكن دى لاندأ لم يكن عدواً « تماماً » للمعرفة . فمع أنه قضى — فى غمرة تهمسه الدينى — على ثقافة قيمة لشعب بأكمله — إلا أنه عمل على تسجيل بعض تفاصيل حياة المايا (طريقة كتابتهم الهيروغليفية ، وحسابهم للزمن ، وعاداتهم وطرق معيشتهم) فى مخطوط يدوى .

وذكر دى لاندأ فى أحد فصول كتابه « تقييم الأشياء فى يوكاتان » مدينة « تشيتشان إيتزا » التى تحتوى على بئر كان كهنة المايا يدفعون فيه قرابينهم للآلهة . وكتب دى لاندأ « يمتد طريق أنيق حتى يصل إلى البئر . وكان من عاداتهم — ولا زالوا — أن يقذفوا رجال أحياء إلى البئر كقرابين للآلهة فى وقت الجفاف . وكانوا يعتقدون أنهم لن يموتوا — ولو أنهم لم يروهم أبداً بعد ذلك . وكذلك كانوا يقذفون بأشياء أخرى ، كالأحجار الكريمة والأشياء التى يقيمونها . وعلى ذلك فلو كان فى تلك البلاد ذهب لكان فى ذلك البئر الجزء الأكبر منه » .

ولا بد أن يكون « إدوارد هربرت طومسون » قد شعر برعدة عند ما قرأ

ما كتبه « ديجو دى لاند » عن البئر المقدس في تشيتشان إترا . وقد فقد ذلك الكتاب القديم منذ ثلاثمائة عام ولم يتم اكتشافه ثانية إلا حديثاً في ركن من الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد . وقد تنبأ طومسون بعد قراءة ذلك الكتاب بالاكتشاف العظيم الذي ربط اسمه نهائياً بمدينة « تشيتشان إترا » .

تقع « تشيتشان إترا » بالقرب من مدينة ميريدا . وقد بناها الإسبان بعد غزوهم للمكسيك . واليوم تعتبر الرحلة من المدينة الإسبانية إلى أطلال المايا رحلة بسيطة يقطعها آلاف السياح كل عام . ولكن عند ما قام إدوارد طومسون بأول رحلة له إلى المكسيك سنة ١٨٨٥ ، كانت مهمته شاقة وصعبة لكي يصل إلى تشيتشان إترا .

فقد استأجر طومسون دليلاً « هندياً » ليصاحبه من ميريدا إلى تشيتشان إترا . وكان يأمل أن تكون رحلة قصيرة . فقد استمرت رحلته عدة أيام ، أولاً بالقطار ثم عربة « القولان » التي وصفها بقوله « هذا الاختراع الشيطاني الذي لا يترك الإنسان إلا وقد امتلأ بالضرر والأورام من رأسه حتى قدمه » . وعند ما تعذر سير العربة ركب صهوة جواد . وغادر مع دليله الهندي ميريدا ناثي اعتقد أنها قريبة بحيث يمكن زيارتها دائماً أثناء عمله .

وخيم الظلام وها يتحركان ببطء في الغابة ، وسطح القمر كاملاً في المساء ، واستمرت الجياد سائرة ساعة في أثر ساعة . وكتب طومسون « وانتصف الليل ولا أدري كم من الساعات مرت بعد ذلك ، ثم سمعت صوت دليلي يتعجب باللغة الوطنية ، فانتصبت في جلستي على ظهر الجواد بعد أن كدت أغفو .

« كان دليلي أعلى الهندي يشير باهتمام إلى الأمام وإلى . ورفعت عيني كأنما يوخزني تيار كهربائي فانتبهت . هناك في مكان مرتفع وعلى ضوء القمر الشاحب

بدا شيء غير واضح كأنه معبد إغريق ضخمة الحجم على قمة جبل منحدر . بدأ
ضخماً جداً في ضوء الفجر الخافت وخيل لي كأنه حصن حصين في أعلى البحر
تتلاطمه الأمواج . وازدادت ضخامته كلما زاد وضوحه مع كل خطوة من خطوات
الجياد المتعبة . وأحسست بألم حقيقي كما لو أن قاذي قفز من صدرى ، ثم أسرعت
الخطى لتعويض ما فقدته من وقوف » .

كان طومسون يملأ عينيه بمنظر الهرم العظيم في تشيشان إثرأ لأول مرة . .
ومع أن دليله الهندى ترجل سريعاً ليرتاح ، إلا أن طومسون أراد أن يكتشف
الهرم في التو واللحظة ، فتساق بأنفاس متقطعة حافة صخرة على ارتفاع ثمانين قدماً .
وحاق في بوابة معبد الهرم والتي تباع أربعين قدماً . وتساءل « هل من العجيب .
أن ترتعش مفاصلى قليلاً إذا نظرت بإمعان خلفى فى انتظار شبح هائل لآلهة .
دنست معبده عيني ما بعد ؟ » .

ونظر طومسون حوله ورأى ما يزيد على عشرة أهرام وأبنية كثيرة بيضاء .
كالأشباح في ضوء القمر . ثم تسلل إلى طريق مرتفع واسع يمتد من المعبد إلى
« غدير اسود واسع ممتلئ بالأشجار . ولم أتمكن — وأنا جامد فى مكانى . مبهور
الأنفاس إلا أن أرى وأرى ، لأننى فى لحظة خاطفة أدركت أننى أخلق فى الطريق .
المقدس . وفى نهايته يوجد البئر المقدس حيث ترقد فى أعماقه المظلمة حتى الآن عظام
العذارى الجميلة البائسة ، اللاتى فحمن بأنفسهن لتهدة آلهة بشع . وما أكثر الكنوز
التي تفوق الوصف التي يحبها ذلك البئر المريع ! وما أكثر المأسى التي تمت .
على حافته ! » .

وبدأ طومسون يتخيل ويعيد تصور تلك المأسى : فقد تصور وهو يحملق فى .
مياه البئر القائمة ، الكهنة وهم فى أبهى حللهم المعدة للطقوس الدينية يقتربون حتى .

حافة البئر يرتلون صلواتهم ، بينما العذارى الخائفات الوجلات يقتربن من لحظات قضائهن . وتحيل طومسون كيف كانت اللحظات التي توقفت فيها الطبول والصلوات . ووقفت الضحية المقدمة قرباناً لآلهة المطر بمفردها والكاهن يشعل مواقد البخور . ثم تبدأ الطبول تدق دقات صامتة مرة أخرى ويقبض كاهنان قويان على الفتاة المدعورة متقدمين بها حتى آخر حافة البئر ويحملانها بينهما ويؤرجحانها أماماً وخلفاً على دقات الطبول ثم يتركانها لتصل إلى القاع .

وكتب طومسون « هكذا تصورت عملية تقديم القرابين عند البئر المقدس ، وهي عملية لم تتم مرة واحدة فقط ، ولكن مئات المرات خلال قرون عديدة ، وهكذا انتقلت إلى أساطير ماياوية ، ثم تعجبت وتساءلت عما إذا كان ذلك البئر العتيق البشع مازال محتويًا في قاعه المظلم على بقايا الطقوس القديمة ، وعلى كل فالقرابين كانت مجرد خرافات مبنية على بعض قصص المحاكات التي نمت ونمت في كل مرة تكرر فيها ثقلها »

ولقد كان عليه أن يكتشف : ولكن كيف يصل إلى قاع ذلك البئر الذي يبدو كأنه لا قاع له ، وليس لديه إلا أموال قليلة ، وليس لديه أية إمكانيات آلية ؟ .

ولقد كان يعرف أنها عملية عظيمة ، فالبئر واسع وعميق وهو راكد حاليًا ، ومياهه موحلة مكدسة بأقراض قرون من الإهمال ، ولذلك كان من الواجب إزاحة أطنان من الوحل والصخور وأوراق الأشجار قبل نزول أى غواص إلى البئر .

ولم يكن أمامه أى شيء يفعل وقتئذ في سنة ١٨٨٥ ، فعاد إلى الولايات المتحدة وحاول الحصول على مساعدات تمكنه من استكشاف البئر المقدس ، واشترك في مؤتمر علمي ، وأخبر كل من وجد منه أذنًا صاغية بالكنوز الأثرية

التي لا شك في وجودها في قاع البئر، فكان الجميع يهزون أكتافهم بلا مبالاة . فذهب إلى أصدقائه وحاول أن يقترح نقوداً لتمويل بعثة للاستكشاف ، ولكنهم أيضاً هزوا رؤوسهم ضاحكين . وردو عليه « لا يمكن أن ينزل أى إنسان إلى الأعماق المجهولة لتلك الحفرة المائية المهولة ويتوقع أن يعود حياً ؛ فإذا أردت الانتحار فلم لا تلجأ إلى وسيلة أقل إزعاجاً من تلك الطريقة ؟ » .

وتحمس طومسون نتيجة لرفضهم مشاركته أحلامه ؛ فإذا لم يؤيده أحد ، فسيقوم هو بنفسه بعمل كل خطوة في المشروع .

وأدرك طومسون أن هناك ثلاثة أنواع من العمليات في البئر . ألا وهي :
النزح وتطهير المياه ثم الغطس .

ومن دراسته الأولية للموضوع أدرك أن نزح هذا البئر الكبير شيء غير على بالنسبة لإمكاناته المالية المحدودة . أما تطهير المياه فهي عملية ممكنة — إذا حصل على الأدوات اللازمة .

وذهب طومسون إلى بوسطن ودرس الموضوع مع مهندس تطهير المياه ، واقترح بعض النقود واشترى ونشأ له قائمة صلبة بذراع ملوى وقضيب متأرجح يبلغ طوله ثلاثين قدماً وقادوس من الصلب . ولم يكن نقل هذه المعدات من الولايات المتحدة إلى تشيتشان إترا بالعمل الهين ، فقد تم تفرغها على بعد أميال من موقع العمل ، حيث كان من الضروري نقلها قطعة قطعة . « بمساعدة محلية فقط وبدون عربة نقل أو أى شيء مماثل يتحرك على مجل ، وعلى طريق من أسوأ ما يكون » .

وما أن تم نقل الونش إلى الموقع ، حتى بدأ طومسون يركب أجزائه مما

استلزم أياماً مليئة بالعمل المضني الشاق كان يبدو له أثناءها أن هذه الكتلة الضخمة: ستقلب عليه قبل أن يبدأ العملية .

وبدأه من المستحيل أن يطهر مياه البئر الذي يبلغ قطره ١٩٠ قدماً . وبدأ طومسون يبحث أكثر الأمكنة ملائمة وذلك بعمل تماثيل خشبية بحجم وشكل الإنسان ويدفعها في الماء ، وبذلك وجد المكان الذي يحتمل أن تكون الضحايا قد استقرت فيه ، وبدأ عملية التطهير .

فأجر طومسون فريقاً من ثلاثين هندياً لمساعدته ، وأعطى إشارة البدء ، وبدأ رجاله الموثوق فيهم يؤرجحون قضيب الونش إلى ما فوق البئر ثم يخفضون القادوس المصنوع من الصاب ، وسقط تحت سطح المياه الخضراء وهبط حتى وصل إلى القاع .

وبدأ الذراع يتأرجح ببطء عائداً إلى حافة البئر . وأعاد الهنود المتوترون الذراع الملولى وهم يلقون أمتاراً من الكابلات المبتلة قبل أن يشق القادوس سطح الماء . وكتب طومسون « وبدأت تتصاعد رويداً رويداً حتى وصلت إلى مستوى رؤوسنا ثم تأرجحت إلى الداخل وهبطت إلى المكان الذي اخترته حيث تخبر كل المحتويات القيمة بالغرفة على المائدة المليئة بالتنوعات المختارة ، بحيث لا يفلت من بين أصابعنا أى شيء ذو قيمة ولا يجب أن يتلف أى شيء نتيجة إهمالنا ، مع ضرورة معالجة أى شيء قابل للتلف بالمواد التي تحافظ عليه وهي دائماً في متناول اليد .

« إن يدى ترتعشان رغم الجهد الذي أبذله للسيطرة عليهما ، أثناء تفريغى لمحتويات الغرفة على المائدة ، لأننى إما أن أكون ذلك الفتى الذكى الذى.

تمكن من استعادة الكنوز من البئر المقدس في يوكاتان ، أو أكون أكبر
منغل في نصف الكرة الغربى .

وفحص طومسون الأتقاض وقد نشر كل جزء منها ولم يجد شيئاً ،
لم يجد شيئاً ذا قيمة . فعاق ذلك بقوله « هذه الأشياء ممكن أن تأتى من أى
بركة عادية » .

ومرة بعد أخرى دارت الكراكة وفكها يتحركان ويقبضان ثم تتأرجح
فوق المياه وتتوقف لحظة وتنزل تحت سطح الماء . وجذب العمال الكابلات
عند خروجها من الماء وقد أغلقت الكراكة فكيها على الطى والحصى .
وكتب طومسون يقول « ومرت الأيام ولم أجد شيئاً سوى بعض أوراق الأشجار
المتعفنة ذات الرائحة الكريهة وبعض الأحجار ، وأحياناً تخرج أشجار بأكلها
من الثقل بحيث تصر الكابلات المعدنية مخرجة إحداها وذلك عند تأرجح
الكراكة بثقلها تحت سطح الماء لتتخلص من أكبر جزء منها وتقليل الوزن
قبل أن ترفعها فوق الماء وتسقطها مرة ثانية في مكان آخر من البركة حيث تقع
ويتناثر رذاذ الماء » .

ومن وقت لآخر كانت تتصاعد هياكل عظمية للغزلان والخنزير البرية ،
وفى مرة كانت ضمنها هياكل جنبور أمريكى وبقرة (أى هياكل المفترس
والضحية) ويبدو أنهما سقطا معاً في البئر . واستمر هبوط وصعود قادوس
الكراكة لأيام طويلة وهى لا تخرج سوى الوحل والصخور ومزيد من الوحل .

ووصف طومسون الحالة بقوله « انهارت أحلامى الكبيرة إلى لا شىء بل
وأقل من لا شىء ... وأضررت بعناد على استمرار العمل وألا تتوقف حتى نصل
إلى القاع الصخرى للبئر ، وحاولت أن أخفى يأسى على الهنود الذين كانوا معى .

ولكنهم لاحظوا ذلك وأعتقد أنهم تعجبوا وتساءلوا إلى أى مدى سيستمر هذا الغريب المأفون يصر على غبائه ويدفع لهم أجوراً مرتفعة في نظير رفع الطين — حتى ولو استعمل كمخصب — من برءى بالطين .

وحزن طومسون وسأل نفسه « هل من الممكن أن أضيع ثقة أصدقائي وبكل هذه التكاليف الباهظة وأعرض نفسي لسخرية العالم من أجل إثبات ما أعلنه الجميع من أن هذه الأفاصيص ما هي إلا حكايات قديمة ، حكايات لا أساس لها من الواقع ؟ » .

وفي يوم بارد ممطر وغير مشجع ، ارتفعت الكراكة بما يبدو كزوج من بيض النعام سمى اللون وسط الطين الداكن ، وكانا من مادة صمغية . فبدأ طومسون يشمهما ويقضم إحداها ، وجالت بخاطره فكرة محظوظة بأن يرفع إحداها فوق اللهب . وانتشرت في الجو رائحة زكية لقد وجد « الكوبال » — بخور ماياوى .

وكتب يقول « لأول مرة منذ أسابيع نمت نوماً عميقاً وهادئاً » .

لقد حفرت الكراكة أخيراً الوحل المتراكم عبر الأربعمئة عام الماضية ووصلت أخيراً إلى طبقة الرواسب الماياوية . وبعد هذا الوقت لم تحفر الكراكة أى مرة إلا وأخرجت شيئاً هاماً .

فأخرجت الكثير من حبات البخور المستديرة والسلال المتآكلة التي كانت تحتويها في يوم ما . كذلك استخرج سكين خشبي ورؤوس حراب وأجزاء من الفخار ورؤوس رماح وصحاف نحاسية وأجراس وأجزاء من حجر اليشم وكرات من المطاط وتماثيل صغيرة وسكاكين من السبح أو الحجر الزجاجي الأسود .

وضحك طومسون عندما اكتشف أن بعض المايا قد غشوا قليلاً عند تقديمهم القرابين للآلهة . فخبات البخور المستديرة لم تكن مصممة تماماً ولكن كانت مجوفة ومملوءة بأوراق الأشجار والعصى وأشياء تافهة أخرى كبديل رخيص للبخور الصلب ، وربما كانوا يعتقدون أن الآلهة لن تلاحظ ذلك .

وحدث أن استخرجت في يوم ما جمجمة أزيل لونها وصقلت حتى أصبح لونها أبيض ناصعاً ، وبفحصها اتضح أنها لفتاة صغيرة وهو ما يتفق مع قصة الأسقف دى لانداعن القرابين البشرية ثم استخرج من الأعماق الموحلة صنادل أنيقة ثم عديد من الهياكل البشرية معظمها لفتيات وأحياناً هيكل عظمي لرجل عريض النكبين له جمجمة ثقيلة . ربما كانوا يضجون بالمحاربين كما يضجون بالعدائين . ولكن بالفحص الدقيق اتضح أن هذه الهياكل الذكورية كانت لرجال مسنين ، فربما جذبت إحدى الفتيات المذعورات كاهناً معها إلى الماء ؟ ربما .

واستمر استخراج الكنوز الأثرية لعدة شهور . كانت هناك أشياء من الذهب وبالذات أجراس صغيرة من الذهب قدسويت بمطرقة خشبية قبل قذفها في الماء . وشطرت كثير من حلل الزينة المصنوعة من حجر اليشم إلى نصفين كما لو أنها « ذبحت » قبل أن تقبلها آلهة المطر .

وقال طومسون « لم تكن كنوز تشينشان إترأ قيمة بلغة النقود ، ولكن قيمتها الأثرية بالغة » .

بدأ طومسون يدرك أنه يقترب من نهاية حدود إمكانيات عمل الكراكة . فقادوس الكراكة بدأ يرفع أجزاء من الحجر الجيري مما يدل على الوصول إلى القاع . ومع ذلك فجزء كبير من البئر كان بعيداً عن متناول قبضة الكراكة .

وجدت فعلاً أشياء كثيرة - تسعون هيكلاً عظيماً ومجموعة كبيرة من الكنوز الأثرية . وكتب طومسون يقول « لا يمكن أن أتأجر مع حظى السعيد حتى الآن . إننى أحس أنى كوفئت بسخاء نظير مجهوداتى والمصاريف التى دفعت . حتى ولو لم يكتشف شىء بعد ذلك وقد تحققت مغامراتى المبينة على فكر سليم بشكل كبير . لقد أثبت نهائياً قصة البئر المقدسة التاريخية » .

وكتب يقول « لقد أثبتت عمليات الحفر بالإضافة إلى الأجهزة السمعية التى استعملناها بين الحين والحين أن قاع البئر لم يكن مستويا - بل سلسلة من التجويفات أى سلسلة مصغرة من الجبال تقريباً . وعلى ذلك ألا يحتمل وجود كنوز أخرى فى الجيوب الموجودة بين المرتفعات والتى لا تصلها عمليات الحفر ؟ » أشياء أخرى أصغر وأثقل مما سبق اكتشافه . أشياء رسبت بين طيات الوحل . حتى وصلت قاع البئر نتيجة لثقلها ؟ » .

واستمر طومسون فى الحفر حتى استنفد كل إمكانيات الطرق الآلية المستخدمة فى الحفر . ورأى أنه قد آن الأوان لى تدخل العملية فى المرحلة الثانية - الانتقال إلى الغطس بأنفسهم والنزول إلى البئر بأردية الغطس لاستعادة الكنوز الصغيرة جداً التى انسابت من بين فكى الحفارة . وسأل طومسون نفسه « ليس أجمل ولا أكثر رومانسية من الهبوط إلى عمق ستين قدماً فى الماء إلى أقصى مكان فى تلك الحفرة الخفية والتجول بين مرات مساكن آلهة المطر المقدسة ؟ » .

كانت فكرة جريئة . ولم يكن قد مضى من القرن العشرين سوى عدة سنوات والراثت المائية وقتئذ لم تزل فى طى المستقبل . وتقتضى الفكرة التى امتلكت طومسون الهبوط إلى أعماق البئر العظيم والعمل فى الظلام الدامس فى درجة حرارة تزيد قليلاً عن الصفر .

وقد كان على أتم استعداد لتنفيذ هذه المحاولة الجريئة فقد أصبح غواصاً ماهراً لأعماق البحار خلال السنين الطويلة الماضية ، ومع ذلك فقد كانت خبرته قليلة في المياه الرائقة المفتوحة . وها هو يقبل على عملية هبوط في أعماق معتمة تحاصرها جدران صخرية شديدة الارتفاع ويزيد من صعوبتها التواءاتها ومنحنياتها التي تجعلها كالحيات الضخمة .

واستأجر طومسون لمعاونته اثنين من اليونانيين من محترفي الغطس الذين يجمعون الاسفنج على بعد من ساحل فلوريدا . وكانت أردية الغطس التي استعملوها مصنوعة من القماش السميك المبطن بالمطاط وقناع للرأس نحاسي مبطن بالقماش وبه عوينات زجاجية وحول الرقبة صفائح من الرصاص وأحذية معدنية تساعد على الهبوط . وتصل الغواصين بأعلى خراطيم وأجهزة إمدادهم بالهواء على سطح البحر .

وأتم طومسون وأحد مساعديه اليونانيين ارتداء ملابسهما بينما انتظر الآخر على الشاطئ لتشغيل الآلات . ونزل طومسون أولاً . ويصف نفسه بقوله « هبطت على السلم المصنوع من الجبال بنفس العظمة التي تسقط بها السلاحف من على كتلة من الخشب » .

ونزل طومسون إلى أسفل وأجرى تفتيشاً عاماً على الأجهزة ليتأكد من أن خط الهواء وخط الحياة منتظمين وخاليين من العوائق . وعلى عمق ١٠ أقدام وجد نفسه في ظلام دامس . وأحس بألم في أذنيه نتيجة لضغط الهواء . ففتح صمامات القناع ليعادل الضغط . وبدأ يهبط إلى أسفل ، إلى أسفل ، إلى أسفل وكتب يقول « لقد شعرت . . . برعدة غريبة عندما أدركت أنني الإنسان الوحيد الذي وصل إلى هذا المكان حياً ، وأتوقع أن أخرج منه حياً أيضاً . ثم هبط بجانب الغواص اليوناني وتصلحنا » .

كان طومسون قد اشترى أحدث وأحسن ما يمكن الحصول عليه من المصاييح الكهربائية (بطارية) ولكن المياه كانت من القتامة والتعكير بالوحل لدرجة أن المصباح لم يكن ذا فائدة. وكان عليهما أن يعتمدا على حاسة اللمس فقط مستعملين أصابعهم المغطاة بالقفازات للبحث في الوحل. ومع أنهما أحضرا معهما في القاع تليفونا يستعمل تحت الماء إلا أنهما نادراً ما استعملاه، وإنما اكتفيا بهز الحبل للاتصال بأعلى. وإذا أراد طومسون والنواص اليوناني أن يتحادثا فإنهما كانا يلسان جبهتي القناعتين الحديدين ببعضهما لتوصيل الصوت.

واصطكت أسنانهما بشكل مستمر. وعندما كانا يرتفعان بعد كل ساعتين من الغطس، كانت شفاههما زرقاء وجسديهما يشبه لحم الأوز من شدة البرد — وكان أول ما يتناولانه هو القهوة الساخنة التي يتصاعد البخار منها.

إن العمل على عمق ٦٠ قدما يجعل الإنسان تحت ضغط كبير. ولكن ضغط الهواء في داخل أردية الغطس كان يبطل مفعوله بحيث يشعران وهما في القاع ألا وزن لهما إطلاقاً، رغم الصفائح الرصاصية حول أعناقهم وأحذيتهم التي يبلغ سمك نعلها الرصاص بوصتين.

وكنتيجة لهذا الوضع، فإن أى دفعة صغيرة على القاع بأقدامهم كانت تكفى لأن تجعلهما يعلقان إلى أعلى.

وكان طومسون حريصاً معظم الوقت. ولكن حدث أن أعجب بأحد مكتشفاته لدرجة أنه نسي إخراج الهواء الزائد في ردائه فذق على القاع بقدمه، وفجأة انقلب رأساً على عقب نتيجة لخفة وزنه وأسرع إلى السطح بهذا الوضع فاصطدم حذاؤه الرصاص بجسم قارب الغطس بفرقة شديدة مما أزعج وأربع.

الهنود الذين كانوا على ظهره ، وروعوا عندما أدركوا السبب ، ولكن سرعان ما استقام طومسون وفتح صمامات القناع .

وصرخ جوان ميس ، رئيس العمال الهندي «يا إله السموات !! إنه يضحك» .
وانتهى الحادث بدون إصابات تذكر .

ولقد كان من بين الأهداف الرئيسية لهذه العملية اكتشاف طبيعة بعض الأشياء الحجرية الملساء كبيرة الحجم التي كان يتصادف العثور عليها بواسطة الكراكتة والتي سرعان ما كانت تنساب من بين فكي الدلو . وقد وجد طومسون أثناء تحسسه للقناع ، هذه الأحجار وحولها سلاسل مغلقة . وعندما كان دلو الونش يرفعهما إلى السطح ، كانت على بعضها رسوم هيروغليفية والبعض الآخر عبارة عن تماثيل أحدها كامل النحت لآلهة أو كاهن جالس ذكر طومسون برودين « المفكر » .

وفي مرة أخرى بحث طومسون عن أشياء صغيرة مدفونة في الطين على طول الأجزاء المرتفعة أو الفجوات في قاع البئر . وعثر على أشياء صغيرة بدت كما لو أنها عملات نقدية وبعد أن جمع حوالى ثلاثين منها غلبه حب الاستطلاع فأسرع إلى سطح الماء . وحتى قبل أن يخلع الرداء فتتح جيبة فوجد في الكنز العجيب كثيراً من الأشياء الصغيرة مثل « خواتم مزينة بنقوش ، وأجراس صغيرة نحاسية ، وعدد من الأجراس من الذهب الخالص ، وخواتم وأدوات زينة ومداليات مطلية بالذهب على درجة فائقة من المهارة والتصميم ، كذلك وجد حبيبات جميلة منحوتة من حجر اليشم ، وأشياء أخرى من حجر اليشم ، وكما يحدث عند التنقيب في المناجم عثر على ذهب ولكنه أقيم بكثير من الذهب الخام ، فهما كانت قيمته الحقيقية كذهب فإن كل قطعة منه كانت فعلاً لا تقدر بثمن .

وكان ذلك مجرد البداية : فقد تلا ذلك ظهور مجموعات كبيرة من كنوز المايا ، تبلغ قيمتها الذهبية مئات الآلاف من الدولارات لو صهرت انخواتم والأجراس فقط . فمثلاً ظهر في يوم واحد مائتي جرس ذهبي صغير . وقد عرضها طومسون على الهنود الذين بهتوا متعجبين ومتحسرين على أجراس الناس القدامى .

وكما استمر الغطس استمر ظهور المكتشفات . فلمئات السنين قذف المايا بأشياءهم في البئر . وقد استخرج طومسون كميات غير معقولة من الأشياء النادرة .

وفي يوم من الأيام استكشفت حفنة من الأقفعة النحاسية الصغيرة يبلغ طول الواحدة منها بوصة وعرضها نصف بوصة — ومن الغريب اكتشاف هذه الأشياء في نفس اليوم الذي أقيم فيه كرنفال للوطنيين وكانوا جميعاً يلبسون أقفعة . وقد تكهن أتباع طومسون من الهنود أن « يوم تشال » آلهة المطر أرسل هذه الأقفعة تذكراً بيوم الكرنفال . ولاحظ طومسون واقعة غريبة وهي أنه لم يجد في البئر مثل هذه الأقفعة لا قبل هذا اليوم ولا بعده .

ثم استخرج بعد ذلك أزاميل وسكاكين من حجر الصوان ذات مقابض ذهبية وثمانيل صغيرة ومزيداً من الأجراس وحجر اليشم . وفي يوم حضر ثلاثة من الأمريكيين — أحدهم عالم آثار من هارفارد — لزيارة طومسون ، ووقفوا يشاهدون العملية . وقد استخدم طومسون الونش في ذلك اليوم وعند ما ارتفع في مرة ما بحمولته ظهر شيء رمادي كثيب يتأرجح على الونش . وعلق على ذلك أحد الأمريكيين من أصدقاء طومسون بقوله :

« لا بد أنه أحد أحذية آلهة المطر القديمة » .

ولكن بعد أن دار الونش في اتجاههم تمكنوا من مشاهدته جيداً . وكان قرصاً

كبيراً من النحاس منقوشاً عليه آلهة الشمس . وراقب طومسون وأصدقائه دلو الونش وهو يقترب من الشاطئ — فأتضح أن ما ظنوه « حذاء قديماً » كان على درجة رائعة من الفن ، وكان يتأرجح ويهدد بالسقوط ثانية في البئر . وأخيراً أسرع يدا طومسون لتطبيق على اكتشاف يفوق في جماله أجمل المكتشفات التي وجدها في كنوز المسايا .

وتلا ذلك اكتشاف أقراص مشابهة، بعضها من النحاس والآخر من الذهب . وكتب طومسون يقول « كل يوم هو يوم ذهبي » وبلغ قطر إحدى الصحف الذهبية تسع بوصات والأخرى أقل من ذلك قليلاً ، كما كان هناك اثنا عشر قرصاً ذهبياً بدون زركشة ، صنعت من ألواح كان المقصود منها في الأصل أن تزرع ويرسم عليها كالأخريات ، ولكن لسبب ما قذف بها إلى البئر وهي مجردة من أي رسم .

وهكذا كان الحصول الكلي من البئر المقدس عظيماً جداً . وإليك مقاييسات من القائمة التي صنفها ت . أ . ويلارد صديق طومسون :

— « صحن من الذهب الجيد ، منقوش أو مطروق ، قطره حوالى عشر بوصات ، وقاعة نحل مستدير ، يزن حوالى رطل .

— « أربعة صحن أخرى أو سلاطين أو فناجيل أصغر حجماً غير منقوشة ولكن من مادة ثقيلة واستدارتها غاية في الجمال .

— « سبعة أقراص ذهبية منقوشة أو مطروقة قطرها حوالى عشر بوصات .

— « ثمانية أقراص ذهبية منقوشة أو مطروقة قطرها حوالى ٨ بوصات .

— « عشرة تماثيل ذهبية لإنسان أو شبيهة بالقرود .

— « عشرون خاتماً ذهبياً معظمها من ذهب نقي .

— « أحد عشر تمثالاً لزواحف وحيوانات في الغالب ، بروشات أو أدوات أخرى للزينة كلها من الذهب الصب ومصنوعة بشكل دقيق ، منها ضفادع وتمائيل شبيهة بالوطاويط وأشياء شبيهة بالقروء معظمها صب ثقيل ومن ذهب نقي .

— « أربع عشرة كرة من حجر اليشم قطرها بوصة ونصف ، كلها رائعة الصقل والعديد منها منحوت بأشكال ورسوم جميلة .

— « عدد من رؤوس الرماح الجميلة المصنوعة من حجر الصوان والتي تبلغ قيمتها أضعاف أضعاف وزنها من الذهب ، وقد نحتت بحيث وصل سمكها إلى سمك رؤوس الحراب المصنوعة من الصاب ، أما حوافها فمادة كالشفرة وهي من أروع ما وجد في أى مكان في العالم .

— « قناع ذهبى صلب قطره سبع بوصات ، أما العينان فمخلفتان كما لو أنهما في سبات عميق ، أو في حالة موت ، ورسم فوق الجفن الأيمن نفس الصليب المائل الذى نراه دائماً منحوتاً على ما يسمى سن الفيل .

— « وآلاف من الأشياء الأخرى التي لها قيمة كبرى لعلم الآثار » .

وقد سلت الكنوز الأثرية التي وجدها طومسون إلى متحف بيبودى بجامعة هارفارد . وقد استأنت حكومة المكسيك — فيما بعد — من الطريقة التي نقل بها . أجنبي هذه الآثار التاريخية الهامة إلى بلاد أجنبية . ويعتبر هذا نوعاً من المتاعب التي تواجه علماء الآثار . فمعظم الحفريات الأثرية مدفونة في بلاد متأخرة يسكنها أناس غير قادرين أو غير راغبين في القيام بالحفر بأنفسهم . ولكنهم يستأون .

من قيام الأجانب بهذا العمل . وقد اضطر علماء الآثار في أوائل القرن التاسع عشر للعمل سرّاً في أغلب الأوقات خوفاً من أن تكتشف حكومات البلاد التي يحفرون فيها الأعمال التي يقومون بها فتصادر .

أما اليوم فقد أمكن التغلب مقدماً على هذه المصادمات . فعند حضور بعثة من بلد لتحفّر في بلد آخر ، يتم الاتفاق مقدماً عن وضع الكنوز التي توجد : فيتفق علماء الآثار على أن يعطوا نصف ما يجده إلى البلد صاحبة الشأن ، وأحياناً أخرى يتفقون على أن يقوموا بكل التنقيب نظير السماح لهم بدراستها في متحف البلد .

أما طومسون فقد حمل معه كل ما وجده في السنوات الأولى من هذا القرن . وكانت المكسيك في ذلك الوقت في حالة من الفوضى السياسية بحيث يصعب الاتفاق فيها مع أى انسان . ورغم سخط الرأى العام على عمل طومسون فقد حكمت محكمة المكسيك العليا بأنه لم يقم بشيء مخالف للقوانين المكسيكية وقتئذ . وبالرغم من هذا ، فقد أهدى متحف ييبودى اختياريًا ٩٤ من مكتشفات طومسون إلى معهد المكسيك القومى للحفريات والتاريخ في سنة ١٩٦٠ .

الفصل السادس

كنوز أخرى من أرض المايا

اكتشف « إدوارد هربرت طومسون » البئر المقدسة في « تشيتشان إيتزا » فيما بين عامي ١٩٠٤ - ١٩٠٧ ، وقد رأينا في الفصل السابق أن الكنز الذي استخلصه من البئر كان عظيماً وأن أعماله ستظل دائماً إحدى علامات الطريق في علم الآثار .

وقد أدرك طومسون أنه لم يستنفد بعد محتويات البئر - وأنه لم يفتح الطريق أمام كنوز تشيتشان إيتزا ، ولكنه قام بعمله الرائد في وقت كانت معه الأجهزة المستعملة بدائية والغطس عملية شاقة . كما أن عملية التحسس الأعمى في الظلام الموحل - ولو أنها أنتجت الكثير - لم تكن كافية لاستخراج كل شيء ألقى في البئر في الوقت الذي استعمل فيه كمخزن للقرابين لفترة تمتد من خمسمائة إلى ألف عام .

وكتب طومسون يقول « إنني متأكد رغم كل الأشياء القيمة التي انتزعتها بالقوة من آلهة المطر - أنني لم أنتزع منه سوى عشر كنوزه التي يطبق عليها بقوة . وهناك الكثير من أدوات الزينة الذهبية في تجاويف أرض الحفرة غير المستوية - ومعها أشياء أخرى تفوق قيمتها الذهب لدى تجار العاديات » .

وبقي طومسون في المكسيك حتى أواخر عمره وقام بعدد من المآثر التي يذكرها له علم الآثار حتى موته سنة ١٩٣٥ . وكتب قبل موته بسنوات قليلة :
متنبئاً بمستقبل الحفريات الماياوية :

«إننى أترك مستقبل الاكتشافات الجديدة فى البئر المقدسة فى يد مهندس الغد . وإنى أقولها نصيحة — لا بد من مهندس ، لأن عملية انتزاع مقتنيات البئر القديمة مهمة هندسية . فيجب أولاً تطهير كل منطقة قاع البئر ، لا بواسطة الأجهزة اليدوية البدائية التى استعملتها ، ولكن بأجهزة حديثة قوية تعمل آلياً . وسيحتاج الأمر لعمل ناقوس غطس كبير جداً . مصمم بطريقة خاصة تسمح بالعمل تحته ويحمى العمال من الماء ويمدحهم بضوء كاف » .

وقد أصاب طومسون بقوله إن علماء الآثار سيعودون يوماً ما إلى البئر المقدسة . ولكن بعد أن انتفت الحاجة إلى « ناقوس غطس كبير مصمم بطريقة خاصة » فقد أدى ظهور الرثات المائية بعد موت عالم الآثار الجليل بعدة سنوات إلى تسهيل عمليات البحث فى البئر المقدس « بتشيتشان إترا » بشكل لم يكن طومسون ليتصوره .

وقد تكونت بعثة جديدة ، دفعها الروح الوطنية الصاعدة بين علماء الآثار فى المكسيك ، فقد فكروا أنه وإن كان قد تم الحصول على كنوز تفوق الوصف فى البئر المقدسة ، ولكن أين هى ؟ ؟
هل هى فى المكسيك ؟ ؟ كلا .

إنها فى متحف ييبودى بجامعة هارفارد على بعد آلاف الأميال من المكسيك وحتى التسعة والأربعون قطعة التى منحها متحف ييبودى للمكسيك سنة ١٩٥٠ لم تشف غليل أحد .

وقد تصوروا الاحتجاجات التى يمكن أن تصدر من الولايات المتحدة لو أن جماعة من علماء الآثار البلجيكيين مثلاً ذهبوا إلى نيو إنجلند وبدأوا فى التنقيب عن

آثار مجهولة «للآباء الحجاج» ، ثم حلوا كل ما وجدوه إلى متحف ما في بروكسل. لو حدث هذا ، لجل كل الشعب السلاح وطالب الكونجرس بعمل تحقيق ، وسيحتاج المؤرخون على سلب قطعة حية من تاريخ أمريكا .

ولكن الواقع أنه لن يحدث شيء من هذا في وقتنا الحالي لا في أمريكا ولا أى مكان آخر . فلم يعد علماء الآثار الأجانب يهبطون ببساطة على أى بلد ثم يبدأون الحفر . فكل شيء أصبح من الواجب تنظيمه سلفاً .

ومع هذا فإنما تلك الصيحات لم تفد المكسيكيين فى شيء ، لأن أعمال طومسون كانت قد تمت منذ أمد بعيد ولم يعد فى الإمكان وقفها — بينما لازالت هناك مجموعة هامة من الأشياء الموجودة فى البئر المقدسة أو «السينوت» ، فقررت جماعة من المكسيك الكشف مرة ثانية فى السينوت بتشيشان إتزا وقد أشاروا إلى أن طومسون قد استعمل أدوات بدائية ولا بد أنه ترك وراءه الكثير فى البئر ، وأن فى استطاعة الأدوات الحديثة تحديد مكان الأشياء المتبقية واكتشافها مع ضمان بقاء المكتشفات فى هذه المرة فى المكسيك . وقد صرح « بابلوبوش بروميرو » رئيس الجماعة المسماة «نادى الاستكشاف والرياضة المائية بالمكسيك» « بأننا سنعطى بلادنا المجموعة التى نحصل عليها وتصبح ملكاً لها » وقد عرفت هذه الجماعة باسم « سيدام » Cedam وهو اختصار للحروف الأولى من كلماتها الإسبانية .

وتكونت السيدام من عدد من الأعضاء برزوا فى الغطس بالجلد ووجدوا متعة فى هذه الهواية . ولم تضم هذه الجماعة أى من علماء الآثار بين أعضائها ولو أنها مثل باقى مجموعات الغواصين بالجلد تهتم كمجموعة من الهواة بأى شيء قد يجده تحت سطح الماء فى مخابىء الكنوز الأثرية ، مثل سينوت تشيتشاش إتزا .

وقد اشترك بعضهم في بعثات أثرية في أماكن أخرى من المنطقة واكتشفوا سفنا غارقة في البحر السكاريبي .

ومع ذلك كانت هناك مصاعب في تشييتشان إتزا تواجه من يعمل فيها :
فمياه البئر مظلمة موحلة ، وستواجه الغواصين بالجلد مصاعب حمة في رؤية الأشياء .
ذات الحجم الصغير في المياه العكرة . ويمكن للغواصين أن يكتشفوا البئر بأنفسهم ، ولكنهم في حاجة إلى وسائل كافية لرفع الأشياء الفنية القيمة إلى السطح .

وحلت جماعة السيدام مشكلتها إلى جورج م . كلارك رئيس جمعية يوكاتان للاستكشاف . واقترح مستر كلارك عليهم أن يستعملوا « مصعد لينك الهوائى » الذى أثبت في وقت قصير أنه من أقيم الأدوات التى استعملها علماء آثار ما تحت الماء .

وقد اخترع « إدوين لينك » المصعد الهوائى وهو مشهور باسم مخترع :
« جهاز اللينك » الذى يستخدم في تدريب الطلبة على الطيران . ولما كان لينك نفسه من بحاث تحت الماء ، فقد صمم مصعده الهوائى لاستعماله في البحث عن المدينة الغارقة « بورت رويال » بجامايكا . ويتسكون مصعد لينك الهوائى من أنبوبة يباع قطرها حوالى عشر بوصات تدفع تياراً « مضغوطاً » من الهواء وتمتص الأشياء الصغيرة الموجودة في قاع المحيط وترفع إلى الشاطئ أو إلى ظهر السفينة .

ثم نظمت حملة إلى تشييتشان إتزا بأموال الجمعية الجغرافية القومية التى تشجع الكثير من مثل هذه الأعمال ، وزودت بمصعد هوائى لاستكمال عمل الغواصين .

من سيدام والبحرية المكسيكية ، ولتمكين علماء الآثار المدربين من الإشراف على استخراج الأشياء من السينوت .

وكانت الخطوة الأولى هي إقامة ونش على حافة الصخرة لإنزال المعدات إلى البئر ، ثم أنزل بعناية صندل الغواصين وهو عبارة عن مصطبة طولها ١٢ قدماً وعرضها ثمانية حتى سطح الماء وهي مسافة تقرب من الثمانين قدماً . وكان لابد من إنزال الغواصين أيضاً بالإضافة إلى المعدات بالونش ، إذ أن جدران السينوت الرأسية لا يمكن عمل سلام بها .

ثم وقف الغواصون على الصندل الصغير يحملون في أعماق البئر المظلمة التي كان كهنة المايا يلقون فيها بضحاياهم من القرابين حتى خمسمائة عام خلت . ولم يكن أحد قد غامر بالنزول إلى مياه البئر المظلمة منذ سنة ١٩٠٧ بعد إ. ه. طومسون — وقفز الغواصون إلى الماء وهم مرتدين رئات التنفس . وكان أحدهم ، وهو منتج سينائي مكسيكي يدعى « جنارو هورتادو » يرتدى زياً غريباً للغوص ذا خوذة وحراشيف ملونة ، وكان هذا الزى متخلفاً من فيله الأخير « وحش الأعماق » أما باقي الغواصين فكانوا يرتدون ملابس غطس عادية مريحة وملائمة .

ولقد وصف أحدهم — وهو مصور مجلة « ناشيونال جيوغرافيك » واسمه « بيتس ليتليهاز » وصف التجربة قائلاً « لقد كان الوضع كله مرعباً . كان يبدو كما لو أن الماء قد تحول إلى حبر . ولم يكن باستطاعتي أن أرى أبعد من راحة يدي مع استخدام الكشاف الضوئي تحت الماء . وبدأت أتحرك ذراعاً بعد ذراع ولا أسمع سوى أنفاسي ، ثم سرت في خط على عمق ٤٠ قدماً نحو صخرة المرسى ، وتمكنت من تحديد شكل الصخر المستدير الأملس وكذلك الأشجار المتلوية والممتلئة بالماء ،

وذلك بلمسها بيدي . وعندما تحرك الماء ، تصاعد الطمي وعكر الماء بحيث أصبح
لافائدة من ضوء الكشافات .

كانت محاولات الغطس الأولى لجرد أن تتعرف البعثة على أبعاد قاع البئر
وليس للبحث عن كنوز أثرية . وتساءل النواصيون بعضهم بعضاً عما يتمنون أن
يجدوه في البئر . وأجاب لافرن بدرسون — وكان يصور البعثة لحساب شركة
الإذاعة الأمريكية ، وكان يتمنى أن يرى شيئاً جذاباً ليصوره :

« أتمنى أن أجد هيكلاً عظيماً محلي بالجواهر » .

وأجاب ثلاثة آخرون من النواصين « نتمنى أن نجد سكيناً للنضحية » لأنهم
يعرفون أن كهنة الملايا يقطعون قلوب الضحايا من أجسادهم قبل أن يرموا بهم
إلى البئر .

وكانت آمنيات أعضاء آخرين من البعثة أكثر غرابة . تمنى « بيتس ليتلهايز »
أن يجد طقماً كاملاً من الأسلحة الأسبانية وهذا يعني أن يكون قد ألقى بأحد
الاسبان في البئر إبان غزو المسايا . أما عالم الآثار ولیم فولان فكان يحلم باكتشاف
تسجيلات هيروغليفية للمايا في البئر . وأما قائد البعثة « بونشيانو سالازار » فكانت
أمنيته معقولة أكثر من غيرها فقال « أتمنى أن أجد مالم يحده طومسون » .

وحان الوقت لتشغيل المصعد الهوائي بعد أن تمت محاولات الغطس الأولى
لأكتشاف طبوغرافية قاع البئر — فكان لابد من إزال سقالات خشبية كبيرة
في البئر تحملها براميل من الصلب تساعد على الطفو وفي وسطها ثقب تنفذ منه
أنبوبة مصعد الهواء ، وقام أعضاء البعثة بعمل مصفاة من الأسلاك حول الأنبوبة ،
لتحجز أى آثار قد ترفع مع الماء ، بينما يتساقط الماء الطمي من خلال الثقوب .

وبينما هم يقيمون المصعد الهوائى، جاء رجل ليزور الموقع، كانت تبدو من تقاطيع وجهه ذات الأنف المقوس وعظام الوجنتين البارزتين أنه تجرى فى عروقه دماء المايا النقية — كما كان يتكلم لغة المايا . وقال « لقد كنت أعمل هنا عندما جاء السنيور طومبسون ليزح البئر » ، وأخبر المجموعة أنه كان يعمل فى جانب آخر من البئر .

وقد زادت هذه الأخبار السارة من حماسهم ، فلربما رفع المصعد الهوائى كنوزاً لم يمسسها طومسون .

وبدأ المصعد الهوائى يعمل ، وفوهته بارزة من العوارض الخشبية بينما طرفه الآخر على عمق ثلاثين قدماً فى المياه المظلمة حيث يراقبها الغواصون . ودبت الحياة فى المضخة وارتفعت المياه كالنافورة لتسقط فى المصفاة ، فرسب عليها حصى صغير . وأجزاء خشبية . وكم المشاهدون أنفاسهم .

وصرخ أحدهم قائلاً « هذا كوبال » . وكان هذا هو الاكتشاف الأول . والكوبال هو نوع من الأصماغ مثل المستكة كان المايا يستخدمونها كبخور فى حفلاتهم الدينية . وقد سبق أن وجد طومبسون مئات من هذه الكرات الصغيرة المستخدمة فى البخور .

وتتابعت الآن الكثير من هذه الحصوات ثم بدأت أجزاء من الفخار تترسب على المصفاة ثم أطباق السيراميك . وبعد ذلك بدقائق تصاعد تمثال صغير من المطاط يبلغ طوله اثنى عشر بوصة يبدو أنه أحد آلهة المايا . والآن بدأ المصعد يخرج أشياء هامة .

قطعاً لقد استهلك طومبسون محتويات بئر التضحيات إبان أربع سنوات من العمل فى البئر .

وكان من الحال أخذ صور فوتوغرافية تحت الماء لأن تعكير المياه حجب كل تفاصيل أرض البئر .

ولكن الكنوز التي أخرجها المصعد الهوائي عوضت هذا النقص ، عندما بدأت الأنوبة تنفوس أكثر فأكثر في القاع محركة طبقات من الطمي لم يمسهها إنسان منذ كرسنوفر كولابوس وربما قبل ذلك . وظهر المزيد من حبيبات الكوبال ، أحياناً مضغوطة داخل مواقع البخور الفخارية ، بأعداد لا تحصى . من الحبيبات كما ظهرت أجزاء من حجر اليشم (الجالخن) المصقول ، والفخار السليم أو أجزاء منه . وانشغل علماء الآثار الواقفين على الصندل وهم يتزعجون كنوزهم من الحجارة والطمي التي ارتفعت مع الماء .

وبعد شهر من العمل الدؤوب خرج أول تشكيل خشبي إلى الضوء ، وهو تمثال بدائي الآلهة ولكن خطوط نمته تدل على القوة ، وربما يعبر عن آلهة المطر تشاك . ولقد كان هذا اكتشافاً هاماً حقاً . ولكن في نفس اليوم قدم أحد الغواصين قرباناً لآلهة البئر عند ما فقد ساعته القيمة من طراز رولكس في أعماق البئر الموحلة .

وأعادوا تجربة طومسون باكتشافهم مئات من الأجراس الصغيرة بعضها من النحاس ، والقليل منها فيه آثار ذهبية ، والنادر منها يحتوي على لسان الجرس . وقد « قتل » كهنة المايا كل مارموه في البئر وأسكتوا الأجراس بنزع مدقاتها وأتلفوا التماثيل الصغيرة المصنوعة من حجر اليشم وتماثيل الآلهة المصنوعة من الفخار .

وأمكن كذلك استخراج الكثير من الأشياء الأقل قدماً . ونحن نعلم أن

تشتشان إنزا كانت أحد المراكز السياحية المكسيكية الرئيسية لما يزيد عن أربعين عاماً وواضح أن قليلاً فقط من السياح هم الذين تغلبوا على رغبتهم في قذف أى شيء في البئر وهم يتمتعون بأمنيتهم ولهذا استخرجت من البئر عملات كثيرة مكسيكية وأمريكية ومن جمهوريات أمريكا الوسطى .

وأخيراً أخرج المصعد الهوائى جمجمة بشرية . وقد فحصها دكتور دافالوس هورتادو ، واستنتج منها أنها لفتاة في الثامنة عشر من عمرها وتقاطع وجهها تدل على الرقة والجمال ، ولكنها مثل باقى أطفال الملايا تلبس شريطاً معدنياً لتقلطنح مقدمة ومؤخرة الرأس ، لتزيد من جمالها حسب مقاييس جمال الملايا .

وخرجت كثير من البقايا البشرية من المصعد الهوائى بالإضافة إلى هياكل حيوانات الباما والغزلان والنمر الأمريكى والتماسيح الأمريكية وغيرها .

وأحياناً لم يكن المصعد الهوائى موقفاً في الاختيار . ففي السنين الغابرة تهدم جزء من المعبد الواقع على حافة الهاوية وسقط في البئر . ولذا نجد أن المصعد الهوائى ينسد أحياناً وهو يرفع كتلاً حجرية من آثار المعبد ويتوقف ، فيسبب الوقت اللازم لإصلاحه تعطيل العمل لمدة طويلة .

واستمر العمل لمدة أربعة شهور تقريباً . وكانت النتائج مذهلة . . . ولم يكن طومبسون قد بدأ بعد في استهلاك محتويات البئر المقدس : فمن بين ما يزيد على أربعة آلاف من المقتنيات التي حصلت عليها البعثة الجديدة لحكومة المكسيك ، وجدت حبيبات من الذهب الصلب وحجر اليشم أو الصوان ، وسكّين من العظام منقوش عليها كتابة هيروغليفية . وعقود رائعة الجمال من حجر اليشم ، وعديد من العرائس والآلهة النادرة ، وميداليات نحاسية منقوش عليها صور الآلهة وخواتم نحاسية مفتوحة وغيرها كثير .

ومع ذلك فلا زال البئر بعيداً عن أن يسلم كل كنوزه . ففي السنين القادمة ستعود بعثات أخرى إلى هذا المكان الكثيب حيث ألقى كهنة المايا الصارمين — منذ مئات السنين — بضحاياهم الخيفة إلى الهلاك بينما الجماهير المتحمسة تالقى في البئر بسيل منهر من الهدايا المقدمة إلى الآلهة . ومن المشروعات المستقبلية إعادة بناء المعبد ، ولكنها عملية يستكلف الكثير نظراً لأنه يجب وضع أطنان من الحجارة الساقطة في البئر . ويأمل علماء الآثار أن يتمكنوا في يوم قريب من استعمال مضخات مائية لتجفيف البئر تماماً حتى يمكنهم التجول بحرية في القاع الموحد جامعين نفائس المواد المؤكد وجودها .

ومع ذلك فهناك كنز معين لن يمكن لعلماء الآثار أن يجدوه مستقبلاً . فقد حدث أن أحد أفراد المايا المعاصرين ويسمى « إفيليو كانول » ويعمل كرئيس عمال عمليات النزح — وكان مهتماً جداً بالمشروع حتى إن الغواصين علموه كيفية استخدام الرثة المائية — حدث أنه في آخر يوم للعمل في البئر المقدسة قام بالغوص للمرة الأولى والأخيرة وعند ما ارتفع إلى السطح بعد عدة دقائق ونزع الجزء القمي من الجهاز أن سرت مهمة بين الجميع . . لقد كان يحفل بكل كبرياء ما وجده . . . الساعة الرولكس القيمة التي فقدتها الغواص فرناندوا إيوان منذ ثلاثة شهور .

هذا ولم تكن بعثة تشيستان إثر سنة ١٩٠٦ أول بعثة استخدم فيها علماء آثار ما تحت الماء لاستعادة كنوز المايا . فقد سبقتها بسنوات قليلة بعثة أخرى في شمال يوكاتان . واكتشف الغواصون بالجلد براً مقدسة لإحدى مدن المايا الهامة واسمها دزييلتشالتون .

وينطق اسم المدينة متقطعاً هكذا « دريب — يل تشال — تون » . وقد

اشتق هذا الاسم من كلمة المايا تعني « حيث يوجد كتابة على الحجر المستوى ». وهي من أكبر مدن المايا المعروفة وتبلغ مساحتها عشرون ميلاً مربعاً - أكبر من مساحة واشنطن ، وثلاث مساحة مدينة مكسيكو .

وقد ركز علماء الآثار عملهم في أراضي المايا لسنوات عديدة حول المواقع المعروفة مثل تشيتشنان إترا وإكسال في يوكاتان ، وكوبان في هوندوراس . وحتى سنة ١٩٤١ لم يكن معروفاً وجود مدينة هامة في دزييلتشالتون . ففي هذا العام زار كل من أ . ويليز أندروز والمرحوم دكتور جورج و . برينرد - وهما من علماء الآثار - هذا الموقع ليدرسا بعض المواد الفخارية التي وجدت قريبة من المكان ، وأدهشا عندما أدركا أنه توجد تحت أقدامهما واحدة من أكبر مدن المايا مدفونة تحت الأحرش .

فلم تكن دزييلتشالتون كبيرة فحسب بل وقديمة وقد سكنها الناس منذ مدة طويلة قبل ميلاد المسيح .

وقد بنيت معظم مدن المايا ما بين ٤٠٠ - ١٠٠٠ سنة بعد الميلاد ، ولكن مدينة دزييلتشالتون ترجع إلى أبعد من هذا بكثير . ولم تهجر كما حدث لكثير من مدن الأدغال . وتدل الحقائق الأثرية على أن المايا عاشوا بشكل مستمر في دزييلتشالتون آلاف السنين وربما ابتداءً من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد حتى الغزو الإسباني في القرن السادس عشر .

ويبدو أن دزييلتشالتون تكاد تغير النظريات الراسخة عن المايا . ففي مبدأ الأمر كان من المعتقد أن جماعات المايا القديمة كانت تسكن في أراضي الأدغال الواطئة في الجنوب في جواتيمالا وهوندوراس ثم زحفوا شمالاً إلى يوكاتان في أواخر عصرهم فقط . ولكن ها هي مدينة هامة المايا وهي بلا شك قديمة -

وتقع في أقصى الشمال بما لا تبعد عن مدينة تشيتشيان إتزا الحديثة نسبياً إلا بخمسة وسبعين ميلاً .

ولم يكن عام ١٩٤١ مناسباً لقيام بعثات كبيرة للبحث عن الآثار : فقد احتاجت الحرب جهود كل إنسان . ولم يتمكن دكتور أندروز من العودة إلى دزييلتشاتون إلا بعد ذلك بخمسة عشر عاماً . ففي عام ١٩٥٦ أعطت الحكومة المكسيكية الحق للجامعة تولين بنيو أورليانز في الحفر في دزييلتشاتون لمدة أربعة مواسم ، ورأس البعثة الدكتور أندروز .

وبعد أن ألقى علماء الآثار نظرة عاجلة على الأطلال صعدوا من حجمها ، إذ لم يكن يبدو للعين في أول وهلة إلا جزءاً يسيراً منها ، لأن الأدغال قد غطت الكثير من الأبنية — كما سرق المعاصرون الذين رصفوا الشوارع كثيراً من الحجارة والأبنية . وما أن بدأ العلماء بحشمهم حتى رأوا الكثير مما هو مدفون تحت الأرض ، وكانت المساحة الوسطى وتبلغ ١٠ أميال مربعة مملوءة بالقصور والمعابد والأهرام ، والقواعد الحجرية للأكواخ التي تلاشت . ووجد علماء الآثار بعد هذه البقعة الرئيسية « ضواحي » منتشرة في جميع الاتجاهات ، وبها معابد ومنازل بأعداد كبيرة . وكشف البحث الأولى عن الأطلال ما يزيد عن أربعائة مبنى — وكان هذا مجرد قطاع صغير من عاصمة المايا .

كانت مدينة هائلة . يشقها طريق عريض من الحجر الجيري ارتفاعه ثمانى أقدام . وكان من الاتساع بحيث يسمح بمرور أربع سيارات وطوله ميل ونصف الميل — وكان يربط ما بين الأهرام والمعابد ذات الطراز المجهول . ويوجد بالقرب من هذا الطريق قصر كبير يشغل مساحة مقدارها اثني عشر فدانا ، وهو أكبر من أى مبنى من مباني المايا التي اكتشفت حتى ذلك الوقت .

— ١٢٥ —

وكتب الدكتور أندروز يقول « لم يكن في مقدورنا أبداً أن نحفر كل القصر فهذا يستلزم من ١٠ - ١٥ سنة من العمل المتواصل لمئات العمال . ولكننا لا نملك إلا أن ننقر هذا المارد المدفون ، وكلفنا مجموعة من العمال بالقيام بحفر شق واحد كبير استطلاعي فيما بدا لنا وكأنه كومة كبيرة من الفضلات خلف أحد أجنحة القصر . كنا نبحث عن شيء نادر جداً — هو تمثال حجري لإلهة الرعى عند يوكاتان ، لأن الرواسب العميقة من الأشياء الفنية التي لم تمس من قبل قادرة على أن تكون شاهداً على القرون الطويلة » .

« وهذا هو بالضبط ما وجدناه » .

« فخلال سلسلة من الحفر لمسافة ١٦ قدماً عرضاً و ١٤ قدماً في العمق استخرجنا ما ينيف عن ٢٥٠٠٠٠ قطعة من الفخار ، وهي غنيمة كبيرة تحتاج لشهور وسنين حتى يمكن تقييمها تماماً » .

ولم تكن كل كنوز دزييلتشالتون الأثرية مدفونة في الأرض . فيوجد في المدينة ما يزيد عن عشر آبار أكبرها وهو في وسط المدينة يبلغ عمق الماء فيه أربع أمثال بئر النضحيات الكبير في تشتشان إترا . وقد اهتم الدكتور أندروز أن هذا البئر الكبير لا بد وأن يحتوي على كنوز أثرية عديدة .

ففي الموسم الأول من العمل في دزييلتشالتون أقنع الدكتور أندروز اثنين من الطلبة المتفرغين من جامعة فلوريدا وبها دافيد كونكل وثني روينيت أن يرتديا رئات مائية وأن يكتشفا البئر الكبير . ولم يمض وقت طويل حتى وجدا مخزناً من آثار المايا الهامة ، وأخرجوا في أيام قليلة أجزاءً من حجر الصوان المنحوت ، وأقراطاً منمنحوتة من العظم ، وأواني أثرية قديمة وحوالي ثلاثة آلاف قطعة فخارية .

كان لابد من القيام بعملية استكشاف كبيرة للبئر .

فبينما قامت مجموعة الباحثين في علم الآثار بعملهم الضخم في رفع الأتربة عن المدينة المدفونة ، رسم آخرون خطهم في غزو البئر . وكان هذا البئر معروفا باسم بئر زلا كاش وتنطق شالا كاش وهي تعنى عند المايا « بئر المدينة القديمة » — كان هذا البئر على شكل جوب عظيم يمتد قدمه وأطرافه تحت حافة صخره . ويبلغ قطر أكبر اتساع للبئر ١٠٠ قدم أما عمقه فلا يقل عن ١٤٠ قدماً ثم ينتهى البئر على عمق ١٤٤ قدماً داخل الصخر ليمتد إلى مسافة غير معروفة وفي ظلام تام .

ويوجد في ياكاتان مئات من هذه الآبار . ويغطى كل شبه جزيرة ياكاتان بالحجر الجيري الناعم ، ولا يوجد بها أى أنهار أو ترع ولكن هذه الفتحات الكبيرة الموجودة هنا وهناك في الحجر الجلى تكونت وامتلات بالمياه الجارية على مر القرون . ولما كانت هذه هي المصادر الوحيدة للمياه العذبة في شبه الجزيرة فقد بنى شعب المايا مدنهم بالقرب من الآبار الهامة .

وهذا ما كتبه أحد كتاب المجلة الجغرافية الأهلية ويدعى « لويس ماردن » . وكان قد دخل بئر دزيبياثاتون مرتدياً رثة مائية فقال « أخذت نفساً من الهواء المضغوط وانسلت إلى الماء ثم هبطت إلى أسفل إلى الأغوار المظلمة الكثيفة . . . واندفعت نحوى أسراب من الأسماك الفضية المفرطحة يدور حول رأسى بينما أحلق في الظلام ، فوجدت تحتى بساطاً أخضر من خصل الأعشاب المائية حيث تتوقف بشكل مفاجئ حدود الأشعة الضوئية . وأسفل هذه الطبقة المعلقة يبدو لأول وهلة وكأنه ظلام كامل . وتوقفت لأزهد أذننى ولأشعل المصباح الكهربائى الذى يتدلى من رسنى . وعندما أخذت عينائى على الظلام رأيت انحناءة السقف الواسعة الجدار الخلقى على شكل نصف دائرة مظلم وكأنه مسرح يبدو في ضوء القمر .

وتنحدر الحجارة الصغيرة الماثورة إلى أسفل بزاوية مقدارها ٥٠ درجة .

واستمر ماردن في الهبوط في البئر — وماردن مصور وكاتب قام بأعمال مشهورة تحت الماء — حتى وجد أحجاراً منحوتة مبعثرة في كل مكان وهي من أعمال المايا الفنية التي يبدو أنها سقطت في البئر منذ ألف عام . وتبعه مصور آخر في المجلة الجغرافية الأهلية هو « بيتس ليتليز » حتى وصلا إلى طرف البئر الشبيه بالسرداب ودخلا سرداباً معتماً منخفضاً وكان على عمق ١٢٠ قدماً « وبدأت تخرج ققاع الزفير من منظمات الأجهزة بصوت مرتفع » وعندما أمسكت أنفاسي تمكنت من سماع خفيف نباتات عش الغراب القضية وهي تصطدم بالصخور على مسافة بعيدة فوق رأسي .

« ونظرت إلى أعلى فرأيت تحت منحنى الصخور فتحة السطح تلمع بلون أخضر باهت وقد حجت كتل من الصخر المائل الضوء الخافت كما لو كانت قوائم مخيفة لبوابة الجحيم البارد الساكن » .

وكان الاكتشاف الأول من نصيب ليتليز ، فقد هبط ليسحب عنق إناء مكسور من قاع البئر ، وعندما خلاصها من القاع تصاعدت سحب سوداء من الطمي حتى استحالت الرؤية رغم وجود الكشافين الضوئيين . فأشارا لبعضهما ليعودا للسطح حيث أنهما قضيا عشرين دقيقة في الماء وهو الحد الأعلى للأمان .

بعد هذا الاستكشاف الأول أخذ ماردن وليتليز واثنان آخران من الغواصين المكسيكيين — وهما فرناندو إيوان وإيرل بتشت — خطافاً إلى قاع البئر حتى يعملوا اتصالاً مع سطح الماء (وكان إيوان هو الذي قد ساءة يده في تشتشان إثرأ بعد ذلك بسنوات قليلة) . فيصل خط مابين منصة الغطس على سطح البئر وبين الخطاف الذي يزن ستة عشر رطلاً . وبذا يمكن للغواصين أن يتبعوا

هكذا الخط الأبيض في هبوطهم وصعودهم أثناء العمل .

وبدا على عمق ستين قدماً تل من الأنقاض يتألف من أحجار منحوتة من كل الأحجام والأشكال ، وكأنه مبنى بأكمله انهار في البئر فيما مضى . وقد حكى أحد الوطنيين المحليين لماردن أسطورة عن البناية المنهارة : كانت لأحد ملوك المايا ، وفي أحد الأيام جاءت والدته وتطلب بعض الماء ، ولكن الملك أجابها أنه ليس لديه ما يزيد عن حاجته ، وطردها . واستطرد المتكلم قائلاً « وفي ثورة غضب الآلهة زلزلت الأرض تحت الملك وتحت منزله الجميل وغاص الجميع في البئر — وعندئذ أصبح لدى الملك فائض من الماء »

ووجد الغواصون على عمق ستين قدماً سلالاً مملأى بالأواني المكسورة ، وقد تبدو عديمة الأهمية ، ولكنها ذات قيمة أثرية كبرى . فصناعة الفخار هي دائماً من أهم وسائل المعرفة في علم الآثار على نطاق عالمي . ويميل طراز صناعة الفخار في العالم القديم إلى أن يدوم كما هو بعشرات بل مئات من السنين . وبمقارنة الأطرزة المختلفة لصناعة الفخار في أى موقع يمكن لعلماء الآثار أن يحددوا بشكل عام تاريخها . ومع أنه لا يمكنهم سوى تخمين عمر أى قطعة بالدقة إلا أنه يمكنهم تمييز أى قطعة أقدم من الأخرى بدقة متناهية . وهكذا يرسومون خطة لتاريخ صناعة الفخار يستعملونها في مواقع أخرى في نفس المنطقة .

وقد التقط الغواصون آلافاً من القطع الفخارية أو الشققات من تل الأنقاض . وحتى يتمكنوا من المحافظة على رصيدهم من هواء التنفس لأطول مدة فقد كانوا يتمددون على المنحدر ورؤوسهم إلى أعلى ويتحركون في أضيق الحدود ، وبهذه الطريقة يبقى الهواء المضغوط لأطول مدة — قد تصل إلى خمسين دقيقة ، وفي أثناءها يملأون سلاطهم — المصنوعة من الأسلاك — بقطع الفخار . وكان الطمى عند

إخراجه من الماء ناعماً ومفتتاً ولكنه سرعان ما يتحجم تحت أشعة الشمس.
الإستوائية ويتحول إلى مادة صلبة .

وكان الغواصون حريصين على ألا يزحزحوا أى حجر من الأحجار الكبيرة
فى تل الأنقاض ، لأنهم إذا حركوا واحداً منها فإنها تبدأ فى الانهيار — وهذا
يرغم الغواصين على إخلاء المكان كما أن هذا الانهيار يثير سحباً من الطمي توقف
العمل مؤقتاً .

ولعدة أيام لم تظهر سوى أجزاء من الفخار . وفى يوم من الأيام وجد ليتل هيلز
مخزاً طويلاً من العظام مغطى بكتابة المايا الهيروغليفية . وتعتبر هذه قطعة ثمينة
حتى وإن لم يتمكن علماء الآثار حتى الآن من قراءة ما عليها من المخطوطات . ثم ظهرت
بعد ذلك أعداد أخرى من هذه المخاريز . وقد ظن الدكتور أندورز أنها ربما سقطت
مصادفة من فتحات المايا أثناء رفعهم الماء من البئر . ولكن اكتشفت أشياء أخرى .
بعد ذلك مباشرة مما دل على استعمال شريرة لهذا البئر — ومن الأمثلة على ذلك
نأى من الطين ، وتمثال صغير لرأس ، وحلقات للأذن ، وحلى أخرى للجسم ، ثم
عظام بشرية ، مما دل على أنه قد قدمت تضحيات إلى بئر دزيبيلتشاتون كما حدث
فى تشيتشان إيتزا .

واستغرق استهلاك كل ما فى تل الأنقاض على عمق ستين قدماً أسبوعين .
ووصل الغواصون إلى مستوى ثمانين قدماً فى العمق . وهبط الغواصون ورؤوسهم
إلى أسفل إلى الأعماق الموحلة الرطبة للبحث عن كنوز المايا . وبدأوا ينزعون
الأواني من الطين بكل حرص ، وكان بعضها مكسور وقليل سليم ، وهى أمثلة
رائعة على فن وطرز المايا . ثم وجد ماردن بعض أجزاء من الشعب المرجانية .
ولما كانت الشعب المرجانية لا تنمو فى الأماكن التى لاتصلها الشمس ، فلا بد وأن

هذه الأجزاء قد أُلقيت طواعية في البئر ، ربما كجزء من بعض الشعائر الدينية التي عني عليها الزمن .

ولم يهتم الغواصون كثيراً بالعلل الناجمة عن الضغط ، طالما كانوا يعملون على عمق ٦٠ قدماً ، بل وكانوا يبقون تحت الماء بما يقرب من الساعة ، ويكررون الهبوط عدة مرات في اليوم دون أن يخشوا أى نتائج سيئة . ولكن عندما تحرّكوا لعمق أكبر ، أصبح للضغط قوة يجب وضعها في الاعتبار ، إذ يذوب النيتروجين ببطء داخل الجسم ، وإذا صعد الغواص إلى السطح بسرعة كبيرة أو مكث تحت الماء مدة طويلة أو كرر عمليات الغطس عدة مرات في نفس اليوم لتحويل النيتروجين إلى فقاعات غازية تسرى في الدم مسببة شللاً أو موتاً مؤلماً .

وفي يوم ما غامر كل من ماردن وليندليز وغاصا إلى أقصى نقطة عميقة في البئر — على مستوى ١٤٤ قدماً — وبقيا هنالك خمسة عشر دقيقة فقط ، وحرصا على أن يعودا إلى السطح بسرعة خمسة وعشرين قدماً في الدقيقة . ولكنها كانت المرة الثالثة التي يغوصون فيها في نفس اليوم ، ويبدو أن جهاز ماردن قد امتص من النيتروجين أكثر من الواجب بالرغم من أنه لم يبق في الماء أكثر من اللازم . وبعد أن صعد إلى السطح بخمس دقائق بدأ يحس وخز آلام في ذراعه الأيمن .

وأدرك ماردن — وهو المحنك على الغوص لمدة سبعة عشر عاماً — أنه لا بد قد امتص من النيتروجين أكثر من اللازم ، فلم يضع وقتاً طويلاً ، وربط خزاناً جديداً مملوءاً بالهواء المضغوط إلى ظهره وهبط إلى عمق ستين قدماً وبقي هنالك لمدة عشرة دقائق آملاً أن يتخلص من معظم النيتروجين الزائد ، ثم بدأ يصعد بحذر وببطء . ولكن الآلام عاودته . فهبط ثانياً وبقي عشرين دقيقة على عمق ثمانين قدماً ، ومع ذلك اختلج ذراعه بالآلم عندما وصل إلى السطح ، وكان

يرتعد من البرد وقد ازرق لونه فلم يكن هناك مجال للغوص مرة أخرى وأدرك أنه في حالة خطرة وأنه أصيب بالمرض الناتج من زيادة الضغط.

وأعد أحد المهندسين غرفة ضغط للاسعاف السريع على اليابسة ودخلها ماردن، وكذا ليتهلز رغم أنه لم يكن يشعر بأى ألم ولكن زيادة في الاحتياط . ولكن هذه الحجرة لم تدمهم بالضغط المطلوب ودبرت حجرة أخرى على وجه السرعة وأدخل فيها ماردن بمفرده . ودلت الجداول الإحصائية للضغوط على أنه يجب إبقاء ماردن لمدة إحدى عشر ساعة لضغط يعادل عمق ١٦٥ قدماً لتخليص جسمه من النيتروجين الزائد . ولذا أدخل في خزان مملوء بالزيت الساخن ثم زيد ضغط الهواء الداخلى بما يلائم الضغط المطلوب . وكان أصدقاؤه يطرقون جدار الخزان بين حين وآخر ويرد عليهم ماردن بطرقات ضعيفة ليخبرهم أنه لا زال على قيد الحياة أو أنه غير مستريح تماماً . ثم أطلق سراحه بعد ست ساعات وإثنى عشر دقيقة وخرج شديد الذبول والبلل . فأنخزان حتى بعد التعديلات التى أضيفت إليه لم يصل إلا إلى ضغط يعادل عمق مائة قدم . وشعر ماردن بتحسن ولكنه كان لا زال يعانى من الألم . وهنا بدأ ليتهلز يشكو من تصلب في رقبته وأنه لا يمكنه النهوض .

وعندما سمعت قنصلية الولايات المتحدة القريبة من ميريدا عن المشكلة اتصلت بمدينة مكسيكو سيتي ، حيث قام السفير هناك بعمل الترتيبات اللازمة لنقل كل من الرجلين بالطائرة إلى فلوريدا ، حيث يوجد لدى البحرية حجرة لتنظيم الضغط المطلوب ، وكان على الطائرة أن تطير على ارتفاع تسعة آلاف قدم فقط لأنها لو ارتفعت عن هذا فستمتدد فقائع النيتروجين في الأوعية الدموية للمرضى مما يزيد الحالة سوءاً .

وقد أمضيا أربعاً وأربعين ساعة وستاً وعشرين دقيقة في خزانات البحرية .

وكانت جلسة فكهة ، ولكنهما خرجا منها وقد شقيا من الألم . وبعد عدة أيام من الراحة تمكنا من العودة إلى دزييلتشالتون . ولقد كانت هذه التجربة القاسية مثلاً حياً عما يلاقيه علماء آثار ما تحت الماء من مخاطر .

ولقد كانت أسابيع البعثة الأخيرة في ذلك العام مثمرة . فقد هبط الغواصون مع انحدار البئر حتى وصلوا إلى مستوى لا فائدة فيه . ثم عادوا إلى تل الأقباض على عمق ستين قدماً حيث حصلوا على سلسلة من المقتنيات منها تمثال من الطين للجغبور أو النمر الأمريكي طوله خمس بوصات ، وطبق ذو لون برتقالى لم يمس تقريباً ، وسبحة من حجر الصوان ، وعظام منقوش عليها بالهيروغليفية ، وقناع خشبي غريب قال عنه ماردن « يبدو من هذا الوجه ذى الوجنت البارزة ورداء الرأس الغريب ذى المفرقين المرتفعين والقم الواسع المفتوح أنه أقرب إلى الإفريقى منه إلى المايا » . وكذا ظهرت أشياء كثيرة تصلح للعرض فى المتاحف .

ولم ينته العمل بعد فى دزييلتشالتون ، فبعض المواقع الأثرية لم تستهلك تماماً ، وكثيراً ما تعود البعثات لتفتح عروقاً جديدة من الكنوز . وربما يكون قد تم استخراج كل المحتويات الهامة من بئر دزييلتشالتون ، ولكن لا يزال باقياً الكثير من الآبار الصغيرة فى نفس المدينة . وسيشغل حفر الأجزاء المدفونة من المدينة علماء الآثار لعدة سنين قادمة .

وهناك موقع آخر ساعد فيه الغواصون بالجلد علماء الآثار على إلقاء الضوء على مدينة المسايا . وهذا الموقع هو بحيرة أماتيتلان بجواتيالا . ففى سنة ١٩٥٤ بدأ الغواصون بالجلد فى اكتشاف آثار المايا الفنية فى هذه البحيرة ، أولاً على أساس هواية ، ثم تحت الإشراف الدقيق لعلماء الآثار المحترفين .

وقد كانت بحيرة أماتيتلان هى مركز مدينة « مايا الأراضى المرتفعة » وهى

أقل شهرة من ثقافة « مايا الأراضى المنخفضة » الموجودة في يوكاتان وجنوب المكسيك — فلم يبن شعب مايا الذى يقطن الأراضى المرتفعة معابد حجرية مهيبية وأهرامات من النوع الذى يسلب لب وخيال الزائر في يوكاتان ومدن الأدغال فى الأراضى المنخفضة بهندوراس وأجزاء من جواتيمالا . وقد انهارت منازلهم وتحولت إلى تراب على مدى التاريخ وكانت مصنوعة من الطين التى — اللبن — الحمص بحرارة الشمس والمليس بالطين . وقد نمت الحشائش على الروابي التى كانت فى يوم ما تصور مايا الأراضى المرتفعة .

كذلك كان شعب الأراضى المرتفعة أقل تقدماً من الناحية الثقافية عن المايا فى الشمال ، فلم يستعملوا تقويم المايا الدقيق لدرجة خيالية ولا كتابتهم الهيروغليفية المشهورة أو فنونهم المعمارية الجذابة . ولكل هذه الأسباب ظل علماء الآثار يجهلونهم حتى عهد قريب ، كما كرس كل مجهودات الحفر الأثرى لوسط أمريكا للكشف عن ثقافة الأراضى المنخفضة التى تستحق الاهتمام .

ولقد تم بالفعل القيام بقدر كبير من الحفر فى العشر السنوات الأخيرة . ولكن أكثر آثار مايا الأراضى المرتفعة أهمية هى التى وجدت فى قاع بحيرات جواتيمالا . فقد اكتشف أحد الباحثين غير المحترفين عن الآثار أثناء غطسه فى إبريل سنة ١٩٥٥ فى بحيرة أوماتيتلان وهى على ارتفاع أربعة آلاف قدم فوق سطح الماء وسبعة عشر ميلاً جنوب عاصمة جواتيمالا وتسمى مدينة جواتيمالا — عثر على إناء فخارى سليم . وفى خلال سنوات عديدة تالية وجد بعض العواصين بالجلد ما يزيد على ستمائة إناء ومباخر ونحت على الحجر .

ووصل إلى الدكتور « ستيفان ف . بورهيجى » سنة ١٩٥٧ خبر هذه الاكتشافات ، وكان عالم الآثار هذا (وهو مجرى الأصل ويعيش الآن فى

الولايات المتحدة) على رأس بعثة في ذلك العام في منطقة الأراضى المرتفعة لحساب جامعة سان كارلوا بجواتيمالا ، وقد أثار اكتشاف العالم الهاوى اهتمامه وقرر في الحال أن يقوم باكتشاف منظم للبحيرة على امتداد خط سير جاك إيفز كاستو الذى قام بأعمال مشهورة في جرانند كونيغولويه قبل ذلك بسنوات قليلة .

وقد أدرك علماء الآثار أن بحيرة أماتيتان تحتوى على آثار المايا حتى قبل أن يجد أول غواص بالجلد اكتشافه : فقد لاحظ المسافرون منذ أكثر من مائة عام ، أن بعض الأواني الفخارية القديمة تظهر على شواطئ البحيرة وفي مياها . ورأى أحد علماء الآثار الألمان في سنة ١٨٩٦ وهو يزور البحيرة أوانى غريبة «مبرشمة» وجدت في البحيرة .

ثم درس علماء آخرون بما فيهم الدكتور بورهيجي الأوانى الفخارية التي وجدها الصيادون في البحيرة ، ولكن أحداً لم يكن يتوقع أبداً أن البحيرة مخزونة بالعاديات الماياوية .

وبدأ الدكتور بورهيجي برسم دقيق لكل مواقع الاكتشافات التي تمت في البحيرة منذ سنة ١٩٥٥ ، وقسمت البحيرة إلى الحوض الأعلى والأسفل اللذين تصلهما قناة « عنق الزجاجة » ، وهى ضيقة وعمقها ست أقدام فقط . ولم يوجد شيء ذو أهمية في الحوض الأعلى ، ولذلك ركز علماء الآثار علمهم على الحوض الأسفل حيث يختلف العمق من ١٠ — ١٣٠ قدماً .

وفحص العلماء الأشياء التي وجدها الهواة والتي تزيد على السمائة ، وعرفوا أن هناك تسعة مخابء مطمورة منفصلة : سبعة منها في الشاطئ الجنوبي بجانب الينابيع الحارة الفوارة ، والاثنان على الشاطئ الشمالى .

ولحسن حظ الدكتور بورهيجي وجماعته أن الهواة سجلوا بدقة كل ما لقوه بالنسبة لكل قطعة وفي أى موقع وجدوها والعمق الذى وجدت عنده. وقد كتب الدكتور بورهيجي يقول « تتكون العينات من أطباق عميقة للقران ، وأوان مبرشمة ، ومواقد للبخور يتفاوت ارتفاعها ما بين بضع بوصات وأربع أقدام ونصف . وكانت مواقد البخور ذات قسمين أو ثلاث شعب، والكثير منها عليه علامات ورسوم غير عادية مثل أشجار الكاكاو والقرنوفوا كه البابايا وأزهارها بوطيور الكوتزال، ورؤوس الجنجور ، وقرود العنكبوت وغير ذلك من ثعابين بوسحالي وخفافيش وحتى جماجم بشرية، وهى رموز نادرة أو غير معروفة فى الأراضى المرتفعة من مناطق المايا ومن بين الآلهة العديدة عند المايا يوجد آلهة المطر ، وتشاك أو تلالوك وهو آلهة الجنجور ، وآلهة الشمس ، وإيكاتل آلهة الريح (نوع من الكوتزال الكوتل أى الحية المجنحة) وزيب توتك آلهة الاخصاب ، وآلهة الموت، وكذلك وجدت تصميمات جميلة لرؤوس بشرية تطل من بين فكي الحيوانات والوحوش ومناقير الطيور . »

وبعد أن تم توصيف الأوانى وتقسيمها، لاحظ الدكتور بورهيجي أن بعض أنواع الفخار جاءت من مواقع معينة مميزة فى البحيرة. وهذا قد يعنى أن كل موقع منفصل كان يمثل فترة زمنية مختلفة، وكان كل موقع بالقرب من الشاطئ مما يوحي بأن الأوعية كانت يقذف بها فى البحيرة كقرايين للآلهة .

وحق يمكن تحديد الأعمار النسبية للفخار فى البحيرة ، كان على جماعة الدكتور بورهيجي أن تعيد فحص المواقع الأثرية المعروفة على الأرض المحيطة بالبحيرة ، وكان مجموعها خمسة . أقدمها هو الموقع (ب) وكان مسكوناً من ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد إلى سنة ٢٠٠ ميلادية — يليه موقع (ج) حيث دات القطع الفخارية على أن المايا سكنوا هذا المكان من سنة ٢٠٠ ميلادية إلى ٦٠٠ ميلادية —

وكان الموقع (أ) هو أكبرها ويقع على أرض مرتفعة ويطل على الطرف الغربي من البحيرة ، ويبدو أن المايا احتلوه من سنة ٢٠٠ ميلادية إلى حوالي ١٠٠٠ ميلادية . ويتكون الموقع (أ) من خمس وعشرين أكمة — اثنتان منها ملاعب للكرة حيث أن المايا كانت تلعب لعبة لا تختلف كثيراً عن كرة السلة .

أما الموقعان الآخران (١٥) و (٢٥) فقد كانا على سفح الجبل على ارتفاع خمسمائة قدم فوق الموقع (ب) . ويرجع كل فخار هذين الموقعين إلى أكثر من ١٢٠٠ سنة . ولكن كان بعضها تصميمه يشبه ما ظهر عند غزو الأسبان لهذه المنطقة سنة ١٥٢٤ .

ويمكن مقارنة الصناعات الفخارية التي وجدت في البحيرة بأشكال الفخار التي وجدت في كل من الخمسة المواقع القائمة على الشاطئ . وقد دل هذا على أن منطقة البحيرة كانت رأمًا وأبدأ أهلة بالسكان على مدى ثلاثة آلاف سنة .

وبدأ الدكتور بورهيجي بدراسته للأواني ومواقد البخور — واستطاع أن يحدد معالم تاريخ هذه المنطقة بدرجة يبدو أنها صحيحة على الأقل بشكل عام .

فقد استنتج أن قبائل المايا المتجولة قد استقرت حول بحيرة أ ماتيتلان من حوالي ١٠٠٠ قبل الميلاد . وفي ذلك الوقت تقدموا في بناء المنازل وصناعة الفخار التي تدوم آلاف السنين . وكانوا يعيشون أساساً على الصيد وصيد السمك والزراعة ، وكانوا يقدمون القرابين من أوان فخارية للآلهة التي اعتقدوا أنها تعيش في البحيرة . ليحوزوا رضاها .

ولابد أن عيون الماء والنافورات الساخنة على الشاطئ الجنوبي من البحيرة قد دعمت هذه الاعتقادات . فالفقاع الكبيرية والاندفاع المفاجيء للمياه الساخنة كان يعزز اعتقادهم بوجود كائنات خارقة فوق الطبيعة تسكن تحت السطح .

أما البركان باكايا ذو الأربع فوهات الذى يشرف على البحيرة فكان يزلزل وينفخ بالحمم مما جعل الهنود يعتقدون أن هناك آلهة تسكن فى الجبال .

وفى حوالى سنة ٢٠٠ من الميلاد انتهت الإقامة وتحرك المايا إلى جزء آخر مختلف من البحيرة بجانب الينابيع الساخنة : وبنوا قريتين يبدو أن إحداها كانت مزاراً مقدساً لأن معظم القرابين التى وجدت فى البحيرة كانت من طراز أعمال هذه القرية .

ومن المحتمل أن البركان ثار عدة مرات خلال هذه الفترة . كتب الدكتور بورهيجي يقول « لقد وجد غواصونا أوان فى مجموعات من أربع أو خمس قائمة منتصبة ، والقليل منها مغروز فى الحمم فى قاع البحيرة . وهذا يعنى أن هذه الأشياء وضعت فى مجارى من الحمم بالقرب من الشاطئ لتهديئة غضب الآلهة التى تسكن فى البركان . وهكذا انتقلت إلى البحيرة . وفى الغالب أتت الزلازل المصاحبة لقوران البركان على كل القرابين بما فيها القرابين البشرية » .

وتشير الجحام والعظام إلى أن المايا كانوا يقدمون بين الفينة والفينة قرابين بشرية إلى الآلهة كما فعلوا دائماً فى مدن الشمال . وحوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية ظهرت إقامتين فى مكان أعلى من الجبل . وظهر من كتاب كتب فى القرن السادس عشر واسمه « تقرير عن مدينة سان جوان أماليتان » أن المواقع الموجودة فى أعلى الجبل كانت لاتزال آهلة بالسكان عند الغزو الأسبانى وحتى بعد ذلك .

ولا تزال بحيرة أماليتان تتردد فيها بعض الشعائر الدينية التى يبدو أنها ترجع إلى أيام المايا . فتقول إحدى الأساطير الحاية أنه فى الأيام السابقة لحضور الأسبان كان صنم منحوت من الحجارة واقفاً على صخرة فى الشاطئ الشمالى من البحيرة . وهبت عاصفة عاتية أثناء القرن السابع عشر على البحيرة وعلى الصنم الحجرى الذى

غاب عن الأنظار : وفي صبيحة اليوم التالى عندما جاء الوثنيون إلى مزار الصنم وجدوا مكانه تمثالا خشبياً لابن المسيح .

ولا يزال التمثال الخشبي موجوداً ومحفوظاً في الكنيسة التي بناها الأسبان في أماتيتلان . ويأتى الحجاج من كل أنحاء جواتيمالا في اليوم الثالث من مايو ، ويؤخذ تمثال ابن المسيح من مكانه بالكنيسة ويحمل عبر مياه بحيرة أماتيتلان إلى المكان الذي وجد فيه ، ويتبعه الحجاج مبتهجين في قواربهم وزوارقهم الصغيرة ويلقون الأزهار والفاكهة في البحيرة .

فمنذ آلاف السنين كانت القرايين من الفخار أو المساج ، أما اليوم فأصبحت زهوراً وفاكهة . وبعبير الدكتور بورهيجي « لقد بقي الاعتقاد في سكنى الأرواح القوية لبحيرة أماتيتلان والرغبة في اتقانها وكسب رضاها — بقي دون تغيير لفترة ثلاثة آلاف عام . وقد صمدت أو ألفت ما بين كل التأثيرات الدينية الأجنبية بما في ذلك المسيحية » .

وكثيراً ما يشبه عمل عالم الآثار دائماً عمل الخبير ! فكلاهما يجد في جمع البراهين ، — التي تبدو غير مرتبطة — حتى يمكنها في آخر الأمر أن يخرجنا باستنتاج عن مشكلة معينة كانا يدرسانها . وقد ساعدت الأواني الفخارية التي وجدت في بحيرة أماتيتلان الدكتور ستيفان بورهيجي على أن يستعيد ثلاثة آلاف عام من حياة المايا في منطقة الأراضي المرتفعة . وقد تمكن آخرون باستخدام نفس الأسلوب الدقيق من تفسير القصة التي تحكيها بقايا الفخار والسيح ليكشفوا لنا عن الثقافات القديمة المختلفة .

ومن المؤكد أن الرئات المائية والمصاعد الهوائية ستعاب دوراً هاماً في الاكتشافات الأثرية المقبلة في وسط أمريكا .

— ١٣٩ —

وقد تمحلت عادة المايا في قذف الأشياء القيمة في الآبار والبحيرات إلى أشياء هامة عندما يستعيدها الغواصون بالآلاف .

وستكشف السنين المقبلة عن كنوز قيمة من المعلومات الأثرية الموجودة في مئات من السينوت والآبار في المكسيك وهوندوراس وجواتيمالا ...

الفصل السابع

مدينة القرصان في البحر

منذ أكثر من ٢٥٠ عاماً كانت مدينة «بورت رويال» الواقعة على إحدى جزر الكاريبي الجميلة ، جامايكا ، «تعتبر أخبث مدن العالم» فقد أقام فيها القرصان «هنري مورجان» مقر قيادته ، ومن بورت رويال واصل ضرباته لنهب وسلب المدن الأسبانية في منطقة الكاريبي . وأحب كثير من القراصنة الديمويين التردد على حانات وأماكن القمار المزدهجة في بورت رويال ، وأغرقت المدينة بذهب القراصنة المسروق من الأسبان والذي سرقوه بدورهم من الأتراك والمايا .

ودبت الحياة في مدينة بورت رويال واختال القباطنة القراصنة في شوارع المدينة الضيقة تتدلى الخناجر على أردافهم وهم يترنمون بصوت أجش أغاني النصر . وأثرى كذلك التجار وأصحاب الحانات وانسابت النقود من بين أيديهم بدون حساب . ونشر تقرير عن المدينة صدر سنة ١٦٨٣ يصفها قائلاً «إنها مخزن أو مخبأ لكنوز الهنود الغربيين ... وسوق مستمرة تجد فيها كل البضائع المختارة المستوردة على الدوام ... » .

ومات قاطع الرقاب «هنري مورجان» سنة ١٦٨٨ . وبعد ذلك أصبحت المدينة محترمة إلى حد ما ولو أنها ظلت غير متمسكة بالفضيلة . وقد تكلم رئيس كنيسة عن سكان المدينة ووصفهم بأنهم «أكثر الشعوب دعارة وفجوراً وبعداً عن الله» .

وقد أقيمت بورت رويال على شريط ضيق من الرمال أو لسان طويل من الأرض الرملية تمتد في الكاريبي — وتغطي هذا اللسان مئات من المنازل من طابقين إلى أربعة طوابق حتى تصل لحافة البحر . وكثيراً ما يلقى بالحصى لردم المياه لإضافة مساحات من الأرض لتوسيع المدينة .

ولا يأتي الشتاء أبداً إلى جزر الكاريبي ، فطيلة الإثني عشر شهراً كل عام تعمرها أشعة الشمس الموهجة — ولذلك كان السابع من يونية سنة ١٦٩٢ يوماً مثالياً من أيام جامايكا ، فقد كان حاراً مشمساً رطباً ، تبرز فيه رائحة أزهار الجزيرة برائحة البحر المالحة ، وتلمع الجبال الداخلية المرتفعة في ضباب الظهيرة ، وكانت المراكب تفرغ حمولتها على موانئ بورت رويال ، والفرطاقة « سوان » تميل بجانبها على الساحل بينما يلتهم بحارتها الكسالى الحمار الذي نشر رائحته العفنة في أنفحاء المركب . أما البحارة الخالون من العمل فقد جلسوا جانباً بعيداً عن الشمس الاستوائية ، وسار بعض سكان المدينة في الشوارع المظلمة ، وكان الوقت موعد الغذاء ومعظم سكان بورت رويال داخل بيوتهم .

ومع ذلك فقد وقف سيد يبدو عليه اليسر على رصيف الميناء . ثم نظر إلى ساعته الثمينة النحاسية المغطاة بالجلد ، وكانت تشير إلى الثانية عشرة ظهراً إلا عشرين دقيقة .

وقد قدر لبورت رويال أن تكون هذه ساعة هلاكها .

فقد بدت الأرض وكأنها كلها تميد وتلتوى ، وارتفعت أصوات ثأوهات بشعة من أعماق الأرض ، كما لو أن مارداً أطلقها وهو يحتضر ، واندفعت أصوات مخيفة كالرعد من الجبال البعيدة ، ولم تكن هناك أية عاصفة في عرض البحر .

واهتزت بورت رويال وهي في قبضة الزلزال وابتلع البحار الحى المواجه للماء ،

كما لو أن يداً خفية قد سجنته — وفي لحظة واحدة اختفت القلعان القويتان :-
قلعة كارليس وقلعة جيمس . وتهافت مجاميع من المنازل الواحدة تلو الأخرى ،
كما تحطم اللسان الرملى وأصبح هشاً ، وسقطت شوارع بأكلها في الماء ، وانقلب
مرج الأجراس بكنيسة سانت بول وأحدث سقوطه على الأرض ضوضاء عالية .
وارتفعت المياه .

وانقسمت المدينة بالأخاديد الخيفة . وكما انفتحت الفجوات المثثابة ، ابتلعت
المنازل وأهل المدينة المذعورين ، وبينما الأرض تضطرب وترتج ، اكتسحت موجة
عاتية ما تبقى من المدينة .

فكأنما قضى حكم إلهي بالأذى الذي كان يعم المدينة : ففي أقل من دقيقتين
محا الزلزال ثبثي بورت رويال ، وفقد ما يزيد على ألفين من سكانها حياتهم .

وكتب السيد المبجل « إيمانويل هيث » قسيس كنيسة سانت بول (وكان
شاهد عيان للكارثة بعد حدوثها بقليل) أنه في اليوم المشؤم كان هو وجون هويت .
— نائب حاكم جامايكا — على وشك الانفجار من احتساء خمر الظهيرة عندما
انفجرت الاهتزازات .

وصرخ السيد هيث مذعوراً « يا إلهي .. ماهذا ياسيدى ؟ » . فأجابه الحاكم
هويت بهدوء « إنه زلزال ، لا تخف وسينتهى سريعاً » .

وعاش الإثنين — وكما كتب هيث « وفي خلال ثلاث دقائق .. ادهزت
بورت رويال — أجمل مدينة في المستعمرات الإنجليزية ، وأحسن مركز تجارى ،
وسوق في هذا الجزء من العالم ، والمدينة التي تفوق كل المدن في غناها وما فيها من
الأمشياء الجيدة — ادهزت وتمزقت إرباً ، وغاص معظمها ، وغطاها البحر .

ونشر تقرير آخر عن هذه الحوادث يقول « لقد بدأت الأرض تهتز وتلهث
وتتلاطم كال موج الهائج ، وبحركة سريعة جلبت الأرض وانفتحت ثم قفلت ،
وباعت في ثنائياها الأهالي ، وفي بعضها كانت تطبق على منتصف أجسامهم
وتضغظها حتى الموت . . . وكان يصاحب هذا . . . دوى سقوط الجبال على بعد .
بينما تحولت السماء إلى اللون الأحمر الكثيب كما لو كانت فرناً مشتعلًا » .

ولذلك تعتبر هذه الكارثة من الكوارث المفاجئة التي تهلك فيها مدينة في
لحظات : إنها حقاً حوادث بشعة ، ولكن — إذا أردنا الصراحة وبدون اعتبار
لأى مشاعر — فإن معظم علماء الآثار يطمنون من أعماق قلوبهم تعدد مثل هذه
الكوارث في تاريخ البشرية — لأننا بذلك نستكمل معلوماتنا عن الماضي .

وينبع هذا الشعور القاسى من أنه عندما تترك مدينة تاريخية في متناول اليد
تخفى ثعالب على مدى العصور . فقد حدث أن أتلّف الرومان الآثار الرومانية
المرمية ، عندما تركت لفترة تصل إلى ألف عام ، وذلك عندما فتتوها لاستخدامها
في منازلهم — وهذا يفسر ما تبقى من هيكل الكولايسيم المتهدم المشهور في
روما . كما أن المواقع المكشوفة عرضة لهجمات لصوص الكنوز وتسلبهم للبحث
عن الذهب محطمين كل ما لا يهمهم . كذا ترى الماشية والماعز في تلك الأماكن
وتتمحو الكتابة التي لا تقدر بثمن ؛ ويلعب فيها الأطفال ويعيشون بالأواني القيمة
ويستغل تجار العاديات كل ما يمكنهم حمله من أجل الثراء .

ولذلك ، فلنكم يسر علماء الآثار عندما ينهار كل شيء في لحظة واحدة ،
ويختفى عن الأنظار بدون أن تترك أية فرصة لمزيد من التحطيم أو النهب . وتعتبر
مدينة بومبي مثلاً كلاسيكياً على ذلك : فقد دفنت تحت هشيم البراكين الخفيفة
التي لم تؤثر على الأبنية ومحتوياتها ، بل وأبعدت اللصوص عنها لمدة سبعة عشر
تقرناً . وقد كتب عالم الآثار ليونارد وولى يقول « إذا كانت الأمور تسير بيد عالم

الآثار الميداني لمتى أن تدفن كل عاصمة تحت هشيم بركان مناسب مجاور . إن عمال .
المواقع الأخرى لينظرون بعين الحسد عندما يزورون بومبي ، و يرون المقتنيات .
الرائعة من مباني ومنازل لا تزال قائمة حتى الطابق الثاني ، وجدرانها مرسومة ،
وكل أدوات وفراش المنازل ما زالت قائمة في مكانها ، كما تركها أصحابها عندما
هربوا من الكارثة » .

وتعتبر بورت رويال حلماً آخر من أحلام علماء الآثار : لقد اكتشفت .
المدينة بأكملها في لحظة ، ثم دفنت تحت الأمواج ، حيث لن يمسها سوء عدا
تحللها بالماء — مدينة كاملة من القرن السابع عشر تقع تحت المياه التي تبعد قليلاً
عن جاميكا . وقد سدت عليها المياه ، ولم يمكن استعادة كنوز بورت رويال .
الغارقة إلا منذ سنوات قليلة .

أما الرجل الذي أنقذ بورت رويال من قبضة التاريخ فهو مكتشف أمريكي
وغواص ومخترع اسمه « إدوين أ . لينك » سنة ١٩٥٦ . وقد زار لينك جاميكا
في زورقه المسمى « غواص البحر » وقام باستكشاف أولى مدينة القرصان المفقودة ،
وخيل إليه أنه سيرى سقف أبنية بورت رويال خلال الماء . ولكنه عند ما نظر
إلى أسفل لم ير شيئاً سوى القاع الموحل الذي يتراوح عمقه من ٢٠ — ٤٠ قدماً .
ومع أن مياه الكاريبي رائعة كالبللور ، إلا أن تيارات الجداول الجبلية في موقع
بورت رويال قد حمت أطناناً من الطمي إلى الميناء عبر القرون فتراكت هذه .
الرواسب الطينية على بعضها .

وحاول لينك أن يطور قاع بعض المساحات ، وحفر لعمق ياردتين من الطمي .
المتراكم ووصل إلى الجدران الحجرية لحصن جيمس ، ولكنه أدرك أن أدواته .
غير كافية لهذه المهمة . فن الضعب العثور على مباني بورت رويال في الرواسب .

الطينية والوحل ؛ بل إن من الحال رفع أى شىء من الأثقال . ولكنه عمل على الحصول على أحد مدافع حصن جيمس . ثم ترك جاميكا لتنظيم بعثة كاملة لاثقة .

وصمم لينك زورقاً جديداً أسماه أيضاً « غواص البحر » بحيث جعله أول مركب صمم خصيصاً للبحث عن آثار ما تحت الماء . وأعد القارب المعدنى الذى يبلغ طوله ٩١ قدماً بسوارى قوية وأوناش كهربائية لرفع الأشياء الثقيلة من البحر . وجعل فى باطن الزورق ألواحاً زجاجية لتمكنه من رؤية قاع البحر مباشرة ، وزوده بالرادار وآلات الاستماع للصدى ، وهى آخر ما وصل إليه العلم فى أدوات الاستكشاف . وخصص حجرة خاصة للغوص ، بحيث يمكن الدخول إليها من كل من ظهر الزورق ومن الماء . وأعد بالقارب مخزناً كاملاً من الرئات المائية وأقنعة الوجه والزعانف . وكذلك أعد « غواص الشعب الصخرية » — وهو اسم قارب طوله ١٨ قدماً يدور بواسطة محرك لنفاثات مائية يستخدم فى المياه الضحلة والمياه ذات الشعب الصخرية .

وأراد لينك أن يعرف ما كانت عليه المدينة قبل أن يبدأ عملية التحديد ، ولكن ثبت أن ذلك من الصعوبة بمكان ، فلم يجد خرائط لبورت رويال فى الأيام التى سبقت الزلزال . وكان أحسن ما وجدته هو خريطة وضعت سنة ١٨٢٧ وصفت فيها حدود المدينة الأصلية بطريقة غير دقيقة . ووجدت خريطة أخرى فى المتحف البريطانى كانت أحسن نوعاً ما من حيث تحديد مكان الجزء الغارق من المدينة التى مضى عليها الزمن ، ولكنها ليست كما يجب تماماً . ولذا قرر لينك أن يقوم بنفسه بعمل مسح للمكان .

استخدم لذلك اللش « غواص الشعب الصخرية » وزوده بأجهزة يدوية

لتحديد المكان بالصدى . وقد صاحب لينك بحار مشهور يدعى الكابتن « ب . ف . ويمز » ليساعده على مسح المكان . وبدأ العمل فى يونية سنة ١٩٥٩ ، وجالا بالنش فوق موقع المدينة المختفية مسجلين أصوات الأعماق : هالمناطق الضحلة تعنى المباني ، والعميقة تعنى مسافات بينها .

وباستخدام نتائج تسجيل أصوات الأعماق فى القرن العشرين مع حجج ملكية القرن السابع عشر أمكن لآل لينك أن يعملوا خريطة دقيقة نوعاً ما للمدينة الغارقة . وأدرك لينك أن الخريطة ليست كاملة : فالمدينة لم تفرق إلى أسفل مباشرة ، ولذلك فلا بد وأن كثيراً من المباني انزاحت عن مواقعها الأصلية وهى تصارع الزلزال . ومع ذلك أحس لينك أن الخريطة كافية لاستعمالها كنقطة بداية .

وبدأ الغطس .

كانت المحاولة الأولى على موقع مخازن الملك . حيث كانت تخزن البضائع الثمينة فى مجموعة من المخازن المنبسطة غير البعيدة عن حصن جيمس . وكما كتبت مسز ماريون كلايتون لينك :

« وقد ازدادت روح الاهتمام فى ذلك اليوم الأول عندما بدأت الكراكة تعمل . فلأمر ما توقع كل منا أن يرى تواجهاً مباشراً . وكانت هناك أصوات فى أسفل عنق المصعد الهوائى . ثم اندفعت مع الماء بعض الأقاوض بقوة وصلصلة عالية . واصطدمت بسطح الصندوق وقد خرجت إلى الحافة تاركة وراءها آثاراً موحلة للطين والحصى .

وفى عصر ذلك اليوم انتشر على الصندوق كوم من الخلفات ؛ وقد ظهرت

فيه هنا وهناك أجزاء من الصيني والفخار والزجاجات المكسورة وكلها أحدث من الزلزال . وأنتج العمل في عديد من الأيام التالية نفس النتائج غير المشجعة ، ولم يخرج من فوهة المصعد الهوائى سوى الوحل . وقررت جماعة لينك أنه من المحتمل أنهم ينقبون في منطقة غير مستعملة من الخزن الذى يبلغ طوله ٢٣٤ قدماً . أو في جزء كانت تخزن فيه المواد التى تتلاشى مثل القطن والطباق والسكر . وقد أشارت ماريون لينك أنه « من الممكن أن نحفر إلى الأبد في هذا المكان دون أن نصيب القسم الذى تحفظ فيه الأشياء القيمة » .

ورجعوا إلى الخريطة . وبعد مناقشة طويلة تحركوا « بنواص البحر » إلى نقطة أخرى بالقرب من الجدران الغربية من حصن جيمس وأنزلوا المصعد الهوائى إلى كوم الأتقاض مرة ثانية .

فواتهم حظ أسعد في هذه المرة : فبمجرد أن بدأ المصعد الهوائى يحفر في الطين ، بدأت تظهر أجزاء من زجاجات الخمر المعتقة ، وأجزاء من أنابيب فخارية ، وكتل من الفحم ، والطوب الأحمر ، وصحاف مكسورة ، وأشياء أخرى من بقايا القرن السابع عشر .

ولم يترك آل لينك المصعد الهوائى ليقوم بكل الحفر ، فكثير من الأشياء القابلة للكسر قد تتلف أثناء رحلتها خلال الأنبوبة المعدنية . ولذلك فبينما كان الغواصون يسندون قاع الكراكة ويوجهوها في قاع البحر ، كانوا أيضاً يتحسسون الوحل بأنفسهم ويحاولون تحديد مكان الأشياء القابلة للكسر قبل أن تمتصها الكراكة وترفعها .

ولقد كان « التحسس » هو التعبير السليم للعمل في هذه المرحلة . ففي أثناء عمل المصعد الهوائى كانت تنثور زوبعة من الطمي تمنع الرؤية أبعد من عدة

بوصات . وحتى عند إيقاف تشغيل الكراكة الكبيرة كانت المياه معتمة بحيث لا يمكن رؤية الأشياء على بعد أكثر من قدمين من قناع وجه الغواصين . وبعد عمل استمر عشرة أسابيع أصبحت المياه رائقة بشكل يسمح بالتصوير تحت الماء لمدة ثلاثة أيام فقط .

فالعواصون الذين كانوا يتحسسون عملهم بواسطة اللمس فقط نزعوا الكثير من الكنوز عن الطين أولاً عن طريق مغرفة نحاسية ذات ثقب لها يد طويلة ، ثم بواسطة ملاعق من الزنك والصحاف وزجاجات الروم المنتفخة البطن . وأعلن الغواصون أنهم يعملون بالقرب من جدار بالطوب الأحمر ساقط القاع . لم يكن هناك شك في أنهم يكشفون القناع عن مخلفات المدينة التي هدمها الزلزال .

وكما تقدم العمل ازدادت متاعبه . ومع أن كل فرد في الفريق بما فيهم مسز لينك كانوا من الغواصين الماهرين ، فإن أحداً منهم لم يتعرض من قبل للعمل في مثل هذه الظروف الموحلة . وكان هناك خوف دائم من خطر توقف مفاجيء نتيجة تقويض المصعد الهوائي للجدران الطوية غير الثابتة ، كما شكل المصعد الكهربائي بذاته مشكلة أقل خطورة للغواصين . وكتبت مسز لينك تقول « كثيراً ما كان المصعد الهوائي يخطف قفازات الغواصين في كرشه الجشع ويرفعها إلى الونش بل كنا نتوقع أن نرى غواصاً بطوله في يوم ما يبرز لنا من الطرف العلوى للأنبوبة » كذا بعض الأشياء الطبيعية تتجول عفواً في المكان مثل الباراكودا وكلب البحر وعروق عفنة في ظلال المدينة المفقودة المعتمة . ولكن أحداً لم يصب طيلة الصيف بإصابات ذات خطورة ، عدا جرح في أصابع القدم أو زيادة الضغط على طبلة الأذن ، رغم كل المشاكل التي كانت تهدد بالخطر .

وقد أثبتت إحدى الآلات الحديثة التي تعتبر اليوم أساسية بالنسبة لعلماء

آثار ما تحت الماء أنها لا تقدر بـشئ، وأنه لا غنى عنها لمكتشفى بورت رويال — عبارة عن الكشاف المعدنى الذى يشير إلى وجود المعادن تحت الوحل . وقد راقب فريق لينك الكشاف المعدنى وهو يعمل على قاع المحيط وتظهر منه نتائج مثيرة . ففي يوم ما ظهر إناء نحاسى القلى يحوى عظاماً ناصعة البياض . وهذا دليل على أن بعضهم كان يطهو قطعة من اللحم فى نفس اللحظة التى حدث فيها الزلزال « وعلق إد لينك بقوله « يمكنك رؤية آثار السكين على العظام » .

وظهرت فى نفس المكان أدوات أخرى تستعمل فى المطبخ؛ قصعة من الزنك، ووحجر المسن ؛ وشمعدانات نحاسية ، وهاون خشبى ؛ وشواية حديدية من مدفئة ، وخمس أوان التجمت ببعضها بفعل الماء . ولا بد وأن ذلك كان مطبخاً معداً لخدمة عدد كبير من الناس . ورجع الغواصون إلى الخريطة واستنتجوا أنهم إما فى مطابخ حصن جيمس ؛ وإما فى حانة ملك من كان يدعى جيمس ليتلتون — وهذا الافتراض الأخير أقرب للصواب .

وعندما فحص أحد الخبراء من معهد واشنطن المواد التى رفعها المصعد الهوائى من موقع المطبخ ، أشار إلى كتلة من الملاط ، وعلق على أن جدران البناء كانت مجدولة ، أى إنها صنعت من أعمدة لفت على بعضها وربطت ثم غطيت بطبقات من المونة . وأكمل بناء الصورة اكتشاف بلاط أحمر وطوب أسود . فالبناء الأبيض المغطى بالملاط والسقف الأحمر لا بد وأنه كان أحد أماكن الأكل المفضلة فى بورت رويال . « وقال إد لينك » من الصعب أن نجد اليوم مطبخاً آخر فى العالم به كل محتوياته كما كان عليه منذ ثلاثمائة سنة ، ولو كان على اليابسة لتحطم أو على الأقل تأثر بالمدينة منذ زمن طويل . وهذه إحدى مميزات علم آثار ما تحت الماء .

وشاركت بحرية الولايات المتحدة فى شهورها التالية بستة من

الغواصين . وطاف فريق البحرية بأقاصيص بورت رويال بحثاً عن الأسلحة . واستخدمت في «غواص الشعب الحجرية» آلة تشغيل قوية لإزاحة الطين، وذلك بتصويب مدافع مائية تحت ضغط عال، وبذلك تمكن البحارة من العثور على ذخيرة المدافع من أحجام مختلفة . وكذلك رفع الغواصون بعض الجدران المتساقطة تحت الوحل شرق المخازن . وهنا على أنقاض مرفأ كان يملكه مواطن في بورت رويال يدعى همفري فريمان ، وجد الغواصون إحدى زجاجات الروم على شكل بصلة — والغريب أن غطاءها الفليني كان ما يزال في مكانه . وبعد ذلك بلحظات ظهرت زجاجة أخرى بغطائها وقد ثبت بسلك نحاسي ملتو — وبهزها ظهر أن بها شيئاً ما .

ولم يمالك إد لينك نفسه من أن يتذوق الخمر المعتقد . وكانت تجربته مشابهة تماماً لتجربة كاتبين كوستيو في الباب السابق — فقد عمل ثقباً في الغطاء لسحب جزء من محتويات الزجاجة . وكشر إد لينك بوجهه عند ما ذاق السائل الأصفر . وتتم « بشع إن طعمه يشبه الخل الشديد الملوحة — أعتقد أن خمر عام ١٦٩٢ كان شيئاً » . وقد ألقى كوستو نفس النكتة في جران كوينجويه قبل ذلك بست سنوات . وكانت قيمة الزجاجات في بورت رويال مثل جرار جران كوينجويه : فقد ظهرت بالمثلثات أولاً زجاجات صودا بتاريخ حديث ، ثم زجاجات القرن التاسع عشر التي سقطت من اللنشات العابرة أو رماها رجال كانوا على اليابسة ، ثم زجاجات روم من القرن الثامن عشر داكنة ومستديرة ، وأخيراً زجاجات ما قبل الزلزال وتتميز بشكلها الشبيه بالبصل، وغالباً ما كانت مغلقة بالشعب المرجانية . وقد علق أحد الخبراء على ذلك بقوله « لا بد وأن عدد زجاجات القرن السابع عشر في بورت رويال كان أكبر من عددها في أي مكان آخر من العالم » ، وأدى تعريض الزجاجات للهواء إلى تفتتها وتناثرها ، ولذا تعلمت جماعة لينك أن تضعها في أوان محتوية على مياه لحمايتها .

ومن أعجب الأشياء التي أحضرها الغواصون ، بندقية ذات محور متحرك مغلقة بطبقة من المرجان ترجع بطرازها القديم إلى مائة عام قبل الزلزال ، وكانت من نوع البنادق التي كانت تستعمل في إسبانيا في القرن الخامس عشر ، فهل ياترى كان هناك في بورت رويال من هو مغرم بجمع البنادق الأثرية ؟ لقد أقام الأسبان بعض المستعمرات في شاطئ جمايكا الشمالى في القرن السادس عشر ، فربما كانت إحدى البنادق التي أحضروها معهم . ولكن إدلينك تقدم بافترض آخر ، لا يمكن إثباته ولا يمكن نفيه ، ولكنه يثير الخيال فقال : « يحتمل أنها جاءت من إحدى سفن كولومبوس عند ما حاول أن يرسو بها في خليج سانت أنا على الشاطئ الشمالى . وعند ما ألقذ الأدميرال ورجاله ، كان عليهم أن يتركوا كل شيء وراءهم ما عدا ممتلكاتهم الأساسية » .

والبندقية التي يحتمل أنها كانت ملكاً لكولومبوس هي من أكثر مكتشفات العثة غموضاً ، ولكن أهمها جميعاً كان شيئاً صغيراً جداً ، كان صغيراً لدرجة أن الغواصين الذين كانوا يتحسسون الطين لم يلحظوه ، ولكنه ارتفع مع الحصى في المصعد الهوائى ، ولم يلحظه إلا أحد غواصي البحرية وكان شديد الملاحظة : كان ذلك ساعة نحاسية مصقولة مغلقة بالقرون التي عاشتها في البحر ، وكانت تروسها النحاسية الدقيقة وبعض الأجزاء الأخرى نظيفة وغير متآكلة . وعند ما نزع الشعب المرجانية التي نمت على وجه الساعة ، أصبح من الممكن تمييز أرقام الساعات التي كانت من الفضة . أما العقارب فقد تلاشت منذ زمن طويل . وبعمل أشعة إكس على المرجان الذي غطى مينا الساعة ظهرت آثار العقارب ، وكان أحدها يشير إلى الثامنة والآخر إلى الثانية عشرة .

ودرس « إدلينك » الساعة وصورة الأشعة للحظة ثم قال « لقد وقفت الساعة عند

— ١٥٣ —

«ثانية عشرة إلا سبع عشرة دقيقة — وهو الوقت الكافي لوصول الماء إلى الآلة بعد انفجار الزلزال» .

ولكن ألا يمكن أن تكون الساعة قد فقدت بعد الزلزال بـ ١١ طويلاً ؟

ولم تتمكن جماعة لينك من البت في هذا الأمر . ووجد على السطح الداخلي لغطاء الساعة اسم صانع الساعات محفوراً عليها ويدعى بول بلونديل . وبالتحري ظهر أن بول بلونديل كان ساعاتياً هولندياً توقف عن صنع الساعات سنة ١٦٨٦ . وفي أواخر هذا الموسم أخذ إدلينك الساعة إلى متحف العلوم في لندن حيث توجد أعظم مجموعة ساعات أثرية في العالم .

وبعد عرض الموضوع على خبراء المتحف أرسل لينك تلغرافاً بهذه المعلومات :

«بعد الرجوع إلى المختصين في معهد العلوم ظهر أن الساعة صنعها بول بلونديل في أمستردام سنة ١٦٨٦ ، وكان أحد اللاجئين الهاربين من الشالون . ويشير الوقت الذي وقفت فيه الساعة إلى أن الزلزال قد حدث في الساعة الثانية عشرة إلا سبع عشرة دقيقة» .

وكانت الساعة النحاسية الأنيقة — بعد تغطيتها بكيس جلدي من أجل ما وجدته « غواص البحر » . ولكن مجموعة الملاعق والأواني والأنايب هي الأخرى قد أعطت معلومات قيمة عن حياة المدينة الهالكة في آخر أيامها .

واضطرت بعثة لينك للتوقف بعد عشرة أسابيع ، فقد حان وقت الأعاصير في جاميكا — واستمرار العمل بعد ذلك كان يعرضهم للخطر . لقد أنجزوا الكثير في وقت قصير . وصمموا خريطة دقيقة للمدينة العارقة وحرروا مئات من الحفائر الأثرية الهامة . ورغم هذا كله ، فلم تكن تلك سوى البداية . وقد قال

إدلينك « يحتاج البحث الكامل لسنين من العمل الدءوب ... تمنى فى المنازل والحانات وكل أنواع الحوانيت ومخازن الملك . ومستودعات البضائع والمراكب التى غرقت فى المرفأ ولم ترفع ، ومن المحتمل أنها اليوم من أغنى المواقع الأثرية المعروفة عن تلك الفترة من التاريخ » .

وجذب إغراء الأماكن الأخرى آل لينك . ولكن كنوز بورت رويال الأثرية لازالت باقية سليمة تحت دفء الكاريبي . وقبل أن يمضى زمن طويل سيغوص فريق آخر لإتمام الكشف . فلقد فتحت الأعمال الرائدة لإيدوماريون لينك ، ومعاونيهم الطريق ، وعاجلاً أو آجلاً كما كتب إدلينك « سيعود شخص ما إلى هناك ، وسيكافأ بسخاء سواء بالتحف الأثرية أو الكنوز التى تجعل مجهوداتنا تبدو بالنسبة لما سيصل إليه تافهة » .

فبلا شك ستغطى الأشياء التى ستظهر مستقبلاً فى موقع بورت رويال على مكتشفات آل لينك . ولكن مجهودات آل لينك لا يمكن أن توصف بأنها تافهة إلا من إنسان قاق تواضعه ، الحد مثل إدلينك نفسه . فقد أثار الطريق ، وسيدين له بالكثير مكتشفو بورت رويال الغارقة المقلون .

الفصل الثامن

استغاوة السفينة الحربية فاسا من البحر

كان اليوم العاشر من أغسطس سنة ١٦٢٨ يوم أحد مشرق في السويد ،
يصالح لإقامة مهرجان كإنزال غليون كبير لأول مرة في الماء . وكانت السفينة
الحربية الجديدة على وشك الالتحاق بالبحرية السويدية وكانت رائعة حقاً ، لها
منظر يلقى الرعب في قلوب الأعداء والفخر والاعتزاز في قلب كل سويدي ، وكان
اسمها « فاسا » نسبة إلى عائلة ملك السويد المحارب « جوستافوس أدولفوس » .

وكانت « الفاسا » بارجة أمير البحرية الجديد ، وكانت تحمل علم الفصيلة
السويدية . وعندما قامت «حرب الثلاثين عاماً» في أوروبا كانت المعركة الراهية
المعقدة التي دمرت نصف القارة قد بدأت تخمد سنة ١٦٤٨ . ولم تكن السويد
قد اشتركت بشكل جدي في الحرب حتى سنة ١٦٢٨ ، ولكن ملكها البطل
جوستاف قام بتحضير حملة متفوقة تجعل منه حامياً لأوروبا البروتستانتية ، واستمر
حتى وافته المنية في المعركة بعد ذلك بعدة سنوات . وكان الملك في حاجة إلى
سفن حربية لحماية بحر البلطيق ؛ فكانت «الفاسا» كالمداد حولتها ١٤٠٠ طن ،
وطول سطحها ١٦٥ قدماً وعرضها ٤٠ قدماً . وكان الملك يقول دائماً « إن بناء
السفن الصغيرة هو مضيعة للأشجار الصغيرة » .

وتحمل الفاسا ٦٤ مدفعاً — ٤٨ من المدافع البرونزية الثقيلة القديمة ،
و ١٦ مدفعاً صغيراً . وزينت كل كوة معدة لقوهة المدفع برأس أسد يزار دهن

باللون الذهبي اللامع ، وفمه باللون الأحمر الناري . وكذلك دهنت المدافع الموجودة على سطح السفينة باللون الأحمر أيضا لتخفى آثار الدماء التي تنساقط عليها عند اشتباك السفينة في المعركة ، ويبلغ مرماتها ثلاثين قدماً . ووضع بمقدمة السفينة أسد مطلي بالذهب مستعد للوثوب يلعب في المقدمة .

وقد أضافت شمس أغسطس الساطعة في سنة ١٦٢٨ على فاسا المزيينة بالذهب ، والحلابة باللون الأحمر رونقاً جذاباً . واحتشدت الجماهير على الرصيف لتشاهد السفينة الجبارة وهي ترتشف ماء البحر لأول مرة — وقد رست السفينة عدة شهور في المرفأ لتزود لرحلة السنة . فحملت بألفين من براميل المواد الغذائية والبيرة والبارود ومؤن من كل الأصناف . ثم حان الوقت لرحلتها الأولى ، وبلغ عدد من على ظهرها ١٣٣ بحاراً . أما المسافرين فكانوا ثلاثمائة جندي وزوجاتهم وأطفالهم .

وشعر قبطان الفاسا ويدعى « سيفيرين هانسون » بقلق بالغ بالنسبة لتصميم السفينة . كانت طويلة ورفيعة — كان يعتقد أنها أطول وأرفع من أن تحتمل ذلك الثقل الرهيب للسارية التي يبلغ ارتفاعها ١٨٠ قدماً بالإضافة إلى تركيباتها الأخرى الثقيلة . وقبل تدشين السفينة بعدة أسابيع . قام الكابتن هانسون بعمل اختبار صغير من عندياته أثناء وجود الفاسا في مرفأها . أرسل بحارين إلى ظهر السفينة وأمرها أن يجريا من الجانب الأيسر إلى الجانب الأيمن من السفينة . ولما فعلا ما أمرا به حدث أن وزنهما جعل السفينة تميل بمقدار يزيد عن القدم . وعند جريهما في الاتجاه المضاد مالت السفينة على الجانب الأيسر بمقدار قدمين . وبعبور سطح السفينة للمرة الثالثة تسبب البحاران في ميل السفينة بمقدار ٣ أقدام : فأوقف الكابتن هانسون التجربة في الحال خوفاً من أن يقلب البحاران السفينة بأكملها .

وقد راقب قائد الأدميرالية السويدية كلاس فلهنج التجربة . ولكنه لم يعلق بشيء . فالملك جوستاف متحمس لكي يرى سفينته الشاحنة وهي تبحر بعد أن انتظر بفارغ الصبر إتمام بنائها الذي استغرق ثلاث سنوات . ولم يجرؤ أحد على إخباره بمدى خطورة إنزالها إلى البحر .

وبدأ المهرجان حسب البرنامج المعد له في الساعة الثالثة ظهر اليوم العاشر من أغسطس . وأعطى الكابتن هانسون المغموم شارة البدء . وهتت نسمة رقيقة في اتجاه الجنوب الغربى عبر ميناء ستوكهولم . واتجهت السفينة فاسا (يمن تحملهم من الرؤساء الدينيين وعلية القوم الذين سيهبطون منها في اليوم التالى على جزيرة قريبة) إلى نقطة جنوب شاطئ الميناء . ولم يتحطم سوى بعض الأشعة الثانوية .

وفي اللحظة التى صاغت النسمة فيها وجه القلاع دارت « فاسا » وترنحت ومالت إلى الرصيف . وأسرع ضابط المدفعية إريك جونسون — وكان قلقاً مثل قائده على السفينة — أسرع إلى داخلها ليتأكد من أن المدافع الثقيلة مربوطة جيداً بالحبال . لأنها لو فككت من مكانها وتحركت إلى أحد جوانب السفينة فإن فاسا ستنهار حتماً .

واستقامت الباخرة بسرعة عند ما تحرك الركاب ليعيدوا توازنها . وفردت بعض القلاع ، وعندما اصطدمت الرياح بأقمشة القلاع تحركت السفينة بهدوء خارجة من الميناء . وأمر الكابتن هانسون رجاله بإطلاق المدافع الصغيرة التى على السطح ، وردت بطاربات الساحل بتحية تهنئة وهتف المشاهدون الواقفون على أحد جانبي السفينة .

وبعد لحظة واحدة هبت ريح نفخت القلاع مرة ثانية مالت السفينة حتى فتحاتها الجانبية . وللمرة الثانية أسرع إريك جونسون إلى بطن السفينة .
وصرخ أحد البحارة « ستغرق السفينة » .

ونادى جونسون آمراً « فكوا المدافع بسرعة وحركوها في اتجاه الرياح » .
وأُسرع البحارة وهم يتصببون عرقاً يفكون المدافع الثقيلة ، وبجاهدون لدفعها إلى الجهة المرتفعة من ظهر السفينة المائل ، محاولين إعادة التوازن للسفينة المترنحة .
ولكن لقد سبق السيف العزل . فلتت المدافع من أيدي البحارة، وعادت تنحدر إلى مكانها مصطدمة بالبحارة، تدكهم في جدران السفينة ، واستمرت السفينة تميل حتى .
الفتحات واختفى نصفها . وعندما استمر تدفق المياه إلى جوف السفينة اختفت فاسا فجأة . لم يستغرق الأمر كله سوى لحظة واحدة . وتحول هتاف المتفرجين على الشاطئ فجأة إلى صراخ من الرعب والفرع .

لم تبعد فاسا في رحلتها الأولى أكثر من ٤٥٠٠ قدم وهامى قدأصبحت على عمق ١١٠ قدماً في الماء . واستعادت توازنها تقريباً وهي تغرق . وبرزت صواريخها العملاقة فوق الأمواج حاملة عالياً العلم الإمبراطوري السويدي بسخريّة قاسية .

واندفعت من الشاطئ قوارب كثيرة لإنقاذ البحارة والمسافرين . وقد أُنقذ معظم من كانوا على ظهر السفينة، ولكن غرق على الأقل خمسون منهم مع السفينة .

ولم يكد يوارى الضحايا التراب ، حتى بدأت المحاولة الأولى لإنقاذ السفينة .
وعين مجلس الدولة « إيان بالمر » وهو مهندس انجليزي لرفع السفينة . وحاول سحب السفينة من الماء وذلك بإحكام ربط الحبال السمكة حول صواريخ السفينة الفارقة، وجرها بواسطة الجياد ؛ ولكن بدون فائدة . فقد نجح في دفع السفينة إلى

وضع أفق . ولكن فشل فى سحبها خارج الماء . ولم يكن حظ المنقذين الآخرين ، من سويديين أو فرنسيين أو إنجليز أو هولنديين أو ألمان بأسعد من السابقين . وانتهى معظمهم بفقد سلباتهم وخطاطيفهم الحديدية التى ربطوها فى السفينة الغارقة ..

وفى نفس الوقت أقيمت محاكمة للتحقيق فى أسباب الكارثة؛ ووضع الكابتن هانسون فى السجن بعد غرق السفينة . ولكنه ذكر أثناء التحقيق التجارب التى أجراها قبل ذلك بشهر ، والتى أمر فيها البحارة أن يمحروا جيئة وذهاباً على ظهر السفينة المترنحة . وأيد كلامه أحد ضباط السفينة قائلاً « لو كانوا قد جروا أكثر من ذلك لغاصت السفينة وهى على الرصيف » . أما إريك جونسون الذى كاد يموت من الماء وتدرج المدافع فأكد ذلك بقوله « إنها كانت ستغرق حتى ولو لم تبحر . لأن ثقل الجزء العلوى أكبر من الجزء السفلى » .

وأظهر التحقيق حقيقتين . أن قائد البحرية الأدميرال فلمنج شاهد تجارب . احتمالها فى يولية — وأن الملك جوستاف قد وافق بنفسه على تصميم السفينة . فأصبح من المخرج استمرار التحقيق ؛ ولم يكن هناك فى الحكمة العليا من يرغب فى مضايقة من هم فى الهيئات العليا . وأطلق سراح الكابتن هانسون وضباطه وحفظ الموضوع تماماً . ولازال بعض الخبراء حتى اليوم يدينون تصميم السفينة الخاطيء ؛ بينما يعتقد البعض الآخر أنه كان من الممكن تلافى المأساة لو وضعت المدافع بشكل معقول .

ومهما يكن الأمر ؛ فلقد غرقت السفينة . وحاولت مجموعة سويدية فى ١٦٦٣ عمل محاولة جديدة للاقذار ، وصمموا ناقوساً للغطس ، يمكن للغواص أن يقف فيه . ويتنفس الهواء من أعلى الحجرة أثناء تثبيته للخطاطين فى السفينة . ويبقى الغواصون كل مرة فى الماء البارد لمدة خمس عشرة دقيقة على عمق يقرب من مائة قدم يسوون

الأواح ظهر السفينة ويثبتون الخطاطيف في المدافع . وظهرت أول مجموعة من المدافع على سطح الماء في أبريل سنة ١٦٦٤ وقبل أن ينتهى المنقذون من عملهم كانوا قد استعادوا ٥٣ من ٦٤ مدفعا كانت على ظهر فاسا ويعتبر ذلك نصراً قيماً بلا شك .

ونسى العالم بعد ذلك كل ما حدث بشأن فاسا . ويبدو من الصعوبة أن نتصور أن مثل هذه الفاجعة المثيرة تمحى من الأذهان تماماً . ولكن ذلك هو ما حدث فعلاً - فقد مر قرنان ونصف من الزمن انمحت ذكرى غرق السفينة الحربية من أذهان الناس . وقرن هيكى السفينة فى ميناء ستوكهولم مجهولاً ولا أثر له . وبين الحين والآخر تخطئ بعض السفن وترمى بهرساها على الأنقاض . وبمرور السنين تراكم عليها ما يربو على الثلاثين من الخطاطيف المفقودة . ولكن أحداً لم يعلم ولم يهتم بأن يعرف ماهى العوائق الموجودة فى قاع الميناء التى تسببت فى هذه المشاكل .

وعرفت هذه القصة من جديد فى القرن العشرين . وكان أحد المؤرخين السويديين ويدعى « نلأهفلاند » يطلع على الأرشيف القديم باحثاً عن معلومات لأعلاقة لها بهذا الموضوع . ووقعت فى يده تفاصيل المحاكمة لتحقيق غرق فاسا ، ثم وجد بياناً بعمليات الإلقاء بواسطة الناقوس التى تمت سنة ١٦٦٣ - ١٦٦٤ . وكان اكتشافاً مافتماً للنظر ؛ فهناك سفينة هالكة من القرن السابع عشر ترقد مدفونة فى مكان ما من ميناء ستوكهولم !

ومن بين من انجذب خيالهم لاكتشاف الأستاذ اهنلاندسبى يدعى « أندرز فرانزن » كان قد أخبره والده - وهو طبيب من ستوكهولم - بالقصة . وقد تعود فرانزن الصنير أن يقضى أجازات الصيف فى كوخ العائلة بالقرب من ستوكهولم

باحثًا في مياهها الضحلة عن أجزاء من السفينة الغارقة ، وكثيراً ما وجد قطعاً من السفن القديمة تأكلت من الماء ولكن يمكن تمييزها .

وقضى فرانزن وعائلته صيف ١٩٣٩ متجولين في مياه ساحل السويد الغربي.. وهناك وجد أخشاباً قداً كلتها ديدان السفن وتسمى تيردوس «Teredós» . وهي ليست ديداناً في الواقع ولكنها نوع من اللزيق أو السمك الصدفى . فهي تنقر وتحفر طريقها في الأخشاب المغمورة تحت الماء وتأكل الخشب . وتسبب التيريدوس خسائر في الولايات المتحدة وحدها بما يزيد عن ٥٠ مليون دولار في المراكب والأحواض العائمة . ومن الطبيعي أنها آفة ومجلبة لدمار آثار مائحت الماء ، حيث تأتي على أشياء لا تقدر بثمن .

وتعجب فرانزن الصغير عندما لم يجد على الخشب الذى وجدته بالقرب من ستوكهولم آثار التلف الذى تحدثه التيريدوس بينما تزهو التيريدوس في المياه الغربية وتأتى على كل ما تصل إليه ، وسأل عن السبب . وعرف أن التيريدوس تعيش فقط في مياه تبلغ ملوحتها ٠٩ . أو أكثر . أما ملوحة البلطيق فتصل إلى ٠٧ . في المتوسط . وتقل عن ذلك في بعض الأماكن .

وكان هذا اكتشافاً مشجعاً : فلو كانت المياه المحيطة بـستوكهولم خالية من التيريدوس ، فلربما ظلت فاسا سليمة لم تمس ويمكن العثور عليها ورفعها من الماء . وكان هذا في عام ١٩٣٩ .

وبقيت هذه الفكرة في ضمير الصبي لعدة سنين : فإن المهمة ستتكلف الكثير وهو لا يملك الأموال اللازمة . ثم إنه لا يعرف مكان فاسا بالتحديد .

وأصبح فرانزن بعد ذلك مهندس بترول ، ودرس تاريخ البحرية كنوع من الهواية . وعندما أصبحت السكيبوا في متناول يد الجميع ، تعلم كيف يعوم بالجلد

«وأعد قائمة بعدد السفن التي عُرف أنها غرقت خارج شاطئ ستوكهولم الشرق . وكانت تزيد على الخمسين . ثم اختصر الرقم إلى حوالي ٦ ، وبدأ في البحث عنها . وكان مشروعه الأول هو إنقاذ « الريكسابلت » وهي سفينة حربية كبيرة غرقت سنة ١٦٧٦ في ميناء دالارو بالقرب من ستوكهولم . وقد اكتشف فرانزن — بالتعاون مع متحف ستوكهولم البحري القومي — ريكسابلت التي كانت ترقد على عمق خمسين قدماً فقط من الماء ، ولكن الجليد والأمواج حطمت السفينة إلى أجزاء ، كما أخذ الأهالي المحليون كثيراً من عروقها الخشبية .

وبعد ذلك استدار إلى فاسا وهي ترقد في مياه أعق وأهدأ . وقد قال له البروفيسور نيلزاهنلاند « اكتشف فاسا وستجد أثمن الكنوز » .

ولكن أين توجد السفينة ؟

كتب فرانزن « ما أن جاء عام ١٩٥٤ . حتى كنت قد قمت بجمع إحصائيات وأبحاث كثيرة وكنت على استعداد لهجوم شامل . وبدأت بمسح منتظم للقاع بالخطاطيف والشباك المعدنية ، واستعنت بزوارق بخارية بالإيجار أو الاعارة ، وتعودت الجموع البعيدة عن المهنة على رؤية شخص وحيد يشغل نفسه بنوع غريب من الصيد . وقد ضحكوا عندما أخرجت بعض الأسرة والعجلات والمواقد وأشجار عيد الميلاد . وما شابه ذلك .

وكانت قد رسمت خريطة تبين حدود القاع في الميناء ، وذلك باستخدام جهاز^١ اكتشاف المسكان بواسطة الصدى ، تلبية لرغبة المهندسين الذين أرادوا عمل تصميم لسكوربي عبر الميناء . وقد لاحظ فرانزن من تلك الخريطة أن هناك ارتفاعاً كبيراً في الأرض على بعد مائة قدم ، جنوب حوض البحرية الجاف ، على مرفأ جزيرة بكمولين . وسأل فرانز المهندسين عن هذا الجزء المرتفع في قاع البحر .

فأجابوه « لابد وأنها مخلفات من الحصى تركت عندما كانوا يرمون الحوض الجاف بالمونة » .

وعاد فرانزن إلى الأرشيف التاريخي . فقد جال في ذهنه أن الملك جوستاف كان خارج البلاد يحارب في بولندا عندما غرقت فاسا . ومن المؤكد أن أحد الأشخاص قد أرسل إلى الملك يخبره بالكارثة ، ومما لاشك فيه أنه أرفق بالخطاب تقرير مجلس البلدية المؤرخ في ١٢ أغسطس سنة ١٦٢٨ (أى بعد الغرق بيومين) يحمل إلى الملك أخبار الحادث المشؤم . وقد جاء في التقرير « وعندما خرجت السفينة من الميناء بمحاذاة تجيلفيكين هبت الريح تملأ أشرعها .. ووصلت فجأة إلى بكهولن حيث مالت على جنبها وغرقت على عمق ١٨ قامة »

فصاح « بكهولن » :

« وهذا الارتفاع في قاع البحر والقريب من الحوض الجاف — هل هو مجرد مخلفات من الحصى ؟ »

وصنع فرانزن جهازاً يساعده في البحث اسمه « محور أخذ العينات » وهو عبارة عن اسطوانة معدنية تزن ستة أرتال مخروطية الشكل وتحتوى على خراطة حادة مجوفة في أسفلها . فعندما بقذف الجهاز في الماء تقطع الخراطة شريحة من أى جزء تقع عليه .

ولكن أخذ العينات لم يأت بشيء سوى الوحل ، وقد ارتفع أحياناً وبه قطعة من لب الخشب ، ولكنه ليس خشباً قديماً . كما أن جسم السفينة فاسا كان من خشب الأرو ، وعادة يتحول خشب الأرو إلى اللون الأسود بعد قرن أو أكثر من غمره في الماء .

وأسرع فرانزن إلى موقع الجزء المرتفع من قاع البحر في الميناء مستخدماً قارباً

بخاريًا في يوم جليل من أيام أغسطس سنة ١٩٥٦ ، أى ٨٣٨ سنة منذ غرق فاسا .
ثم ألقى بأخذ العينات . فهبط إلى ما يربو على المائة قدم ، فالتقط شيئًا — فبدأ برفعه .
بقلب واجف مضطرب .

فوجد أن الخرامة قد التقطت شريحة من خشب الأرو الأسود ذى الحبيبات .
المتلاصقة — وهكذا لم يعد هناك أى شك : لقد وجد سفينة يرجع عمرها إلى عدة
قرون مضت — لقد وجد فاسا .

وحتى يتأكد فرانزن من أنه لم يأخذ عينة من مجرد دعامة خشبية أعاد التجربة
على مساحة واسعة . وكانت الخرامة تخرج كل مرة وبها شريحة من خشب الأرو .
فتوجه مباشرة إلى البحرية الملكية السويدية . وتقع مدرسة الغواصين التابعة
للبحرية عند الحوض الجاف على بعد ثلاثمائة قدم . ولم يجد أية صعوبة فى إقناع
البحرية بنقل عمليات التمرين إلى موقع فاسا .

وكان أول من نزل من غواصى البحرية رئيس الغواصين ويدعى « بيرادفن
فالتنج » ، وهو غواص محنك قضى أكثر من عشرة آلاف ساعة فى الغطس .
وأرسل فالتنج بالتليفون تقريراً غير مباشر إلى فرانزن المترقب على قارب الغطس
فوقه بمائة وعشر قدماً يقول له : « إننى واقف فى الثريد حتى صدرى ، ولا يمكننى
رؤية أى شىء » .

وكان على وشك الصعود عندما اهتز مصادفة جبل الحياة الذى يصله بأعلى ،
مما جعله يهبط عشرين قدماً فى أعماق الوحل . وفى محاولته البحث عن أى شىء
يستند إليه لمس شيئاً صلباً ، فصاح فى التليفون « إننى أحس بها وكأنها جدران .
خشبية — إنها سفينة كبيرة فعلاً . وها أنا أصعد الجدار . هنا فتحات مربعة . . .
لا بد وأنها فتحات المدافع » .

وعندما صعد فالنتج في الماء بعد ذلك بجانب هيكل السفينة وجد كذلك الصنف العلوى من فتحات المدافع • وبذا زالت كل الشكوك . فلم تعرف أى سفينة غارقة أخرى في المنطقة لها صفان من فتحات المدافع . فلا بد وأن هذه السفينة هي فاسا .

وكهرت الأخبار السويد كلها . ففي لحظة واحدة رجعت البلاد كلها ثلاثة قرون ونصف إلى الوراء — إلى العصر العظيم حيث كانت السويد قوة امبراطورية عظمى في العالم — وكانت ترتعد أمام جيوش جوستاف أدولفوس أوروبا كلها .

وجد فالنتج أن حطام السفينة غير مائل ، بل منتصب وقد غرس في الطين الصلب حتى خط العدم • وارتفعت صارياتها — رغم أنها مكسورة — إلى أعلا . وبين الوحل السائب الذى يغطى الجزء الأعلى من السفينة وجد سلاسل رجال الإنقاذ فى القرن السابع عشر . وأنزلت فى الماء المعكر بالطين كاميرا تليفزيونية نقلت إلى أولئك المنتظرين أعلا الماء صوراً غير واضحة . ولكن لا يمكن تكذيبها للسفينة العظيمة •

واستولت على السويد فكرة جريئة: لم لا ترفع السفينة قطعة واحدة • لتعاد إلى عظمتها السابقة — لا كسفينة حربية بالطبع . ولكن كقطعة أثرية ضخمة للمتحف؟

وقد بدت هذه المهمة باهظة التكاليف ، ولكن يبدو أن أحداً من أهالى السويد لم يستنكرها • وقد انتقلت عدوى الحماس من الملك جوستاف السادس إلى الجماهير . وكان الملك من سلالة ذلك الملك القديم جوستاف — وهو أيضاً من المدرسين على التنقيب على الآثار .

وأبديت شركة نبتون لإنقاذ السفن باستوكهولم استعدادها للمشاركة فى رفع السفينة بالجناح ويعادل هذا التبرع ٥٠٠.٠٠٠ دولار يلزم إنفاقها لإعادة هذا الجزء

من تاريخ السويد . أما البحرية السويدية فقد عينت غواصيه للعمل كنوع من التمرين . وانتهت من جميع أنحاء البلاد مساعدات للقيام بالعمل ، كما انتهت التبرعات ، حتى تم تغطية تكاليف المشروع والتي بلغت ٢٠٠٠٠٠٠ دولار .

ووضعت مرحلتان رئيسيتان لحماية إقناذ السفينة : الأولى رفع حطام السفينة من عمق ١١٠ قدماً إلى عمق ٥٠ قدماً حيث المياه ملائمة . وهنا يمكن إصلاحها وتقويتها بحيث لا تنضح بالماء وترفع إلى السطح .

وكان الكابتن إكسل هدرج من شركة نبتون لإقناذ السفن هو المسئول عن إتمام المرحلة الأولى من المشروع . وتضمن مشروعه حفر ستة أنفاق في القاع تحت هيكل المركب مباشرة وبعرض قاع السفينة من جانب إلى آخر ، ثم إمرار كابلات من الصلب وإدخالها في الأنفاق ، ثم تثبيتها وربطها بعوامات الإقناذ على السطح — حتى إذا تم تفريغ العوامات سترتفع ، وتجذب معها السفينة .

ووصف أندرز فرانزن هذه العملية قائلاً « إنها من أعقد وأخطر المهام في تاريخ الغطس . فهيكل السفينة مملوء بالصخور الصغيرة ولو تداعت عروق خشب السفينة لتساقطت أطنان من الصخر على الغواصين الذين يعملون أسفلها . وقد استغرق العمل أكثر من ألفين من الساعات . ومع ذلك لم تحدث إصابات مذكورة .

وحفر الغواصون وهم بأرديتهم وخوذاتهم بسبب شدة برودة الماء . ولم يستخدموا الرئات المائية — حفروا الأنفاق الستة بواسطة النفاثات المائية القوية التي كانت تحفر في المرات المتعقبة في القاع . وسحبت خراطيم الشفط الانقراض إلى السطح ، حيث فحصها علماء الآثار وصنفوها بحثاً عن أشياء قيمة . وسقطت على مر السنين في الماء مئات من الأشكال المنحوتة المتقنة الصنع التي كانت تزين جسم السفينة .

وهاهى ترفع إلى السطح عن طريق خراطيم السحب التى يشغلها العمال . وظهرت كذلك أثناء هذه المرحلة متنوعات أصغر مثل أكواب من الزنك وأنايب من الطين ومزولة أو ساعة شمسية و عملات .

وكان بعض العمال مؤمنين بالخرافات ويعتقدون أن هناك أرواحاً تحوم حول الحطام وأن هناك شبح بحار لازال ساكناً فى الحطام وأطلقوا عليه « دن جامل » أى « القديم » . وإن كان « القديم » من المفروض أنه يتضايق من إقلاقه، وحتى يهدئوا من روعه ، كان الغواصون يلقون بعملات نحاسية إلى الماء كل يوم قبل بدء العمل . ومع ذلك كانوا يخافون ويخشون « القديم » . وحدث أن أحد الغواصين استعمل النقائة المائتة لحفر نفق تحت قاعدة السفينة وأحس أن رداء الغطس بدأ يزداد وزناً — علماً بأنه عادة لا وزن له تحت الماء . ولم يعرف سبباً لهذا الضغط الذى يضغط عليه بهذا الشكل .

وتتم برعب فى تليفون الرداء « لقد مسنى (القديم) » وعندما سمعه رئيس الغواصين فالنتج الذى كان على صندل الغطس شخط فيه قائلاً : « كفى . لا تذعر . إذا كان « القديم » قد مسك فاهداً وتصرف كالرجال » ثم مضى يهدىء من روع الغواص حتى يصف له ماذا حدث له وقال له : « لقد وقعت فريسة لخيلالاتك » . واستراح الغواص عند سماعه هذا التفسير البسيط لما حدث . وزحف خارجاً من النفق وعاد سالماً إلى السطح . وهو لازال معتقداً أن ما حدث له كان إحدى مدعابات « القديم » .

ولم يتدخل « القديم » بعد ذلك . ولم يأت شهر أغسطس سنة ١٩٥٩ . أى بعد سنتين حتى انتهى حفر الأنفاق ووضعت الكابلات فى مكانها وربطت يعوامتى الإنقاذ « أودين » و « فريج » . وكانت لحظة صعبة : فهل ستقاوم

السفينة البالية التي يتقل الطين حولها جذب الكابلات وترتفع إلى السطح أم
ستنهار وتتناثر ألواحها الخشبية عند أول جذبة ؟ ؟

وأعطيت الإشارة . وبدأت المضخات تطرد المياه من العوامتين . وعند ما تم
تفريغهما بدأ يرتفعان فوق الماء جاذبين الكابلات المرتخية . ونزل غواص
ليراقب الموقف .

وبدأ يصف ما يشاهد قائلاً : لقد ارتفعت فاسا ثمانى عشرة بوصة كلها قطعة
واحدة الحال، على ما يرام .

وهكذا تم فصلها عن القاع . وبدأ عمال الإنقاذ يحركون السفينة بمنتهى العناية
في اتجاه قريب من كاسلهولين (جزيرة كاسل) . وكانت قاعدة السفينة على
ارتفاع أربعة أقدام من القاع عند ما تحركت إلى أعلا بسهولة . وسحبت تدريجياً
إلى المياه الضحلة واحتاج الأمر إلى ثمانى عشرة رفعة على مدى سبعة وعشرين يوماً
قبل أن تستقر السفينة على عمق خمسين قدماً حيث يمكن فحصها بسهولة لتصليحها .

وانتهت المرحلة الأولى والأخطر بنجاح . وجاءت المهمة الأقل خطورة ولكن
الأصعب ، ألا وهى إعادة بناء فاسا . وأشرفت على العمل لجنة من علماء الآثار :
فهبط الغواصون أولاً لإزالة الأنقاض والخطاطيف التي سقطت بطريق الخطأ على
الحطام ، وهى أدوات الإنقاذ الكثيرة التي استخدمت في القرون الماضية ، ثم
أزالوا كذلك الوحل وهياكل البحارة . وقد أمكن استعادة اثنى عشر هيكلًا
سليماً بالإضافة إلى البنادق والأواني الفخارية والصحاف الخشبية والأحذية الجلدية
وقبعة من اللباد ذات إشارة خاصة وحتى براميل من الزبد وعلى مدى فترة عامين
دأب الغواصون على ترميم عوارض فتحات المدافع وإصلاح مؤخرة السفينة وسد

كل الشقوق الموجودة في هيكل السفينة بالقلق — وقد جعلت هذه، للترميمات
السفينة متماسكة تماماً بحيث لا ينفذ منها الماء .

وفي نفس الوقت قام علماء الآثار بتصنيف وتقسيم محتويات السفينة لدراستها
واتخذوا إجراءات لحماية التماثيل الخشبية القابلة للتلف وذلك بغمرها في مشمع من
من الخارصين والفحم .

وتمت المرحلة الثانية من عمليات الإنقاذ في ربيع سنة ١٩٦١ ، وحان الوقت
لرفع فاسا إلى السطح .

فربط رجال الضفادع البشرية أربع عوامات من المطاط القابلة للنفخ إلى قاعدة
السفينة وذلك لتعويم السفينة . ثم مدت الكابلات الصاب التي يبلغ قطرها
تسع بوصات أسفل هيكل السفينة وثبتت في روافع على العوامات ، ثم رفعت
السفينة خارج المياه ، وارتفعت خمسين قدماً لتشق سطح الماء لأول مرة في أبريل
سنة ١٩٦١ — وهكذا ، بعد ٣٣٣ سنة ، انتقل فرانزن وفالتنج إلى قارب صغير
وجدوا ليفحصا السفينة بعد أن تركت المياه ، بينما هتفت الجماهير على الشاطئ
ونفخ فريق البحرية في البروجي . وصعد فرانزن بكل هبة إلى الجزء الرئيسى من
ظهر السفينة . وكان أول إنسان حي يقف على خشبها منذ ثلاثة قرون . وأخرج
فرانزن العبوس — الذى لا يؤمن بالخرافات — قطعة من العملة النحاسية من
جيبه وألقاها في عنبر السفينة الممتلئ بالماء . وعند ما سئل عن ذلك أجاب بأنها
« قربان للقديم » .

واستغرق سحب السفينة بكل حذر إلى الشاطئ شهراً . وربطوها بمحبال
وجروها إلى الحوض الجاف بيهولن ورفعوها على منصة معينة . وبدأت عملية
رشها بالماء لتبقى مبللة ، لأنها لو جفت في ذلك الوقت لتعفن الخشب سريعاً .

يعمل علماء الآثار السويديون حالياً على المحافظة على السفينة وذلك برش الخشب بمادة « يولى إيثلين جليكول » وهذه المادة الشمعية تبعد الرطوبة عن الأخشاب وتحفظها من التلف . وكذلك لا زال علماء الآثار يرفعون الوحل من السفينة بواسطة المضخات وينخلونه بواسطة مناخل من الأسلاك حتى لا يضيع أى شئ ذو قيمة . وفيما بعد سيكتشف العواصون موقع حطام السفينة في محاولة لاستعادة التماثيل الخشبية التي سقطت في الطين عند ما غرقت السفينة وكذلك صندوق الكنز الذهبي الذي يعتقد أنه كان على ظهر السفينة . وفي خلال عدد من السنين ستستعيد فاسا مظهرها الكامل الذي كانت عليه سنة ١٦٢٨ . وستوضع السفينة الشاحنة التي تلعب بالذهب الجديد والطلاء الأحمر في تركيبة معينة زجاجية بالقرب من يكمولين - سفينة ولكنها متحف يكشف بوضوح ما كانت عليه السفن الحربية في القرى السابع عشر . وقد تحتاج عملية إعادتها إلى ما كانت عليه إلى عشر سنين أو أكثر .

ومن بين الأشياء التي أقيمت من داخل السفينة زجاجة روم من خور القرن السابع عشر . وعند ما زار الرئيس أيزنهاور السويد في صيف ١٩٦٢ وذهب لمشاهدة فاسا ، عرض عليه أندرز فرانزن أن يتذوق هذا الروم ، ولكن « أيك » رفض هذا العرض ميتساً ، واكتفى بشمه معلقاً « إنه مدهش » .

ولاحظ أيزنهاور أثناء فحصه للسفينة ولوازمها أن الأسد الخشبي المعلق على رأس السفينة ليس له لسان وأثار الضحك بقوله : « قد يكون من المستحسن لو أن بعضنا ليس له لسان أيضاً » .

ويبدو أن جمهور السويد يهتم اهتماماً شديداً بكنوز السفينة وهياكلها . وقد وجد عالم الآثار أندرز فرانزن أن هذا سلوك مضحك « فكل إنسان يريد أن

يرى الكنوز — ولكن أحداً لا يدرك أنه يراها فعلاً — هذا هو الكنز . .
السفينة ذاتها . يهتم الناس بالهياكل العظمية والعملات الذهبية ، وهى الأشياء
التي لا يعبرها العلماء والمؤرخون إلا أهمية ضئيلة . فلدينا المقابر مملوءة بالهياكل
العظمية التي ترجع للقرن التاسع عشر . ولدينا الكثير من مجموعات العملات التي
بينها كثيراً من عملات القرن السابع عشر .

ولكن لدينا الآن مجتمعاً كاملاً من القرن السابع عشر مجسداً في مكانه
بسبب كاريثته ، وقد حفظه البحر ، وسيكشف لنا كثيراً من الأشياء . فنحن
لا نعرف كيف كانوا يبنون السفن في أوائل القرن السابع عشر . فلم نعرف
شيئاً عن علم العمارة البحرية ، ولم نعرف على أى خرائط لتدلنا على ذلك . ولم نعرف
كيف كان يعيش البحارة على ظهر السفن في ذلك الوقت ، ولم نعرف ما هي
المعدات والآلات البحرية المستعملة وحتى العلم السويدي في سنة ١٦٢٨ كان
مجهولاً لنا .

ولكن بعد أن أزيح الطين عن حطام فاسا ، سدت ثغرات كثيرة في
معلوماتنا : فالسفينة الحربية العملاقة هي في ذاتها نموذج مصغر للمدينة . والآن
وقد وجدناها وكشفنا الغطاء عنها وسنراها قريباً — كما كانت يوم الكارثة —
وستصبح (مثلها في ذلك مثل يومي في إيطاليا وبورت رويال في جامايكا) أحد
الآثار الخالدة .

الفصل التاسع

مدن تحت الأمواج

لا شك أن علم الآثار تحت المائية قد بلغ مدى واسعاً وفعالاً كما اتضح من الفصول السابقة . ولكن علماء الآثار تحت المائية مشغولون ومصممون على أن مهنتهم « ما زالت في البداية » .

فلا زالت أمامهم أعمال كثيرة تفوق الخيال : مسالك بأكملها يجب استعادتها من البحر . أما العمل على اليابسة فما على علماء الآثار إلا أن يتبعوا الأعمال العظيمة التي قام بها من سبقوهم ، وأن يزيدوها ويوضحوها ويظهرها ويسلطوا الأضواء على كثير من التفاصيل ، ولكن العمل الرئيسي بالنسبة لهم قد تم . فلا يمكن البحث عن طروادة ونيينوى وبابل إلا مرة واحدة . أما اللاحقون فهم يضيفون الكثير إلى أعمال السابقين ، ولكن لا يمكنهم تحقيق أشياء جديدة واكتشافات براقية.

أما في علم الآثار تحت المائية فالأمر مختلف تماماً ، وهكذا يرى العالم كل عام بعثات جديدة تكشف عن ميادين خصبة جديدة ، كما أن هناك مناطق أخرى — نصف خرافية — في انتظار زيارات رجال مزودين برئات مائية .

مثال على ذلك إس YS المدينة الغارقة على الشاطئ الشمالى من ساحل بريتانى بفرنسا . مدينة الأساطير والخرافات والغموض ، حتى اسمها نفسه له نعمة سحرية ، يرتبط تاريخياً بالسحر والخرافة .

وتقول الأسطورة إنه منذ آلاف السنين كانت « إس » مدينة فتية وقوية ،

وكانت في تلك الفترة الغابرة من التاريخ حاملة لواء المدينة في العالم الغربي .
وكانت المدينة بوضعها في خليج يحميها من البحر حاجز يصد عنها المياه . أما
السفن التي كانت سبياً في غنى إس فكانت تدخل الميناء عن طريق فتحة الحاجز
التي تغلق بقل .

وتقول الأسطورة إن الملك «جرادلون» ملك إس كان حكيماً وحاكماً عادلاً .
أما ابنته الجميلة « داهوت » فكانت خبيثة وشريرة . وفي يوم من الأيام سرقت
المفتاح الذهبي الذي يفتح قفل الحاجز وذهبت لمقابلة حبيبها . ومر الرقت سريعاً
وهي بين ذراعي حبيبها ، وفي نفس الوقت بدأ المد ، واندفع البحر خلال البوابات
المفتوحة ، وأغرق مدينة إس بكل ثرواتها وأغرق الملك جرادلون وداهوت .
الجميلة الشريرة .

فلماذا سرقت داهوت المفتاح ؟ لم يكن في الأسطورة رد على هذا الاستفسار .
وضاع هذا الجزء من القصة مع الزمن خلال تداولها آلاف المرات وعلى مدى مئات
السنين . ولكن هل توجد حقيقة مدينة إس ؟ هل القصة مجرد أسطورة جميلة ؛
أم فيها جزء من الحقيقة ، كما كان الحال مع إلياذة هوميروس التي حكى قصة
خيالية عن حرب حقيقية بين مدن حقيقية ؟

نعم . . كانت هناك مدينة اسمها « إس » ، ولكن ربما لم يكن هناك ملك .
يدعى جرادلون أو الأميرة داهوت . ولكن المدينة وجدت وأغرقها البحر مع
ما أغرق من مدن أخرى على ساحل بريتانى . ولا زال صيادو قرية كانكال
يعرضون على الزوار أقراص جدر موجودة في قاع البحر بالقرب من بلدهم ؛
ويبدأون بقولهم « هنا مدينة إس » ، ثم يقصون قصة الأميرة داهوت . ولكن
الصيادين مخطئون ، فالجدر القريبة من كانكال هي بقايا قلعة جاردوان التي

قاومت جيوش شارلمان أثناء الحصار ، لتقع بعد ذلك فريسة للفيضان في القرن التاسع عشر . أما إس فانتهد قبل ذلك بزمن طويل .

وقد سكن المستوطنون الرومان ساحل بريتانى فى القرون الأولى للعهد المسيحى — وفى خريطة رومانية ترجع إلى سنة ٤٠٠ ميلادية تظهر إس بارزة على حافة البحر فى خليج الدوناريز . ومن الممكن أن تبحر فى الخليج خلال يوم صحو وترى الطريق الرومانى ممتداً باستقامة من اليابسة إلى الماء وهو مغمور بفيضان قديم . ومن المحتمل أن تكون إس قد أغرقها الفيضان الذى عرف أنه دمر بريتانى عام ٣٩٥ ، أو الفيضان الأكثر فظاعة الذى حدث فى عام ٤٤١ .

ولم يحظ النواصون باستكشاف مدينة إس إذ أن مياه بريتانى عميقة وباردة وطقسها متقلب . وعقب الحرب العالمية الثانية استكشف رحالة فرنسى خليج الدوناريز ولم يجد شيئاً ، حتى ولا مجموعات الأحجار المنحوتة التى لا بد من وجودها هناك . ولا زالت مدينة إس مجهولة ، شأنها شأن العديد من مدن بريتانى الرومانية الأقل روعة . وهنا ، يوجد الكثير من العمل لعملاء الآثار تحت المائية لفترة طويلة مقبلة . إن حوالى ست من المدن المفقودة مغطاة بمحشائش ضارة ، ومسكونة بحيوانات الأخطبوط الملتفة حول نفسها . تنتظر مستكشفيها الجدد فى الميام الباردة .

وهناك مدينة أخرى غارقة ومختفية . هى مدينة هلايك Helike وهى تسمى أيضاً باسم بومبى تحت المائية . وكانت هلايك مدينة فى اليونان ، بلغ بها القدم إلى حد أنها ذكرت فى الإلياذة . . وشأنها شأن بومبى ، فقد دمرت هلايك فجأة ، لا بانفجار بركانى وإنما بزئال وفيضان .

ووقعت الكارثة المزدوجة في عام ٣٦٩ قبل الميلاد ، حين جاء الزلزال
تأولاً ثم بعد ذلك الفيضان .

وقد وصف بوسانياس المؤرخ اليوناني في القرن الثاني الميلادي
المأساة كالآتي :

« في البداية ، اهتزت الأرض حتى الأعماق بواسطة الزلزال . وحينئذ
انقضت فجأة ، وانهار كل شيء بنى عليها ساقطاً إلى الأعماق ، ولم يبق لها أثر
يبعد ذلك . وهكذا دمرت هلايك .

« ويقال إن هذا الزلزال أعقبته مصيبة أخرى أحدثها هذه المرة الفيضان
الموسمي السنوي العالي للبحر الذي غمر المدينة والريف المحيط بها . إن غابة
بوزيدون المقدسة غمرت لدرجة أن المرء لم يستطع أن يرى قمم الأشجار المغمورة
إلا بصعوبة . إن غضب الرب قد أحاق بالمدينة المنكودة خلال عاملين : الأول
أنها دكت — ثم بعد ذلك ابتلعت بكل سكانها » .

ولقد ظلت أطلال هلايك ومدينة بورا المجاورة لها ماثلة لمئات السنين بعد
ذلك ، ترى في البحر على بعد من خليج كورنيث .

ولقد ذكر كتاب كلاسيكيون عديدون أنهم رأوا معابد وأعمدة هلايك
تحت المياه الصافية . ولكن هناك نهران يتدفقان من التلال القريبة محملين بالطمي
وعلى مر القرون دفن هذا الطمي المترسب هلايك .

ولقد زارت بعثة للكشف عن آثار الموقع عام ١٩٥٠ ، ونزل أربعة غواصين
فرنسيين للبحث عن أطلال هلايك . ولكن الوحل كان قد غطى كل شيء .
وفي عام ١٩٤١ غرقت مدمرة ألمانية في هذا الموقع ، وحتى هذه المدمرة دفتت

تقريباً بالطمي خلال تسع سنوات فقط . فكم هي كبيرة إذن كميات الطمي التي..
تغطي مدينة أغرقت منذ ثلاث وعشرين قرناً خلت !

وكان على بعثة ١٩٥٠ أن تتخلى عن فكرة الكشف عن هلايك بطريق..
الحفر ، إذ أن فوقها عشرين قدماً من الطمي المتماصك جداً تغطي المدينة . وفي
عام ١٩٥٠ لم تكن المعدات اللازمة لإزالة مثل هذه الطبقة الهائلة من الطمي..
الغروى متوفرة ، وخاصة أن العمق يصل إلى ١٢٥ قدماً . أما اليوم فإن جهاز
المضخة الماصة مثل مصعد لينك الهوائى يمكنه اختراق كفن الطمي المحيط..
بهلايك بسهولة نسبية ، غير أن المهمة الرائعة لكشف المدينة سوف تستغرق
عدة شهور ، وقد تتكلف مليون دولار . ونظراً لوجود مواقع أخرى أكثر..
إغراء للمكتشفين ، فقد تركت هلايك إلى تاريخ مقبل .

« إذا كنت تبحث عن هلايك وبورا ومدن أخيا المفقودة ، فانظر إذن..
تحت البحر » هكذا كتب الشاعر الرومانى أوفنيد منذ ألفى عام . إن هلايك
وبورا لازالتا تنتظران تحت البحر إخراجهما للنور . وحينما يتم نهائياً الجهد المبذول..
لكشفهما ، فإن الحصيلة ستكون ثمينة . إن عالم الآثار الفرنسى ر . دومانجيل..
في كتابته عن هلايك يشير إلى الواقعة المثيرة الآتية :

« إن مدينة كاملة يرجع تاريخها للقرن الرابع قبل الميلاد ، بكل استحكاماتها..
وأثاث منازلها ، وتماثيل معابدها ، وهياكل سكانها قابعة في انتظار..
حفار المستقبل » .

وثمة مشروع آخر للمستقبل : ألا وهو استكشاف « الفاروس » منارة..
مصر العظيمة ، التي تعد إحدى العجائب السبعة للعالم القديم . والفاروس ، التي
كانت في الأسكندرية على البحر الأبيض المتوسط ، أقامها حوالى سنة ٢٧٩ قبل..

الميلاد مهندس إغريقى يدعى سوستراتوس . وكانت تستخدم كنارة وكنصب عام .
معاً ، وكان طولها يبلغ خمسمائة قدم ويتوجها تمثال ضخم لإله الحرب بوسيدون .
واستمرت الفاروس تعمل ما يقرب من ألف عام ، ثم قلبتها الزلازل فى البحر
الأبيض المتوسط ، مع كل ما تبقى من البناء الجبار ، الذى أخاف قيصر ومارك
أنتونى وآخرين لا حصر لهم من زوار مصر . ولا تعدو بقاياها إلا أجزاء من
الجرانيت الأحمر . وفى عام ١٤٨٠ بنى قايتباى سلطان مصر قلعة وحصناً على
موقع المنارة ، وأدخلت بقايا الفاروس فى جدران قلعة قايتباى .

أما الحطام المبعثر من المنار فما زال ملقى فى قاع البحر فى ميناء الإسكندرية ،
ولكن لا يعرف أحد فى أى مكان هى . إلا أن الغواصين بالجلد قد استكشوا
الميناء بدقة ووجدوا أشياء عديدة ذات قيمة أثرية مثل العملات الرومانية والأعمدة
الجرانيتية والتوايت الزخامية .

وفى أوائل عام سنة ١٩٦٢ غاص شاب مصرى بلباس النوص الجلدى فى
الماء ليصطاد سمكاً ، وكان على بعد ياردات قليلة من الشاطئ ، وكان على عمق
٢٤ قدماً حين رأى قطعاً من تمثال كبير جداً : قطعة واحدة بمفردها كان طولها
عشرين قدماً ووجد بالقرب منها تمثالاً أصغر وعاموداً وأبى الهول .

ويعتقد الدكتور هنرى رياض أمين المتحف الإغريقى الرومانى بالإسكندرية
أن التمثال الضخم قد يكون تمثال بوزيدون الذى كان يعتلى ذات يوم قمة
الفاروس . وإذا كان الأمر كذلك ، فمن المحتمل أن تكون أطلال المنارة
بأكملها مدفونة فى مكان قريب .

وقد أرسلت بحرية الجمهورية العربية المتحدة الغواصين إلى القاع ، فأكدوا

التقرير الأصلي للنواص حول التمثال ذى الحجم الضخم ، ولكن الماء كان عنيقا .
عكراً لدرجة أشد من أن تسمح بتصوير الحطام . وعلق الدكتور رياض قائلاً :

« لدينا في مصر خبرة طويلة بالآثار التي توجد في الصحارى ، ولكن العمل
تحت بحر متقلب أمر جديد وغريب علينا » .

إن مزيداً من العمل في مسح المكان سيؤجل لمدة ستة أشهر ؛ أى حتى
الخريف ، حينما يكون البحر في أهدأ أحواله . وحالما ينتهى المسح يمكن البدء
في أعمال الاستكشاف . ومن المحتمل أن نتشغل الفاروس من البحر بعد أن
يكون قد مضى سبعمائة عام على غرقها .

وليس بعيد عن الإسكندرية من الناحية الجغرافية ذلك الموقع الذى قامت
فيه مدينة قيسارية القديمة . وفي فترة ما كانت كل من الإسكندرية وقيسارية
جزءاً من الإمبراطورية الرومانية ، ولكن الإسكندرية اليوم في مصر وقيسارية
في فلسطين .

لقد شيد هيرودوس ملك اليهود مدينة قيسارية في العام العاشر قبل الميلاد ،
وهو غير هيرودوس الذى نعرفه من الإنجيل ، ولكنه والد الملك الذى سلم المسيح
إلى صالبيه . وقبل أن يبنى هيرودوس مدينته هناك ، كانت تقوم على نفس الموقع
مدينة فارسية قديمة تسمى « أيول » IOL ولقد هدم هيرودوس « أيول » وبنى
ميناءاً لدخول فلسطين . إن المؤرخ اليهودى جوزيفوس ، الذى رأى قيسارية
منذ ألف وتسعمائة عام خلت ، كتب يقول « أقام فيها هيرودوس — طولاً
وعرضاً — مبان ضخمة ذات أناقة عظيمة من الحجر الأبيض ؛ كما زينها بأعظم
القصور فخامة وأقام فيها مبان كبيرة لإسكان الشعوب . . وكانت المدينة ذات

تكوين جميل • وعلى عكس المعتاد فالأقيية والخاص تحت الأرضية لم تكن أقل فخامة من الإنشاءات التي فوق الأرض . . . كما بنى هيرودوس مسرحاً من الحجارة وملعباً يتسع لعدد كبير من الجمهور . . . » .

وكانت قيسارية وهي في قمة مجدها، مدينة عدد سكانها مائة ألف، وكانت ميناء رئيسية في البحر الأبيض المتوسط ، يزخر بالحياة ويزدهم بالتجار من اثنتي عشرة دولة . وجعل بيلاطي البطى مقر بلاطه في قيسارية ، وحكم الرومان هناك لمدة ستة قرون . وفي عام ٦٣٩ غزا العرب المدينة وحولوها إلى ميناء إسلامي نشيط . وبعد ذلك بخمسة عشر عاماً نزل الصليبيون إلى قيسارية وطردها العرب ، وحطموا جزءاً كبيراً من المدينة . وبعد مضي قرن ونصف استرد العرب المدينة مرة أخرى ؛ وفي هذه المرة فإنهم — بدلاً من أن يستوطنوها — اختاروا أن يدمروها تماماً لكيلا ينتفع بها الصليبيون فهدموا الحصن الذي بناه الصليبيون ونسفوا إحدى أنبوتى المياه القديمتين اللتين تزودان قيسارية بالماء وتركوا الفيضان يعيث بها . وتحولت قيسارية إلى بحيرة ، وغطى البلل والطين قصورها الفاخرة ، وبرزت وسط الحطام مدينة تشرشل Cherchel القليلة الأهمية .

إن آثار قيسارية الرومانية لازالت مرئية : حجر الصوان في الميناء ، ومبنى هنا وعامود هناك ، ولكن الرمال المتراكمة غطت المدينة الرومانية كما أن فعل تلاطم الأمواج جعل أجزاء كثيرة من الميناء تنساقط في البحر . وفي أوائل الخمسينيات من القرن الحالي عمل بعض علماء الآثار على اكتشاف قيسارية القديمة باستخدام الرثات المائية . ولكن تم القيام بأكثر الاستكشافات في قيسارية في عامي ١٩٦٠/١٩٦١ بإشراف إدوين أ . لينك الذي اكتشف من قبل بورت رويال .

وقد استخدم لينك سفينته « الغواص البحرى » التى جهزت بشكل يدعو للاعجاب للتنقيب عن الآثار تحت المائية . ولقد جرف مصعده الهوائى أطناناً من الرمال من فوق الأطلال اليونانية إلى خارج الماء ومعها جرار وتوايت و عملات وقطع من الجواهر . أما الحفرون على اليابس فقد وجدوا كنزاً عرياً فى قبو من القرن الحادى عشر يحوى الذهب المرصع والتحف الزجاجية والعقيق والزمرد . ولقد أنت الكراكة أيضاً بكثير من الأشياء غير العادية : مثل دبابيس شعر عاجية ومصباح نادر ومسامير برونزية وميدالية فى حجم القرش . تصور منظراً من الميناء كما كان فى عهد هيرودس . والاكتشاف الهام الآخر كان أرضية رومانية جميلة من الموزايكو كشفها لينك بإزاحته للرمال التى تغطيها بواسطة منفاخه الخاص ذى الضغط العالى .

ومازال الكثير متبقياً فى قيسارية ، سواء على اليابس أو فى البحر . ولكن رحلة أدوين لينك شكلت بداية هامة ، وكانت مساهمة عظيمة للدعوة الدائمة للكشف عن آثار الأراضى المقدسة . وبلا شك فإن استكشافات مصاعد المستقبل الهوائية سوف تقوم بدور كبير فى إزاحة الستار عن مدينة هيرود على البحر الأبيض المتوسط .

وتنتشر مواقع أخرى للآثار تحت المائية فى كل أنحاء العالم . فخمسة آلاف عام من حطام السفن ترقد فى قاع البحر الأبيض المتوسط . وقليل فقط من المئات بل الألوف من هذا الحطام هى التى حدد مكانها . كذلك سيغرق عدد كبير من المواقع الهامة القديمة فى مصر عندما يتم بناء السد العالى — خزان أسوان الجديد ، وحينذاك فإن مجالاً كاملاً جديداً سيفتح أمام علم الآثار تحت المائية . إن السدود التى بنيت فى الولايات المتحدة غمرت مواقع مختلفة من الحياة الهندية الأمريكية ، وسيحتاجون للغواصين بالجلد لاستكشافها . وعلى بعد من شاطئ

سوريا أو شمال أفريقيا أو فرنسا وأينما قام رجال العصور القديمة بالتشيد بالقرب من البحر ، فإنه توجد أطلال تحت الأمواج . إن الرثة المائية والمصاعد الهوائية والكشاف المعدنى تحت المائى ونواحي التقدم التكنيكي الأخرى سوف تجعل مهمة علماء الآثار أيسر كلما تقدموا فى العمل . إن عدد المواقع التى لم تمس بعد يذهل العقل . إن عالم آثار تحت الماء يحتاج إلى ما احتاج إليه الإسكندر الأكبر : ألا يخاف من أنه سوف يقتحم عوالم جديدة ليحقق النصر .

غير أن مكاناً واحداً لم يمسه أحد بل لم يكتشف حتى الآن ، ومن المحتمل أيضاً أنه لم يوجد إلا فى دينا الخيال . ومن المحتمل أن بعض من زودوا بالرثة المائية قد سأل نفسه عما إذا كان هو الشخص الذى سوف يكتشف «أطلانطا» القارة الخرافية المفقودة .

إن «أطلانطا» كما نعلم حتى الآن مجرد أسطورة . وأول من تكلم عنها هو أفلاطون فى مناظرته تيمايوس وكريتياس ، حين سرد قصة إمبراطورية أطلانطا الجبارة الواقعة على جزيرة ذات حجم هائل تقع فى مكان ما غرب اليونان . وذكر أفلاطون أن الأطلانطيين هزموا العديد من الأراضى المحيطة بجزيرتهم الفخمة ، غير أن طغيانهم استؤصل حينما أدى زلزال وفيضان إلى غرقها تحت البحر .

وحدد أفلاطون زمن غرق أطلانطا بأنه قبل زمنه بحوالى ٩٠٠٠ عام تقريباً أى منذ ١١٥٠٠ سنة . وقال إنه سمع القصة من أحد أحفاد رجل الدولة الأثينى القديم المدعو سولون ، الذى سمع بدوره عن أطلانطا من بعض كهنة مصر .

وكان أفلاطون رجلاً ذا خيال شعري ، ومن المحتمل جداً أنه اختلق بوى

أسطورة ما يهدف إثبات أفكاره الفلسفية . ولكن من الجائز أيضاً أنه لم يفعل ذلك .

ونحن لا نعلم الحقيقة — ولكننا نعرف أن أسطورة أطلانطا انتقلت وتمت عبر القرون . ولقد أصبحت أطلانطا إمبراطورية الأدعياء والمخادعين الذين زعموا أنهم قد اكتشفوها . وقد أعلن بعض « الخبراء » أن شعب الماياس في أمريكا الوسطى إنما كانوا لاجئين من أطلانطا الغارقة . وقد وضعت نظريات أخرى تفوق ذلك في الخيال .

إن تتبع تاريخ أسطورة أطلانطا مهمة شاقة . فقد جمع أحد الخبراء بأطلانطا «أساطورتها» قائمة تضم أكثر من ١٥٠ كاتباً دونوا توضيحات وتفسيرات لفقرات أفلاطون عن أطلانطا — والواقع إن معجم أطلانطا لا نهاية له تقريباً .

والحقيقة أنه في كل قرن — منذ زمن أفلاطون — تطلع الناس إلى «أطلانطا» ويحاولون بأن يجدوها ، بل ذهبوا للبحث عنها . إن هذه الحقيقة تبين ما لهذه القارة الأسطورية من نفوذ على تصور الإنسان . إنها خيال ولكنه خيال جذاب ، فمشعوب كثيرة لديها أساطير عن فيضان عظيم ، وعن قارة غارقة تحت الأمواج . ويشير انتشار هذه الأساطير في أجزاء واسعة منفصلة من العالم إلى كارثة حقيقية وقعت في الماضي السحيق : من الجائز أنها غرق مجموعة من الجزر البركانية التي يمكن أن تتحول خلال تناقلها إلى اختفاء قارة بأكملها .

ونحن لا نملك دليلاً قاطعاً ، وقد تكون أطلانطا لا شيء سوى قصة خرافية . وإذا كان هناك نصيب من الواقعية للقصة ، فإنه من الممكن أن يكون قعرنا — قرن — علم الآثار تحت المائية — هو الذى سيراى اكتشافها : واليوم يتنافس الناس فى المائة ركن الغارقة من المعمورة — فى البحث عن السفن والقرى والمدن

المفقودة . فمن ذا الذى يزعم أنه من غير المحتمل أن يعثر واحد منهم على أكثر المسكافات غرابية بين الآثار تحت المائية : ألا وهى قارة مفقودة ؟ .

ويجب ألا نحلم بعيداً بأحلام الخيال . فهناك الكثير من الأعمال أمام علماء الآثار تحت المائية أن يؤديوها فى مجال الغطاس والحفر حتى الأعماق . إنهم لا يحتاجون الركض بعيداً وراء أطلانطا الخرافية ، بينما أن « هلايك وآس » لا زائنا لم تكتشف بعد ، وبينما تجد معظم مدينة بورت رويال راقدة تحت طمى الكاريبي ، وبينما تحتفظ منابع مايان بأسرار من الماضى . ولكن من المحتمل أنه فى يوم ما وبجرد المصادفة ، يثر غطاس محظوظ على الأعمدة البارزة أو الجدران المحطمة لأطلانطا المجهولة ، وسوف يبهز العالم حينئذ كما فعل الغطاسون الذين بعثوا طرودة وينيفه من أعماق الزمن .

وبالطبع وجدت أطلانطا مرات عديدة فى عالم التخيلات ، ولم توصف بطريقة أكثر حيوية مما ظهرت عليه كلاسيكيا فى القرن الماضى نتائج الاستكشاف تحت الماء ، وذلك فى كتاب « ٢٠ ألف فرسخ تحت البحر » لجول فيرن . وقد يبدو غريباً أن نختتم كتابنا عن الحقيقة باقتباس رواية عن تصور خيالى . ولكن هذه حالة لا يتنافس فيها الخيال والحقيقة المثيرة فحسب بل يتفوق فيها الخيال دائماً . ولا بد من أن نذكر أنه فى الوقت الذى كتب فيه جول فيرن روايته ، كان علم الآثار تحت المائية مازال حاداً ، وكانت الرثات المائية خرافة ، وكانت غالبية المكتشفات العظمى لعلم آثار اليابسة لم تنجز بعد . واقدغنى فيرن البعيد النظر بأن يضع فى قالب أسطورى لحمة لا تنسى عن الحيرة والدوار الذى قد ينتظر عالم الآثار الحقيقى لعشرات من السنين المقبلة . وسأخلص هذا المشهد هنا ، لأنه يبدو لى بعثاً أسطورياً مليئاً بالحيوية يعبر عن غموض علم الآثار تحت المائية : —

« وحوالى الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة ، تمت زيارة لى لم تكن متوقعة
تأبداً - وكان الزائر الكاتب نيمو ، وسألنى برقة بالغة عما إذا كنت قد شعرت
بأننى أجهدت فى نومي فى الليلة الماضية فأجبتنه بالنفى .

— « إذن يا سيد « أرون اكسس » أقترح عليك رحلة نادرة ومشوقة » .

— « اقترح يا كاتبين » ..

— « إنك ، حتى وقتنا هذا ، زرت أعماق البحار فى النهار وتحت سطوع
الشمس ، فهل سيدناسبك أن تراها فى حلقة الليل ؟ » .

— « بكل شغف » .

— « على إذن أن أحذرك من أن الطريق سيكون متعباً . فأماناً مسافة
بعيدة لشمسها ، وعلينا أيضاً أن تتسلق جبلاً . . . والطرق ليست مبهدة » .

— « ما تقوله يا كاتبين لا يزيدنى إلا شغفاً . إننى مستعد لأن أتبعك » .

— « تعال إذن ياسيدى . فسأرتدى ملابس الغطس الخاصة بنا » .

وحينما وصلنا إلى حجرة الملابس اكتشفت أنه لا زملائى ولا أى من بحارة
السفينة سيصاحبونا فى هذه الرحلة ؛ وحتى لم يقترح كاتب نيمو أن أصطحب
معى نيكولس .

وفى دقائق قليلة ارتدينا ملابس الغطس ، ووضعوا الخزانات على ظهورنا ،
وقد ملئت تماماً بالهواء ولكن لم تعد لنا مصابيح كهربائية . وقد لفت نظر
الكاتبين لهذه الحقيقة فأجاب .

« إنها ستكون عديمة الفائدة » .

وظننت أنى لم أسمع جيداً . ولكننى لم أستطع إغادة ملاحظتى ، لأن رأسى
الكابتن كانت قد اختفت بالفعل فى غلافها المعدنى . وأنهيت إعدادى لنفسى .
وشعرت بهم يضعون عصا بمقدمة حديدية مدببة فى يدى . وبعد ذلك بيضع
دقائق من الإجراءات المعتادة وضعنا أقدامنا على قاع الأطلنطى إلى عمق ٩٠٠ قامة .
واقترب منتصف الليل ، وكانت المياه شديدة الخسكة . ولكن كابتن نيمو
شاهد فى الطريق (على بعد مياين من الفوتيلوس) بقعة مائلة للاحمرار : كانت
نوراً من ضوء كبير يسطع بهعان . ما هى هذه النار ؟ وما الذى يهونها ؟ وماذا
وكيف أضاءت الكتلة السائلة ؟ هذا ما لا يمكننى أن أرد عليه . وعلى أى الأحوال ،
فإنها أضاءت طريقة إضاءة باهتة . هذه حقيقة . ولكننى ما لبثت أن عودت .
نفسى على الجهاز المخصص .

وحينما تقدمنا سمعت نوعاً من الطريقة فوق رأسى . والضجة تتضاعف بحيث .
تصبح أحياناً سيلاً متصلاً . وما لبثت أن فهمت السبب : إنه مطر ينهمر بغزارة ،
رافعاً سطح الأمواج . وبالغريزة مرت فى عقلى فكرة أنى سأبتل كلية من ذلك .
الماء ، فى وسط الماء ! ولم أستطع مغالبة الضحك على هذه الفكرة الغريبة .
ولكن الحقيقة إننا لا نشعر ونحن فى ملابس الفطس السمكية بالمواد السائلة ،
وإنما يبدو فقط وكأن المرء فى وسط أكثر كثافة من الجو المحيط بالأرض ،
ولا شئ أكثر من ذلك .

وبعد مسيرة نصف ساعة أصبحت التربة حجرية يضيئها نوع من الإشعاعات ،
الفوسفورية لأسمك للديوزا وأنواع الصدفيات الميكروسكوبية وأسمك النباتات ،
المنجحة . وقد شاهدت إشعاعاً لقطع من حجر مغطى بملايين الأحياء البحرية وبكتل
من حشائش البحر . وكثيراً ما انزلت قدمى على هذا البساط الالامى من
حشائش البحر . ولولا عصاى ذات السن الحديدى لسقطت أكثر من مرة .

إننى مازلت أستطيع — حينما التفت حولى — أن أرى مصباح النوتيلوس الأبيض
يزداد شحوباً عبر المسافة الطويلة .

لكن الضوء الوردى الذى يرشدنا تزايد وأضاء الأفق . إن وجود هذا
النور تحت الماء حيرنى لأقصى حد . هل هو إشعاع كهربى . هل أنا متجه إلى ظاهرة
طبيعية غير معروفة بعد لعلماء الأرض ؟ أم هل ليد الإنسان علاقة بهذا اللهب
(لأن هذه الفكرة مرت على خاطرى) ؟ وهل يغذى الإنسان هذه الشعلة ؟ هل
سأقابل فى هذه الأعماق زملاء وأصدقاء للكابتن نيمو ، يتجه لزيارتهم ؟ وهم
— مثله يعيشون فى هذا الوجود الغريب ؟ هل سأجد هناك فى الأعماق مستعمرة
شاملة للعنفيين الذين أضناهم بؤس هذه الأرض فوجدوا الخلاص فى المحيط العميق؟
ورأودتنى كل هذه الأفكار السخيفة وغير المعقولة . ولكن هذه الحال تمر بعقل
فاض اضطرابه بتتابع الغرائب التى تمر باستمرار أمام عينيه . فإننى سوف لا أدهش
حينما أقابل فى قاع البحر واحدة من تلك المدن البحرية التى حلم بها كابتن نيمو .

وأصبح طريقنا أكثر فأكثر إضاءة . وأتى النور الباهت الأبيض فى صورة
أشعة من قمة جبل يباغ ارتفاعه ٨٠٠٠ قدم ، ولكن ما رأيته كان — ببساطة —
انعكاساً انتشر بفعل صفاء المياه . أما أصل هذا الضوء غير الواضح فكان ناراً
على الجانب المقابل للجبل .

وفى قاب هذا التيه الذى يخترق قاع المحيط الأملس ، تقدم كابتن نيمو بلا
أى تردد . إنه عرف هذا الطريق المعتم . وبلا شك فإنه كثيراً ما سافر عليه ولم
يفقد طريقه أبداً . وتبعته بثقة لا يرقى إليها الشك . لقد بدا لي مثل جن البحر .
ولأنه سار أمامى فإننى لم أستطع مغالبة إعجابى بتكوينه الذى تحدد بلون أسود
أمام الأفق المضى .

وكانت الساعة الواحدة صباحاً حينما وصلنا إلى أول منحدرات الجبل . ولكن وجدنا أنه لكي نحرز تقدماً نحوها ، كان علينا أن نعبر خلال ممرات صعبة لدغل متسع . نعم إنه دغل من أشجار ميتة بلا أوراق أو عصارة — أشجار تجرت بفعل الماء ، وتوجت — هنا وهناك — بأعناق عملاقة . إنها تشبه منجم فحم ، وكأنه لا زال قائماً . إنها مثبتة بواسطة جذورها إلى التربة المشققة . وترى فروعها الشبيهة بقصاصات رفيعة من ورق أسود بوضوح على السقف المائى . صور لنفسك غابة معلقة إلى جانبي الجبل ولكنها غابة قد ابتلعت ، وتغطت الطرق بحشائش البحر ، والطحالب الصخرية التي انتشر بينها عالم بأسره من الصدفيات . وواصلت السير متسلقاً الصخور ، عابراً فوق الجذوع المتمددة ، محطماً الحشائش البحرية المتسلقة المعلقة بين شجرة وأخرى ، خيفاً الأسماك التي تسبح من فرع إلى فرع . ولم أشعر بإرهاق وأنا متقدم إلى الأمام ؛ لقد تبعت مرشدى الذى لا يتعب . ياله من مشهد ! كيف يمكننى وصفه ؟ ما أبدع منظر تلك الغابات والصخور فى هذا الوسط ، بأجزائها السفلى الداكنة البدائية والعليا التي صبغت بلون أحمر باهت بواسطة ذلك الضوء الذى ضاعفته الطاقات العاكسة للمياه . وتسلقنا صخوراً سقطت بعد ذلك مباشرة بدرجة هائلة وبالقرعة المنخفضة لانهيار ثلجى . وعلى اليمين واليسار امتدت ممرات مظلمة فقدت فيها الرؤيا — وهنا ساحات واسعة مفتوحة تبدو كما لو أن يد الإنسان هي التي صنعتها . وتساءلت فى بعض الأحيان : أليس من الممكن أن يظهر لى فجأة أحد سكان مناطق تحت البحر هذه ؟

لكن كابتن نيمو ما زال يتساق الجبل ، ولا أستطيع البقاء متخلفاً ، فتبعته بهمة ، وساعدتنى عصا مساعدة طيبة . إن خطوة واحدة طائشة ستكون لها خطورتها فى هذه الممرات الضيقة التي تنحدر إلى أسفل نحو جانبي الأخاديد . ولكننى سرت بخطى ثابتة ، وبلا أى شعور بالارتباك . الآن قفزت أخدوداً

جعلنى عمقه أهتز كما لو كنت وسط نهر جليدى فوق سطح الأرض . والآن عبرت فوق جذع شجرة متعرج يصل بين حافى هوة سحيقة ، وذلك دون أن أنظر تحت قدمى ، فلقد اسغرت تماماً فى إمتاع ناظرى بالمشاهد الطبيعية فى هذه البقاع .

وهناك أيضاً صخور تذكارية ، تكاد تتحدى كل قوانين التوازن بارتكازها على قواعد المقلوعة بغير انتظام ، ومن بين ركبها الصخرية امتدت الأشجار بطريقة تشبه اندفاع سائل تحت ضغط ثقيل ، تتشابك وتدعم بعضها البعض . إن أبراجاً طبيعية وأعمدة كبيرة شقت عمودياً مثل « ستارة » أو مالت على زاوية لا يمكن لقوانين الجاذبية أن تحتملها فى المناطق الأرضية .

وبعد ساعتين من مغادرتنا التوتيلوس ، كنا قد عبرنا خط الأشجار ، وارتفعت فوق رأسينا بمائة قدم قمة الجبل التى ألفت بظلمتها على الاستضاءة الناصعة للمنحدر المقابل . إن بعض الشجيرات المتحجرة انتشرت حينما اتفق هنا وهناك ، والأسماك فزعت تحت أقدامنا مثل الطيور فى العشب الطويل ، والصخور الهائلة شقت بشروخ غير نافذة وبتجاويف عميقة وثقوب بلا قاع يمكن أن تسمع فى قاعدتها مخلوقات مزعجة تتحرك . لقد تجمد دى حينما رأيت عدداً هائلاً من قرون الاستشعار يملأ طريقى ، أو مخالباً خفيفاً يلتصق فى ظل أحد التجاويف مصحوباً بضجة . إن ملايين من البقع المضيئة ترى بوضوح فى قلب الظلام : إنها عيون صدفية عملاقة قبعت فى جيورها ، وسلاحف مياه تنصب نفسها مثل الجلادين ، وتحرك مخالبها محدثة رنيناً خافتاً بأظافر الحادة ، وسرطانات ضخمة بدت مثل مدفع على عربته ، وحيوانات أخطبوطية مخيفة المنظر تموج أذرعها مثل عشب جى للشعابين .

وقد وصلنا الآن إلى أول مسطح حيث تنتظرنا مفاجآت جديدة انبسطت.
أمامنا بعض الأطلال الجميلة المنظر التي خانت يد الإنسان ، ولكنها لم تكن يد
الخالق : فهناك أكوام هائلة من الحجر التي تميزت بينها أنواع غامضة وخيالية
من القلاع والمعابد مغطاة بعالم مزهر من الأسفنجيات التي نما فوقها حجاب كثيف.
من الخضرة بدلاً من الحشائش البحرية والطحالب . ولكن ما هو هذا الجزء من
المعمورة الذي ابتاعته الطوفانات ، ومن الذي وضع هذه الصخور والأحجار التي
تشبه مباني عصور ما قبل التاريخ ؟ أين أنا ؟ وإلى أين تتعجلني خيالات.
كابتن نيمو ؟

وامتلأت رغبة في أن أسأله ، ولكنني كنت غير قادر على ذلك ، وأوقفته.
وأمسكت ذراعه . ولكنه هز رأسه وأشار إلى أعلى بقعة من الجبل وكأنه يقول :
— « أقدم . أقدم إلى الأمام . أقدم إلى أعلى ! » .

وتبعته . وفي دقائق معدودات كنت قد تسلقت إلى القمة التي تمكنت من.
فوقها أن أحيط بكل كتل الصخر في دائرة اتساعها عشر ياردات . ونظرت إلى
أسفل ، إلى الجانب الذي صعدناه تواء : إن الجبل لا يرتفع إلى أكثر من سبعمائة
أو ثمانمائة قدم فوق مستوى القاع ، ولكنه على الجانب المقابل بحكم أعماق هذا
الجزء من الأطلال من ارتفاع يبلغ ضعف ارتفاعه من الجانب الذي تسلقناه .

وأحاط بصري بمساحة كبيرة مضادة بالمعان متوهج : إن الحقيقة أن الجبل
كان بركانا .

وعلى ارتفاع خمسين قدما فوق القمة ، وفي وسط سيل جارف من الحجارة
والحمم ، كانت فوهة البركان تقذف بتيار جارف من الحمم جرى متدفقا مثل
شلال من نار إلى أحضان الكتلة السائلة ، وبوضعه هكذا أضاء هذا البركان.

— مثل شعلة هائلة — السهل السفلى إلى حدود الأفق البعيدة ، إننى قلت إن قوة البركان تحت البحرى قد قذفت حمماً لا لهيباً ؛ فاللهب يتطلب باستمرار أكسجين الهواء لإشعاله ، ولا يمكن أن يوجد هذا الأكسجين تحت الماء ؛ أما تيارات الحمم فتحتوى ذاتياً على مكونات تأججها ، ويمكنها أن تكتسب ضوءاً أبيض ، وتقاتل بشراسة العنصر السائل وتحوله إلى بخار بمجرد ملامسته .

إن تيارات سريعة تحمل كل هذه الغازات المنتشرة ، كما تحمل كل سيول الحمم ، وتلقيها إلى قاعدة الجبل ، مثل انفجار لبركان فيزوف على أرض إغريقية أخرى .

فهنالك — فى الحقيقة — مدينة محطمة ومخرّبة ملقاة تحت بصرى ، أسطحها مفتوحة إلى السماء ، ومعابدها منهاره ، وأقواسها متفسخة ، وأعمدتها ممددة على الأرض ؛ ومنها يمكن للمرء أن يعرف المميزات الرائعة للمعمار التوسكانى . وعلى بعد من ذلك يوجد حطام لخزان هائل . وهنا أيضاً القاعدة العالية لتمثال لأكروبوليس مجاورة لحدود ظاهرة من البارثنون . وهناك آثار جسر كما لو أن ميناء قديماً أقيم من قبل على شواطئ المحيط ثم اختفى بمحاله التجارية وحصونه الحربية . وعلى بعد آخر وجدت خطوطاً طويلة لجدران غارقة وشوارع واسعة مهجورة — كأن بومبى حقيقة اختفت تحت الماء ، هذا هو المشهد الذى وضعه كابتن نيمو أمام عيني .

أين أنا ؟ أين أنا ؟ يجب أن أعلم بأى ثمن . حاولت أن أتكلم ، ولكن كابتن نيمو أوقفنى بإشارة منه والتقط قطعة من حجر طباشيرى وتقدم إلى صخرة من البازلت الأسود وكتب كلمة واحدة :

« أطلانطا »

أى ضوء سطع فى مخيلتى : « أطلانطا » الميرويس القديمة لثيوبومب ،
« أطلانطا » عهد أفلاطون ، تلك القارة التى كذب وجودها أريجن وجاميليكوس
و د / أنفيل ومالت برون وهامبولت الذين وضعوا قصة اختفائها بين الأساطير
الخيالية التى افترضها يوزيدون وبلينى وآميانوس مارسيلينوس وترتوليان وأنجل
ويوفون و د / أفيزاك . إنها هناك أمام عيني ، تحمل فوقها الشهادة المؤكدة
لكارتتها . وهكذا فالمنطقة التى ابتلعت كانت وراء أوروبا وآسيا وليبيا ، وراء
أعمدة هرقل حيث عاش الأطلانطيون — أولئك الناس الأقوياء الذين شنت
ضدهم أول حروب اليونان القديمة .

هكذا دست — ومنقاداً بأغرب الأقدار — بقدمى جبال هذه القارة ،
ولمست بيدي تلك الأطلال التى عاشت منذ آلاف الأجيال — بل عاشت فى عصر
واحد مع أقدم الأحقاب الجيولوجية . إننى مشيت فى نفس البقعة التى مشى فيها
خلفاء الإنسان الأول .

وبينما حاولت أن أثبت فى ذهنى كل صغيرة من هذه الأصقاع الكبيرة ،
ظل كابتن نيمو بلا حراك ، كما لو كان قد تمحجر من نشوة طاغية ، وهو مستند إلى
حجر مغطى بالطحالب . هل كان يحلم بتلك الأجيال التى اختفت منذ زمن بعيد ؟
هل كان يسألهم أسرار حظ الإنسان وقدره ؟ هل جاء هذا الرجل الغريب إلى هنا
ليغمر نفسه بذكريات تاريخية ، وليعيش مرة أخرى هذه الحياة القديمة — وهو الذى
لم يرغب قط فى الحياة الحديثة ؟

إننى لأعطى كل ما أملك لكى أعرف أفكاره ، وأقاسمه إياها ، وأفهمها .
ومكثنا ساعة فى هذا المكان نتأمل السهل المتسع تحت توهج الحمم التى تبرق أحياناً
بروعة . وسرت فى الجبل ذبذبات سريعة بسبب غليانات داخلية . وثارت ضجة

عميقة تنتقل بوضوح عبر الوسط السائل وتنعكس في صدى فائق الرهبة . وفي هذه اللحظة ، ظهر القمر خلال كتل المياه ، وألقى بأشعته الشاحبة على القارة المدفونة . إنها ليست إلا ومضة . ولكن أى أثر لا يوصف تركته . وانتصب الكابتن ، ملقياً نظرة أخيرة على السهل المتراعى ، ثم أمرنى بأن أتبعه .

ونزلنا الجبل بسرعة . وبمجرد تخطينا للغابة المعدنية ، رأيت مصباح النوتيلوس يتألق مثل النجم . واتجه الكابتن نحوه رأساً ، وبلغنا سطح السفينة في نفس الوقت الذى أضاءت فيه الأشعة الأولى من النور سطح المحيط .

مطابق سجل العرب
٩ عماد الدين - بستان الدكة
تليفون ٥٢٣٠٩

الناشر
سجل العرب
القاهرة

